رواية

J A D A L

Telegram:@mbooks90

فيكتور بوشيه

لماذا تموت الطيور؟

ترجمة
وليد أحمد الفرشيشي

جدل
منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لماذا تموت الطيور؟

فيكتور بوشيه

ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي

العنوان الأصلي بالفرنسية

POURQUOI LES OISEAUX MEURENT

Victor Pouchet

2017

الطبعة الأولى: أكتوبر 2021م

المطبعة: مطابع الخط - الكويت

ISBN: 978-9921-774-00-0

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر. اعملوا معنا في نشر وعي الحفاظ على حقوق الطبع واللشر، لنجعل عملية الإبداع أكثر أماناً.

منشورات جدل

JADAL PUBLISHING

دولة الكويت

WWW.JADALBOOKSTORE.COM

(+965) 99900912

JADAL.PUBLISHING

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥

«من المرجح بشدة ألا يموت المرء بسبب مرض أو حادث أو حتى بسبب الشيخوخة، وفي تقديري هو يموت بسبب ما لم يختبره».

فريديريك بيرثيه

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

«لقد أمطرت السماءُ طيورًا نافقة». كرّرتُ جملتي على مسامعِ أصحاب القوارب الرّاسية عند رصيف ميناء «باريس»، لكنّهم تطلّعوا إليّ باستغرابٍ. ومع ذلك، كان ما قلتهُ لهم دقيقًا: كانت السماءُ قد أمطرت طيورًا نافقة بالفعل. رحتُ أنتقلُ من مركبٍ إلى آخر، محاولاً شرحَ ما أريدهُ لأصحاب المراكب: النزولُ إلى نهر «السّين» على متن أحد القوارب لكي أراقب الطيورِ، وبلوغ ضواحي مدينة «روان»(8) حيث تكرّرت حوادث نزول أمطارٍ من الطيور النافقة. عندما أخبرتهم بذلك، سخر منّي أغلبهم. أحدهم أنصت إلى ما أقولُ باهتمامٍ ثمّ نصحني بالتوجّه إلى محطّة «سانت-لازار»(7)، حيثُ يغادرُ القطار السّريعُ كلّ ساعةٍ في اتّجاه «روان»، وردّ عليّ آخرُ، كان ينقلُ أكياس رملٍ، بلغةٍ غير مفهومة خمّنتُ أنّها التشيكية. ولقد تكرّر الأمرُ مع كلّ أصحاب القوارب الذين قابلتهم، إذ كانوا ينصتون أوّل الأمر إلى ما أقولُ، ثمّ يبدون عدم فهمهم، قبل أن يخبروني، بعدم اكتراثٍ، أنّه لا توجدُ أماكن شاغرة لي على مراكبهم.

Telegram:@mbooks90

بعد جهدٍ، أرشدني واحدٌ منهم إلى مقرّ شركة «السيّن الأزرق»، وهي شركة كانت تقومُ برحلاتٍ على ذلك النّهر الذي لم يكن أزرق تمامًا كما يوحي بذلك اسمهُ. في مدخل المقرّ، اعترضتني لافتةٌ تحملُ صورة مجموعةٍ من المتقاعدين في أوّل سنيّ كهولتهم، وهم بصدد تناول كوكتيلات متعدّدة الألوان فوق سطح أحد المراكب، بينما يواجهون أحد المنحدرات بمرحٍ غامر. وتحت الصورة، قرأتُ تعليقًا يقول: «اصعدوا على متن سفينة «أم. اس. بوتشيللي» واكتشفوا المناظر الخلاّبة من «باريس» إلى «هونفلير»(6) وثراء مخزون المنطقة التراثي».

دفعتُ الباب ولسانُ حالي يردّدُ: ألستُ بالنّهاية واحدًا منهم، متقاعدًا على مشارف التّاسعة والعشرين، تغيّر لون شعرهِ، وفقد ذاكرته منذ وقتٍ طويلٍ، وصارَ ينفقُ أيّامه بوتيرةٍ جدّ محسوبة؟

أخبرتني فتاةٌ ترتدي زيّ البحارة، أنّ سفينة «أم. اس. بوتشيللي» لن تغادر بسبب أعمال الإصلاح والصيانة، وعرضت عليّ مكانًا شاغرًا على متن السّفينة الأرستقراطيّة «أميرةُ السّين»، وهي سفينة تخدمُ على خطّ الرحلات نفسه وبالوتيرةِ نفسها. وكما لو

أنّها ترغبُ في نسفِ ما قد يعلقُ برأسي من خيالاتٍ رومانسيّة حيال الرّحلة، أضافت قائلة: «نحنُ نقدّمُ نفس الخدمات المعروضة على متن «أم. اس. بوتشيللي»». اقتنيتُ تذكرة مقصورة مزدوجة على متن السّفينة (قيل لي إنّ طولها يبلغُ 110 أمتارٍ وعرضها 11 مترًا) التي كان من المقرّر أن تبحرَ بعد خمسة أيّام.

لم أجد الجرأة على إخبار الفتاة بالهدف من وراء رحلتي، إذ كان يتعيّن عليّ حينها أن أصفَ لها صور حقل الطيور النافقة التي ظهرت على شاشة جهازي التلفزيوني في الأسبوع الماضي، وهي صورٌ ما انفكت تداهمُ مخيّلتي منذ ذلك الوقت. عادت إلى مخيّلتي ذكرى لقطةٍ واسعةٍ أظهرت المشهد برمّتهِ، أعقبها تعليقُ المراسل الذي حدّدَ مكان الواقعة، قائلاً: «...في دائرة قطرها بضع مئاتٍ من الأمتار، داخل بلدة «بونسكور»(5) الصغيرة، هطلت هذه الأمطارُ الغريبة....». في تلك اللحظة، قفزتُ صارخًا في شاشة جهاز التليفزيون «لقد حدث الأمرُ في مسقط رأسي، لقد حدث الأمرُ في مسقط رأسي!». أجل، كان طوفانُ الطيور النافقة قد حدث في مسقط رأسي، في المدينة التي أمضيتُ فيها أجمل سنوات حياتي وأسوأها، سنوات طفولتي وشبابي، قبل انتقالي إلى «باريس»، لكنّي لم أتبيّن، مع ذلك، مكانِ وقوعَ الحادثة بدقّة. هل حدث ذلك وراء قاعة الرياضة القريبة من الطريق المؤدية إلى «دارينتال»؟ كلُّ ما رأيتهُ على الشاشة هو صور حقل محاط بسلسلة من البيوت الصغيرة الواطئة، وقد انتشرت فوقهُ مئات الجثث السوداء الصغيرة بعناية حتّى بدا الأمرُ كأنّ يدًا تعرفُ ماذا تصنعُ أرقدتها هناك. كان بعضها ممدّدًا على جانبهِ، ورقد بعضها الآخر على ظهره وقوائمه في الهواء، كما كان بالإمكانِ معاينةِ ما يشبهُ اللّمعان فوق أجنحتها، وكأنّ دمًا دهنيًا علقَ بريشها.

لم تتضمّن شهادات السّكانُ الذين تمّ استجوابهم قدّامَ منازلهم تفاصيل أكثر ممّا ذكرهُ المراسلُ. قالوا إنّ السماء لم تشهد يومها هطول أمطار غزيرةٍ أو حدوث زوابع، لكنها أمطرت طيورًا نافقة، ودام الأمرُ لبضع دقائق، في وقتٍ متأخرٍ من الظهيرة. قالوا أيضا إنّ المنطقة شهدت سقوط المئات من الطيور على الأرض، حتّى إن طفلاً كان يلعبُ بالأرجوحة، أصابهُ منقارُ زرزور(4) في أذنه، بينما قطع بعض النّاسِ

قيلولتهم وقد تناهت إلى أسماعهم أصواتُ ارتطامِ مصمتة لأشياء كانت تتساقط فوق أسطح منازلهم. وأضافوا أنّ ثقة من بينهم من ذهب في ظنّه أنّ البلدة كانت تتعرّضُ وقتها إلى هجومٍ جوي، غير أنّ تلك القنابل المجنّحة لم تنفجر، بل هوت على الأرض كأنّها تعبت من التحليق.

كان المشهدُ، إذ يرى من بعيدٍ، يشبهُ شكلاً هندسيًا مفككًا يحتاجُ إلى تجميع قطعه. كان يبدو مثل الرّسوماتِ التي يدعى الأطفالُ إلى تجميع قطعها المرقّمة لكي يحصلوا على شكل الرسّم نهائيّ، كأن يجمعوا على سبيل المثال، الأرقام 26-27-28-29-30 لكي يحصلوا على رسم أميرةٍ أو فيلٍ أو جمجمةٍ.

كانت كلمة «مطر» تتكرّر على ألسنة مراسل التليفزيون والسكان رغم عدم وجودِ رابطٍ منطقيّ بين الحادثُ وظاهرة التكثّف، التي يتحوّلُ بمقتضاها بخارُ الماءُ إلى الحالة السّائلة، فضلاً عن ذلك، بدا أن الأمر برمّتهِ يهيّجُ في الأذهان مشاهدَ عن نهاية العالم، واختفاء قوانين الجاذبيّة واستحالة التحليق وطيران الأجسام الخفيفة. لقد كنّا في شهر أكتوبر، مع بداية فصل الخريف، حينَ أمطرت السّماءُ حيوانات نافقة في منطقة «نورماندي العليا»(3).

منحتني بائعةُ الزّحلات النهريّة السّاحرة ابتسامة هادئة ثمّ سلّمتني مظروفا يحتوي على تذكرة ودليلٍ سياحيّ. كان يفترض بي أن أشرح لها (الحقّ أنّه لم يكن يعنيها أن أشرح لها أيّ شيء) قصّتي مع الطيور التي تستحوذُ على تفكيري، وذلك قبل مدّة طويلةٍ من وقوع حادثة الطيور النافقة، صباح ذلك اليوم من أيّام شهر أكتوبر. كان يفترض بي أن أخبرها عن قصّة الببغاء ذي الرّيش الأخضر والأصفر المرقّطِ باللون الأسود، ببغاء كنّا قد أمسكنا به في «بونسكور»، خريف العام الذي بلغتُ فيه من العمر سبع سنوات.

لقد خشينا، أنا وأخي، ألا يتحمّل قسوة الشتاء النورماندي، فقرّرنا الإمساك به، بينما كان يطيرُ بالقربِ منّا، وهو ما نجحنا فيه بالفعل، وقد وقر في قلبينا أننا نسدي له معروفًا بصنيعنا ذاك. اشترينا له قفصًا كبيرًا أزرق اللون، وأطلقنا عليه اسم «ألفريد»- أجل يحدثُ أن يطلق المرءُ على ببغاء اسم ألفريد إن هو قرّر ذلك- ومن

ثقة أمضى الشتاء مستمتعًا بالدفء داخل غرفة جلوسنا. ولكن بحلول فصل الصيف التالي، راح «ألفريد» يتصرّفُ بغرابة. ففي بعض الأيّام، كان يستمرُّ في الصّراخ لساعاتٍ، أو يشرع في القفز، في أوقاتٍ أخرى، فوق معلفهِ باضطرامٍ، فاضطررنا إلى نقل قفصه إلى الحديقة لكيلا نجبرَ على تحمّل تقلبّ مزاجهِ. وذات ظهيرة أحدٍ في شهر يوليو، ارتمى «ألفريد» فجأة على قضبان قفصهِ، وراح يكرّرُ العمليّة عدّة مرات، مطلقا صرخات عالية، وقد كنتُ حينها منهمكا في اللعب بمفردي داخل غرفة المعيشة. حالما تناهى إليّ صوتُ صراخه، هرعتُ إليه راكضا محاولاً تخليصهُ من بين القضبان، لكنّه أخذ يرفرفُ بجناحيهِ بفوضى وتصميمٍ مطّردين، واجتاحني الرّعبُ من مشهد ريشه الأصفر الأخضر والأصفر، المتناثر في كلّ مكانٍ، وخفتُ من تعرّضي للأذى، إن هو بادر إلى مهاجمتي بمنقاره أو مخالبه. كلّ ما قدرتُ على فعله هو التراجع إلى الخلف والاكتفاء بمتابعةِ لحظات احتضاره، حتّى انتهى به الأمرُ إلى تحطيم جسده في غضون بضع دقائق، وغرقَ داخل بركةٍ من الريش والدماء. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أشهد فيها موتَ كائنٍ حيّ. وعندما عاد والداي إلى المنزل (أين كانا حينها؟ لم أعد أذكر)، ألفياني جالسا أمام القفصِ، غارقا في دموعي وعاجزًا عن الكلام أو تفسير ما حدث بالضبط. في قرارة نفسي كنتُ أشعرُ بأنّي مسؤولٌ عن موتهِ، وعجزتُ عن قول أي شيء باستثناء تلك الجملة التي رحتُ أكرّرها والعبرات تخنقني: «إنه خطئي، إنّه خطئي». حاول والدي تهدئتي قائلاً: «هيا اهدأ. لا بأس، لم يحدث شيء. فليذهب الطائرُ إلى الجحيم!»، لكنّ مشهد موتهِ ترك أثرًا عميقا داخلي، ما اضطر والدتي في ما بعد إلى منعي من تصوير الطيور الميتة فوق دفتر رسوماتي، على نحوٍ ميكانيكيّ، وهي عادةٌ اكتسبتها منذ تلك الحادثة.

بعد مرور بضعة أشهر، توسّلتُ إلى أخي لكي يعطيني شريط فيلم كان قد سجّلهُ على جهاز الفيديو، هو فيلم «الطيور»(2). شاهدتُ فيلم «هيتكشوك»(1) للمرّة الأولى سرًّا على شاشة جهاز التليفزيون الموضوعِ في العليّة، واستبدّ بي الرّعبُ، ثمّ أعدتُ مشاهدته ثلاث مرّات أو خمس. الحقّ أنيّ لم أعد أذكر. ما أتذكّرُه هو أنيّ كلّما آويتُ في الليل إلى فراشي إلاّ وراحت أصواتُ نعيقُ الغربان وصراخ النوارس تدورُ داخل رأسي وتكادُ تمسكُ بخصلات شعري. أحيانًا، كنتُ ألعب داخل سريري، محوّلاً

إيّاهُ إلى حصن مصنوع من الملاءات، وأقومُ بإعادة تمثيل مشهد هجوم الطيور على «تيبي هودرين»(0) المحاصرة داخل غرفتها في الطابق العلوي، ملقيًا بالدمى القطنية على الحصن، متظاهرًا بأنها طيور بمناقير غير حادّة، لكي أتمكن من النجاةِ في النهاية. وذات يومٍ، اختفى الشّريط، لينتهي المطافُ بي إلى التفكير في أمورٍ أخرى، فاستعضتُ عن مخاوفي من الطيور، بمخاوفَ أخرى أقلّ وطأة كالنجاح في المدرسة ومحاولة إرضاء والديّ وصاحباتي...ولتذهب الطيور إلى الجحيم!

لقد خلتُ أنّي نسيت الأمر، لكنّ مشاهدة صور أمطار الطيور النافقة في «بونسكور» تركت لديّ انطباعا بأنّي كنتُ أشاهدُ جزءاً من طفولتي، سبق لي أن دفنتهُ، وهو يعاودُ الظهور، حتى التبسَ عليّ الأمرُ فتخيّلتُ أنّ الأمطارَ ماهي إلاّ جزءٌ من كارثة قديمة حدثت في طفولتي، وها هي تكشفُ عن ملابساتها لي.

واصلت موظّفة شركة «السين الأزرق» منح ابتساماتها لي، لكنّي كنتُ شارد الذهنِ تمامًا. لقد كان يفترضُ بي أن أفسّر لها أنّ هوسي الشّديد بالطيور خلال الأيّام القليلة الماضية، يكادُ يبعثُ فيّ شعورًا بالرّاحة، فللمرّة الأولى في حياتي، أحسُّ أنّي لستُ معنيًا لوحدي بقصص الطيور.

كان والدي ما يزالُ يعيشُ في «بونسكور». ولقد حاولتُ مهاتفتهُ أكثر من مرّة، وقد قدّرتُ أنّ لديه تفاصيل أكثر عن أمطار الطيور النافقة، لكنّهُ لم يردّ قطّ على اتصالاتي.

---

(8)مدينة وبلدية فرنسية تابعة لإقليم السين البحرية بمنطقة نورماندي بشمال غرب فرنسا، وتعدّ عاصمة مقاطعة مصب السين (كل الهوامش من وضع المترجم).

(7)محطة مترو تابعة لمترو باريس تقع في فرنسا في الدائرة الثامنة في باريس.

(6)مدينة تقع في فرنسا في كالفادوس (إقليم فرنسي).

(5)بلدة تقعُ بالقلاب من مدينة روان.

(4)الزرزوريات هي طيور صغيرة إلى متوسطة الحجم. يوجد الزرزور بشكل طبيعي في العالم القديم أوروبا وآسيا وأفريقيا، كما في بعض مناطق الشرق الأقصى وأستراليا.

(3)هوت-نورماندي أو النورماندي العليا هي منطقة في وسط شمال فرنسا وعاصمتها هي روان.

(2)فيلم تشويق ورعب أمريكي من انتاج العام 1963 وإخراج ألفريد هيتشكوك وكتابة إيفان هانتر. وقصة الفيلم مستوحاة من أقصوصة «الطيور» لدافين دو موريه.

(1)ألفريد هيتشكوك (13 أغسطس 29 - 1899أبريل 1980) منتج ومخرج أفلام إنجليزي، يعدّ رائد أفلام الإثارة والتشويق في السينما العالمية.

(0)بطلة فيلم الطيور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لولا ما جدّ من أحداثٍ، بعد هطول الأمطار العجيبة على «بونسكور»، لما كنتُ قرّرتُ ركوب النهر، أو سارعتُ بذلك على الأقلّ. فبعد ثلاثة أيّام من الحادثة الأولى، هطلت أمطار مماثلة فوق بلدة «بلان فيل كروفون»(13)، على بعد بضع كيلومترات شمال مدينة «روان»، وتكرّر الأمرُ في اليوم التالي فوق بلدة «باردو فيل»(12)، أمام كنيسة «سانت مارتان». والمعلومُ أنّ هاتين البلدتين تقعان، كـ «بونسكور»، في محيط نهر «السين».

في ذلك اليوم، كنتُ جالسًا في المقهى الواقع عند تقاطعي شارعي «الشهداء» و«ترودين»، وبين يديّ الصحيفة، لكنّ عيناي كانتا تصرّان في كلّ مرّة على الهروبِ من صفحاتها لكي تتابعا الدوّامة المنصوبة في السّاحة المقابلةِ، بألوانها المتألّقة على نحوٍ يستحيلُ أن يصادفنا حتّى في أكثر مجلات الرّسوم المتحرّكةِ إسرافًا في الزينةِ. رحتُ أتابعُ نظرات الأطفال الزائغة بينما يلعبون (كلّ الآباءُ يحبّذون تصديق فكرة أنّ أطفالهم يلعبون)، وبدوا لي، غير قادرين على استيعاب ماهيّة المتعة التي ينشدونها في دورانهم ذاك. في واقع الأمر، لم يكن مهمًا ما كانوا يمتطونه، أكان ذلك مجسّم سيارة إطفاءٍ أو مكوك فضاء أو طائر بلشون أو دراجة ناريّة (يا للحيوات الكثيرة التي لن يعيشوها)، إذ بدا من الواضح أنّهم يستمتعون بلعبةٍ أخرى: مراقبةِ آبائهم أو الهروب منهم. الآباء أنفسهم لم يكونوا أفضل حالاً، إذ كانوا يمارسون نفس اللعبة: التلويح لأبنائهم أو الفرار منهم، منغمسين في قراءة مجلّة أو في محادثة جانبية أو ربّما في التفكيرِ في حيواتهم البسيطة الخالية من الإثارة.

لقد شعرتُ في ذلك اليوم بأنّ الدوّامةُ لعبة خطرة جدًا، لعبة لا يستمتعُ فيها الطفلُ بالنظر إلى أمّه، وإنّما بالعثور عليها مع كلّ انعطافٍ، مستسلمًا إلى مشاعر الخوفِ والمرحِ والفقدِ. وبينما أتابع المشهد الدائر أمامي، ذكّرتُ نفسي بأنّ مرحلة الطفولة ليست مرحلةً خالية من الهموم كما قد يتخيّلُ بعضهم، فمع كلّ لفّةٍ تقومُ بها الدوّامة، كنتُ أشاهدُ طفلاً ذا خصلات شعرٍ متناثرة، تهيّأ لي إنّي كنتهُ في السّابق. كان طفلاً يحلمُ بأن يكون محبوبًا، ويحظى بموقعٍ داخل عالمٍ يراهُ لولبيًا، وقد راحت رغباتهُ تتنازعهُ، فلا هو يعرفُ إن كان يفضّلُ امتطاء مجسّم طائرة هيليوكوبتر أو التشبث

بمجسّم الفأر «ميكي».

فجأة، وقعت عيناي على مقالٍ، حين صفحات جريدتي اليوميّة، أخرجني تمامًا من أحلام يقظتي. كان يتحدّث عن «هطول أمطار جديدة من الطيور النافقة فوق منطقة نورماندي العليا، على طول نهر «السين»، في بلدتي «بلان فيل كروفون» و«باردو فيل»»، وختم بالقول إنّ «الأسئلة تتعاظم».

أمضيتُ ما تبقّى من ذلك اليوم راقدًا في السّرير، وكأنّ قدميّ عجزتا عن الوقوف تأثرًا بوقع تلك الأخبار. بعد مشاهدتي لأوّل تقريرٍ بثّه التلفزيون حول أمطار الطيور النافقة، رحتُ أقصّ بوعي شديدٍ كلّ ما يقعُ تحت يدي من مقالاتٍ حول الحادثة، وألصقها داخل دفتر ملاحظات. كانت صحيفة «باريس نورماندي» قد تطرّقت للموضوع في أكثر من مناسبة، حتّى إنّها خصّصت صفحة كاملةً له في إحدى المرّات. وبالمثل، كتبت الصحفُ الوطنية عن الحدث، وسارعت جمعيات الدفاع عن البيئة إلى إرسال بيانات صحافيّة، وأصدرت النوادي المحليّة المهتمّة بعلوم الطيور والصيد بلاغاتها، ونشر أناسٍ عاديون رسائل داخل غرف الدردشة الموجودة على شبكة الإنترنت. كنتُ أنقلُ كلّ ما ينشرُ بخصوص تلك الحوادث في دفتر ملاحظاتي، وألصقُ الرسومات وصور الزرازير الحيّة والميّتة، صورًا كانت قد التقطت في «بونسكور» وغيرها من الأماكن، ومعها خلاصات علميّة حول فصيلة الجواثم(11) المتنوّعة، وكلّ ما يتعلّق بالظواهر المماثلة التي سبقت حادثة الأمطار الأخيرة. كنتُ أقولُ لنفسي إنّي ألقيتُ على عاتقي مهمّة جمع الأدلّة على نهاية العالم الوشيكة. فشل الجميعُ في تقديم إجابةٍ تفسّرُ «أسباب نفوق الطيور»، وتعدّدت الافتراضات على نحوٍ يصعبُ حصرهُ. وبالمثل، عجز الجميع عن تقديمِ جردٍ زمنيّ لكيفيّات نفوقها: هل نفقت في السّماء؟ أم لحظة اصطدامها الأرض؟ أم مع تهاطل الأمطار الغزيرة؟ أم قبل ذلك بوقتٍ طويل؟

عدتُ إلى دفتر ملاحظاتي وقمتُ بلصق المقال الأخير. بعد ذلك انهمكتُ في إجراء معادلات رياضية لم تكت تفضي إلى أيّ شيء، إذ ضربتُ تواريخ الحوادث بأعداد الطيور وقسمتُ إحداثيات خطوط الطول والعرض على المساحة التي سقطت

فوقها الطيور. بيد أنّ كلّ محاولاتي كانت دون فائدة وشعرتُ بأنّي أغرقُ داخل حالة من الفوضى الذهنيّة. لكنّي لم أيأس، إذ دلفتُ إلى الشبكة العنكبوتيّة بغيةَ تنشيط عمليّة البحث مستخدمًا لوائح كلمات جديدة على غرار: «طيور نافقة- القرن العشرين- نورماندي» أو «سقوط زرازير- بونسكور- روان» أو «نهر السيّن- سمّ- طيور- بلانفيل كروفون» أو« عالم طيور متخصّص- سقوط- طيور- نهر» أو «أسباب- موت مفاجئ- طيور- تحليق» وغيرها من الصيغ المعجميّة التي ألقمتها إلى خوارزميّات البحث متعشّمًا أن تساعدني على العثور على الإجابة. في السابق، كلّما كان مصطلحُ «محرّك البحث» يخطرُ على ذهني، إلاّ وتخيّلتهُ عنفةً(10) ضخمةً، تصدرُ ضوضاء تصمّ الآذان وترشحُ زيوتًا ودخانًا أسود داخل حجيرة محرّكاتِ سفينةٍ، وهو ما كان يتناقضُ، في واقع الأمر، مع صفحة البحثِ الفقيرة، حيثُ لا يعثرُ المرءُ سوى على أيقونةِ «غوغل»، بألوانها المتعدّدة، وصحراءَ شاسعة بيضاء تحيطها من كلّ جانبٍ.

«طيور، أمطار، موت، طيور، ميتة، طيور، أمطار»... كنتُ أحاولُ ترتيب تلك الكلمات في الاتجاهات كلّها، متسائلاً في الآن نفسهِ، لا عن سرّ هوسي بها فحسب، وإنّما أيضًا عن الكلمات التي ركنها ذهني جانبًا لكي يفسح لها المكان. كنتُ آملُ في الخروج من تلك التجميعاتِ بنتيجةٍ منطقيّة، لكنّي فشلتُ. نهضتُ من أمام جهاز الحاسوب وعدتُ إلى سريري، لكنّي لم ألبث أن شعرتُ بالحرّ، فنهضتُ مرّة أخرى وفتحتُ النافذة. تشاغلتُ قليلاً بمراقبة طيور الحمام الغافلة فوق شرفة البناية المقابلة، وكأنّي أنتظرُ منها أن تنجدني بالإجابات، معلومات، قبل أن أعود إلى جهاز الحاسوب. قمتُ بتحديث صفحة صحيفة «باريس نورماندي» بوتيرة محمومة، وكلّي أملٌ في أن يطالعني مقالٌ جديد عن حوادث الطيور، لكنّي لم أعثر على شيء، فباستثناء ذينك المقالين اللذين تدحرجا إلى أسفل الصفحة الرئيسية، وراء أخبار الحروب العاجلة والبيانات السياسية المهمّة، لم تنشر الصحيفة أيّ خبرٍ آخر. انتابني الغضبُ وشعرتُ برغبةٍ جامحة في الصراخِ أو الذهاب إلى السرير والاستغراق في نوم عميقٍ، لكنّي لم أيأس وواصلتُ البحث حتّى انتهى بي الأمرُ إلى العثور على رقم «أوليفييه فيلمان»، وهو عالمٌ متخصّص في الطيور، كان يعملُ في متحف باريس، وحدثَ أن تكرّر اسمهُ في عددٍ من المقالات. هاتفتهُ في الحال، مقدّما نفسي

كصحافي، لكنهُ قال لي إنّه اكتفى من الحوارات الصحافية، وأنّ الأمر لا يستحقّ كلّ ذلك الاهتمام، مضيفًا: «إنّها حوادث تافهة». لكنّي ألححت عليه وسألتهُ إن كان يجدُ في تزامن حوادث هطول الأمطار الثلاث، ما يثيرُ الريبة، فردّ قائلاً: «أجل، ربّما. الحقُّ أنّي لا أعرفُ. ما يثيرُ الاستغراب حقًا أنّ كل تلك الأحداث وقعت في أماكن متقاربة، على طول ضفاف نهر «السين». وإن كان ثمّةَ ما ينبغي البحثُ فيه، فسيكونُ عند ناحية النهر، ولكن كما تعرفُ، مثل هذا النوعِ من الحوادث....»، لكنّه لم يكمل جملتهُ وأقفل الخط في وجهي معتذرًا بأمرٍ عاجل.

مع حوالي السّاعة العاشرة مساءً، قرّرت مغادرة منزلي، وقد شعرتُ بالحاجة إلى رؤية شخصٍ آخر غير سرب الحمام القابع في الشرفة المقابلة أو ظلّي المتوتّر المنعكس على شاشة الحاسوب. التقيتُ «جيل رو فيرون» في «فندق كليرمون الكبير»، وهو فندقٌ ليس لهُ من الاسم نصيبٌ، إذ لم يكن كبيرًا، علاوة على أن غالبيّة حرفائه هم من كبار السنّ الذين يدمنون شراب «سوز»(9). حدّثتُ «جيل» عن الطيور وحاجتي الملحّة إلى معرفة ما يجري، معيدًا على مسامعه كلّ الأحداث منذ البداية، وأخبرتُه بما حدث في «بونسكور» و«بلان فيل» و«باردو فيل» والأمطارَ المتزامنة والببغاء المجنون، لكنّه اكتفى بالنظر إليّ وعلى شفتيه ابتسامةٌ بدت لي غير لائقة. قلتُ له: «لا شيء يحدثُ بالمصادفة. لديّ انطباعٌ بأنّ تلك الطيور ارتطمت بي، بقريتي وطفولتي أو ربّما بشيء آخر لا أعرف كنهه. لعلّها ارتطمت بنا، وبهوسنا المضني بحالات السّقوط. لم تنفكّ الصحف عن إرهاقنا بأخبار الأزمات، وذلك «الشعور الجمعيّ بالانهيار». لقد صارت أخبار الأزمات، على الغفلةِ منّا، جلدًا ثانيًا لنا. لقد بتنا نعيشُ مع الأزمات، ووسط الأزمات، ومع ذلك، لم أر أحدًا كلّف نفسه عناء النظر إلى الطيور وهي تسقطُ من السّماء». ضحك «جيل» على كلامي قبل أن يقول بنبرة متحدّية: «حسنًا، ها قد واتتك الفرصة. هيّا ارفع عينيك إلى زرازيرك. بوسعك الآن أن تتأمّلها عن قربٍ بدلاً من إضاعة وقتك على شبكة الإنترنت. افتح عينيك ولو لمرّة في حياتك. هل وقعت كلّ حوادث سقوط الطيور على طول نهر «السين»؟ حسنًا، هذا خيطٌ جيّد، مثلما قال لك ذلك عالم الطيور، وما عليك سوى الانطلاق منه والتحقق من الأمر بنفسك، ولعلّك بهذه الطريقة تفيدُ غيرك بما

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

ستتوضل إليه». حدجتهُ بنظرة متسائلة، لكنه أضاف قائلاً: «أجل، بإمكانك الذهاب إلى هناك واستجلاء الأمر. أنت تستطيعُ مثلاً أن تتعلّل بأنّ الجامعة منحتك الفرصة لكي تتحقّق من هذه الحوادث. أليس كذلك؟». عندئذٍ، أجبتهُ: «لا أملك رخصة سياقة يا «جيل»، ومناطق سقوط الطيور بعيدة عن محطّات الأرتال. لا تنس أنّ الطيور لم تسقط فوق الخطّ 4». سألني مجدّدًا: «حسنًا، ما الذي يمنعك من العودة إلى مسقط رأسك، أعني إلى منزل والدك، ومن ثمّة تستغلّ الفرصة لاستجلاء الأمر على ضفاف نهر السّين، سواءً على قدميك أو من خلال الاستعانة بالسيارات المارة؟». في تلك اللحظةِ، أشرقت الفكرة في رأسي: هل ثمّة أفضلُ من ركوبِ زورقٍ لمراقبة ما يحدثُ على ضفاف النّهر؟ لقد كان النهرُ هو النقطة المشتركة الوحيدة بين حوادث تساقط الطيور، كما قال عالم الطيور، وكلّ ما علينا فعلهُ هو الاستفادة من ذلك المعطى والعثور على مركبٍ يقبلُ أن يقلّنا، ولعلّنا نحظى كذلك بتوصيلة مجّانية على متن زوارق النهر. المهمّ هو أن نعثرَ على قاربٍ. حالما استقرّ رأيي على ذلك، اقترحتُ على «جيل» أن يرافقني، لكنهُ أجابني بصوتٍ فيه شيء من الشفقة، قائلاً ما معناهُ إنّ ما حدث للطيور «شأنٌ لا يعنيه». شعرتُ بدماء الحماسة تفورُ في عروقي وأجبتهُ: «إنّهُ شأنٌ لا يعني أحدا يا «جيل»، ولا يعنيني أنا أيضًا. ليس هذا مربطُ الفرس. ثمّة حقيقة تقولُ إنّ هنالك طيورًا تسقطُ الآن، على بعد أميالٍ قليلةٍ من هنا، وإن كان صحيحًا أنّ لا أحد يهتمُّ لسقوطها، فإنّ الأمرَ يظلُّ باعثًا على التساؤل، رغم كلّ شيء». ترك ما بيننا من صمتٍ يتبدّدُ ثمّ راح يسخرُ منّي، قائلاً إنّي نبيّ طموحٌ يصرخُ في وجه المطر، منتشيًا بكونهِ وحيدًا على الطريقِ، بينما يدعو الطيور لكي تخاطب الحشود.

لعلّ «جيل» كان محقًّا حين سخرَ منّي. كان هنالك الكثيرُ من الأعمال في انتظاره، مرافعة يجبُ أن يعدّها وملفات يتعيّنُ عليه إنهاؤها في بحر الأسبوع التالي. كنتُ قد بلغتُ السنّ التي جعلتني أدركُ أنّ مساراتِ حيواتِ معظم أصدقائي، بوظائفهم وعلاقاتهم العاطفيّة المستقرّة، أضحت أكثر تماسكًا، خطوطها واضحة وألوانها جميلة. لو نظرتُ إلى نفسي من تلك الزاوية، لاكتشفتُ أنّي ما أزالُ طفلاً مصابًا بعمى الألوان يلهو بخربشاتهِ. بعد انفصالي عن «أناستازيا»، صرتُ أقع في الحبّ كلّ

أسبوع، بل عدة مرّاتٍ كلّ يوم، وفي كلّ مكانٍ، في محظة الحافلات أو في المكتبة. عندما أكونُ بين أصدقائي، ينتابني شعورٌ بانعدامِ الوزن تمامًا وبأنّي أطفو مثل لعبةٍ فوق مياهِ حوضٍ عكّرتها سنواتُ حيرتي ودراساتي الطويلة. وإذ لا ينتابني الشك في أنّ معظم الأشخاص من حولي كانوا مثلي يُسلمونَ أنفسهم لتسالي الحياةِ الكبيرة، لكنني كنتُ على يقينٍ من أنّهم أتقنوا، في المقابل، لعبة الكهول.

طفقتُ أشرحُ لـ «جيل» نظريّتي بخصوص تسالي الحياة الكبيرة، لكنّه سخرَ منّي مجدّدًا وأعادني إلى ما أشعرُ به من قلقٍ بالغٍ. كنتُ أصارعُ ذلك القلق قبل فترة طويلةٍ من حوادث أمطار الطيور، فترة لها أسئلتها، ومخاوفها، كالانتفاءِ والانسحاق، وآمالها المتهافتة أيضًا في احتمالِ أن تشهد حياتي مغامرةً حقيقية يوما مّا.

طلبتُ كأس جعةٍ آخر، وقد اتضحت الصورة في ذهني: لا مناص أمامي من تحويلِ أمطار الطيور النافقةِ إلى قضيّة شخصيّة!

---

(13)بلدة فرنسية.

(12)بلدة فرنسية.

(11)الجواثم أو العصفوريات هي رتبة ضخمة من الطيور ينتمي إليها أكثر من نصف أنواع الطيور، وهي أحد أكثر رتب الفقاريات تنوعا إذ تضمّ أكثر من 5400 نوع أي ضعف عدد أكثر رتب الثدييات تنوعا القوارض تقريبا.

(10) العنفة أو التوربين هي جهاز ذو عضو دوّار، يديره سائل أو غاز متحرّك، مثل الماء، البخار، الغاز أوالهواء.

(9)مشروب كحولي قديم.

واصلتُ تدوين ملاحظاتي ومعاودة قراءة ما كنتُ قد كتبتهُ فوق دفتري، ريثما يأزفُ موعد إبحار سفينة «أميرة السين» بعد خمسة أيّام. أمضيتُ فترة الانتظار في التجوّل والبحث عن كتبٍ لاقتنائها وإضافتها إلى موجودات حقيبتي. كان لديّ الوقت وبضع مئات من اليوروات موجودة في حسابي البنكي، كانت الجامعة تصرفها لي، في إطار منحة دراسيّة ممتدّة على بضعة أشهر، لمساعدتي على إنهاء أطروحةٍ، لم أكن أفكّر قطّ في إنجازها. ولقد كان ذلك الوضعُ تحديدًا مبعثَ إزعاجٍ لي أكثر من كونهِ مصدرًا للرّاحة.

لقد واصلتُ أبحاثي عن الطيور بجدّيةٍ، وميل متوتّرٍ إلى بلوغ الكمال، على نحوٍ ما نجدهُ لدى الطلاّب المجتهدين، وقد وقر في قلبي أنّ تلك الزرازير، إن جاز لي القولُ، كانت تستهدفني أنا أثناء سقوطها على ضفاف ذلك النّهر الذي يربطني بطفولتي. ولئن كان إحساسي بالذنب هو أكبرُ همومي، فإنّي حدستُ أنّه القوّة الوحيدة القادرة على دفعي إلى مغادرة منطقة خمولي، مرة واحدة وإلى الأبد.

في غضون بضعة أيّام، نجحتُ في جمع كلّ ما وقع تحت يدي من مقالاتٍ تحدّثت عن حوادث أمطار الطيور، بما في ذلك ما وجدتهُ على شبكة الإنترنت (على محرّك البحث، كنتُ قد تصفّحتُ 172 صفحة قبل أن أغلق الحاسوب شاعرًا بخيبة أمل من كمّ المعطيات المجزّأة عديمة الفائدة). وهكذا ألفيتني مجبرًا على توسيع نطاق بحثي ورمي شباكي بعيدًا لعلّي أحظى بإجابات أخرى. والحقّ أني لا أعرفُ لماذا تركتُ ما اختزنتهُ ذاكرتي من تعليمٍ لاهوتيّ يقودُ خطاي في أوّل الأمر. كلّ ما أعرفهُ أنّ ذاكرتي استرجعت مشهد قاعة الأبرشية الباردة المحاذية لمنزل القسّ في «بونسكور»، وميّزت بوضوح لثغة الأب «سيمون» بينما كان يحدّثنا عن مغامرات «موسى» اليتيم وقصص أخرى ملحميّة من العهدين القديم والجديد. وعلى نحوٍ ما شعرتُ بأنّ عليّ أن أبدأ من الكتاب المقدّس لكي أتمكّن من مواصلة تحقيقي. حينئذٍ هرعتُ إلى نسختي من الكتاب المقدّس المعروفةِ بنسخة القدس وفتحتها. كان الكتابُ مغلّفًا بالبلاستيك، كما نفعلُ عادةً بالكتب المدرسية، وكان ما يزالُ يحملُ فوق ظهر غلافهِ لقبي المكتوب بحروفٍ استهلالية كبيرة، ثمّ اسمي بحروفٍ صغيرة متبوعًا بالصفّ الذي كنتُ أدرسُ بهِ، وهو الصفّ السّادس الفصل الرابع، وقد كتبت جميعها بقلم

«بيك» أحمر اللون وخطّ مدبّب. ولبرهةٍ شعرتُ بنوعٍ من الحنينِ إلى تلك الفترة من حياتي، فترة كنتُ خاضعًا فيها لسلطة أبويّ، وملزمًا بالذهاب إلى المدرسةِ ودراسةِ مسائل العقيدة.

كانت حوادث أمطار الحيواناتِ عديدة في الكتابِ المقدّس، وهي حوادث غالبًا ما تمّ توظيفها كوسائل عقابيّة. فسفر «الخروج» مثلاً يروي كيفَ قام الربّ «يَهْوَه» باستخدامها في أكثر من موضعٍ ضدّ فرعون الذي رفض السّماح لليهود بالمغادرة. كانت الضفادع التي «مَاتَتِ في الْبُيُوتِ وَالدُّورِ وَالْحُقُولِ»(15) حتّى أنتنت منها البلاد، والجرادُ الذي «أرسلَ لكي يأكل جميع الشجر النابت في الحقول»، هو منتهاهُ، وما بينهما سلّط الربُّ على مصرَ البرد والبعوض والذّبان. وبينما كنتُ أقرأ، عادت ذاكرتي إلى لدغاتِ الذبّان اللاذعة في «كورسيكا»، يوم مررتُ بالقربِ من قطيعِ ماعزٍ، ومن ثمّة تخيّلتني مغطّى بذلك الذّبّان ذي الألوان النحاسيّة الذي يعرفُ كيف يغافل الجميع لكي ينهمك في مصّ دماء المواشي والبشر.

ما أدراني أنّ سقوط أمطار الطيور ليس سببهُ سوى ذلك الذّبّان نفسهُ الذي أرسلهُ «يَهوه» إلى فرعون، أو على الأقلّ، نوعًا متحدّرًا من سلالته الحقيرة؟

ككلّ مرّة، كانَ «يهوه» يستبقُ عقابهُ بتحذير فرعون، كما يذكرُ الكتابُ المقدّس ذلك، إذ قال له على لسان موسى: «أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي. فَإِنَّهُ إِنْ كُنْتَ لاَ تُطْلِقُ شَعْبِي، هَا أَنَا أُرْسِلُ عَلَيْكَ وَعَلَى عَبِيدِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى بُيُوتِكَ الذُّبَّانَ، فَتَمْتَلِئُ بُيُوتُ الْمِصْرِيِّينَ ذُبَّانًا. وَأَيْضًا الأَرْضُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا»(14).

ولقد أوفى «يَهوه» بوعدهِ، فأمطر على أرضِ مصر الذّبّان، مثلما أمطرها بالجراد والضفادع.

ترى، هل كان يفترضُ ببلدة «بونسكور» عن تكفّر عن ذنبٍ ما هي الأخرى؟

بعد ذلك، حين توغّلتُ أكثرَ في قراءة سفر الخروج، عثرتُ على نوعٍ آخر من الأمطار، هي أمطارُ السّمان. وهذه المرة لم يكن الأمرُ عقابًا للمصريين، بل نجدةً للعبرانيين. فبعد شهرين من مغادرة أرض مصر، شعر اليهود بالجوع الشديد وهم في

برية «سين» الواقعة بين «إيليم» و«سيناء»، ومرة أخرى، أعلنوا شكّهم في وجود الربّ، وطفقوا يتذمّرون على موسى وهارون، بل وضجّت أصواتهم بالتذمّر على الله نفسه. فأخبرهم موسى على لسان هارون أنّ الربّ سمع تذمّرهم وسيطعمهم لحمًا. وبما أنّ الأمطار كانت تعدُّ وسيلة المشيئة الإلهية المفضّلة، لم يأت مساءُ ذلك اليوم إلاّ وقد انتشر الخبزُ على أديم الأرض على شكلِ طيورٍ ميّتة سقطت من السّماء. وفي الصّباح، عندما استيقظوا وجدوا كذلك أنّ سقيط النّدى قد تحوّل إلى ما يشبه الكعك المحلّى بالعسل، أي أنّهم تحصّلوا، في واقع الأمر، على وجبةٍ تكادُ تكونُ متكاملةً.

حالما أنهيتُ القراءة، شعرتُ بمشقّة بالغة في تلمّس طريقي وسط قصص الأمطار التوراتيّة تلك، سواءٌ أكانت عقابًا من السّماء أم هديّةً منها، وهو ما دفعني إلى التساؤل: كيف يمكنُ تأويلُ ذلك المنطق التبادليّ بين الأرض والسّماء؟ هل تعدُّ أمطار الطيور فوق «بونسكور» علامةً على أن الوقت قد حانَ بالنسبة إليّ لكي أفرّ من مملكة فرنسا وأعبر البحر الأحمر ومن ثمّة أنجو بجلدي مع أوّل «موسى» يعترضني؟

في واقع الأمر، كانت القناعةُ الوحيدة التي توصّلتُ إليها من خلال بحثي في الكتاب المقدّس هي التالية: إنّ حوادث تساقط الطيور في «بونسكور» ليست حدثًا طارئًا في التاريخ!

---

(15)سفر الخروج.

(14)سفر الخروج.

بعد مضيّ يومين على تلك الليلة التوراتية»، ألفيتني واقفًا عند نهاية رصيف ميناء «بيرسي»، أمام معبر سفينة «أميرة الشين». اضطرّ الرّكابُ إلى الالتصاقِ ببعضهم وهم يخطون فوق المعبر لكيلا يسقطوا في الماء. كانوا جدّ حذرين وهم يصعدونَ وكأنّ من كانَ ينتظرهم فوق جسر السّفينة هو «خارون»(23) الأسطوريّ الذي سيغافلهم ويقودهم إلى رحلة فنائهم الأخيرة، وليس موظّفة الاستقبال. لقد بدوا لي كأنّهم يتظاهرون بأنّهم مقبلون على رحلةٍ سحريّة، وهو ما أشاع بينهم مشاعرَ الابتهاج.

كان أفراد الطاقمِ يرتدونَ أزياء رسميّة، على نحوٍ ما نجدهُ على متن السّفن العابرة للمحيطات: سترات مزدوجة الصدر بأزرار ذهبيّة، تنانير وسراويل بحرية، شرائط مذهّبة مثبتة على الأكمام، كتفيّات، رابطات عنق سود، شارات تحمل اسم شركة «السيّن الأزرق». كانت نظراتهمُ تبعثُ رسائل طمأنة إلى الرّكّاب، وهو ما كان يتناقضُ مع مشاعر الرّهبة التي كانت قبّعاتهم تثيرها في النّفوس.

وإذ راح الرّكابُ يجرّون خلفهم حقائبهم الضخمة، انتظرتُ أن يهرعَ إليهم خدمِ الغرفِ في أيّة لحظةٍ ويحملوا عنهم صناديق قبّعاتهم وحقائبهم اليدويّة المصنوعةِ من الخوص، لكن شيئا من ذلك لم يحدث. وقفتُ في مكاني متردّدًا، وكأنّ الزمن عاد بي إلى الوراء، إلى العام 1923، متخيّلاً نفسي على متن رحلةٍ مغادرة إلى «سايغون»(22)، لكنّ المشهدَ الدائر أمامي أعادني سريعا إلى أرض الواقع. كان الأمرُ برمّتهِ أشبهَ برحلةٍ متقاعدين على متنِ حافلةٍ، مع اختلافٍ وحيدٍ، وهو أنّ الرحلة كانت نهريّة. وما عزّز ذلك الانطباع لديّ هو تشكيلاتُ ملابسهم، ذات الألوان المتدرّجة من البنيّ إلى البرتقالي، وكاميراتهم المتدليّة من أعناقهم، وخمولهم، وهو خمولٌ غالبًا ما يكونُ ملازما للمسافرين النهرّيين.

نفضتُ عنّي تردّدي والتحقتُ بمقصورتي لكي أتخفّف من حقيبتي. كان من المقرّر أن نلتقي جميعنا بعد ربع ساعةٍ لحضورِ حفلِ ترحيبيّ، لذا سارعتُ بإخراج بعض الأغراض من الحقيبة ووضعتها داخل الخزانةِ وكأنّي سأتخذ من تلك المقصورة مقامًا لي للأشهر القادمة. لقد سبق لي أن قمتُ بتلك الرّحلة بين «باريس» و«بونسكور»

عشرات المرّاتِ على متن القطار، لكن تلك المرة كانت هي الأولى التي أذهبُ فيها إلى مسقط رأسي على متنِ سفينةٍ، وهو ما قدّرتُ أنهُ سيعفيني، على نحوٍ ما، من مشقةِ السفر وطولهِ.

بعد انتقالي إلى «باريس»، واظبتُ على العودةِ بانتظامٍ إلى «بونسكور» لرؤية والدي، ثمّ تباعدت زياراتي شيئا فشيئا حتى انقطعت تمامًا. لم تكن والدتي تقطنُ بعيدًا، فبعد انفصالها عن أبي، انتقلت إلى السكنِ في الضاحيةِ. علاوةً على ذلك، كنتُ أواصلُ دراساتي في «باريس» نفسها، وذلك يعني أنّي فقدتُ اتصالي الروحيّ بـ «بونسكور» أو بيتِ أبي. والحقّ إنّ «بونسكور» لم تكن قريبةً أو ساحرة أو مضيافة، كما تحاولُ الكتيّبات السيّاحية إقناع السيّاحَ بذلك، لكي تظلّ عالقة بذهني وتدفعني إلى العودةِ إليها وإلى منزل والدي.

قبل أيّام قليلة، وبينما كنتُ منشغلاً بالتحضير لرحلتي، قرّرتُ الدخول إلى موقع المدينةِ على شبكة الإنترنت لمعرفة إن كان جدّ جديدٌ فيها، فعثرتُ على التالي: ««بونسكور» هي مجتمعٌ حضريّ يبلغُ تعدادُ سكّانهِ أقلّ من سبعة آلافِ نسمة، ويتمتّعُ بسمعةٍ جيّدة وذلك لما يتوفّرُ عليه من هدوءٍ وأنشطةٍ رياضيّة وثقافيّة». لعلّ قدرة المدينة المثاليّة على التوفيقِ بين الهدوء والأنشطة هو ما كان يجعلها تبدو في عينيّ كأنّها غير موجودة تمامًا. ورغم ذلك، كانت «بونسكور» موجودة بالفعل على الخارطة، ولم يكن يفصلها عن مدينةِ «روان» سوى بضع كيلومترات. كما وزادت تلك الأمطار المميتةِ، العجيبةِ والمثيرةِ في تأكيد وجودها أكثر. إنّ «بونسكور» هي مدينةُ «البونسكريين» الذين يذكرونني بمهنة «مساعد الحياة»، وهي مهنةٌ ظهرت إلى الوجود مع الألفيّة الجديدة، يمتهنها رجالٌ شجعان وطنوا أنفسهم على الاعتناء بالقواعدِ من المسنّين.

عندما اجتمعنا في المطعم الواقع في الطابق العلويّ للسفينة، أخذت «سوزان» الكلمة– عرفتُ اسمها من تلك النقيشة النحاسيّة المقلّدة التي كانت تثبّتها فوق سترتها عند جهة القلب، مثل كلّ أفراد الطاقم- وقدّمت لنا نفسها بصفتها «أمينة حسابات السّفينة»، والمسؤولة عن إعاشةِ السيّاحِ وإقامتهم، ثمّ أضافت قائلة: «أنا

قائدة الأوركسترا على متن هذه السفينة وسأكونُ همزة الوصل بينكم وبين أفراد الطاقم المجتدينَ لخدمتكم طوال الوقت». فكّرتُ ساخرًا أنّ رحلتنا ما هي إلاّ سنفونيّة ستتولّى سوزان قيادةَ معزوفاتها الأولى. بعد ذلك، طفقت تقدّمُ لنا بالترتيب أفراد الطاقم والنّدل وكبير الطباخين والمنشّطات، ثمّ شرحت لنا بالتفصيل محطّات توقفنا القادمة والخدمات المقترحة وطبيعة الأطباق المقدّمة. كنتُ أستمعُ إلى معزوفتها بذهنٍ يكادُ يكونُ شاردًا، لا سيّما حين أخذت تحدّثنا عن الأنشطة المقترحة على متن السّفينة: ممارسة الرّياضة في الصباح، زيارة المتاحف، الحانة، ثلاث وجبات في اليوم ومعها كؤوس الشامبانيا كمكمّلات...»...وتستمرُّ الحياة!»، علقّتُ في سرّي ساخرًا، لا سيّما أنّي كنتُ أصغر من أكبر مسافرٍ بأربعينَ عامًا على الأقلّ.

ألقيتُ نظرة دائريّة داخل المطعم قبل أن أقرّر الجلوس إلى طاولةٍ تقعُ في آخرهِ، كانَ يجلسُ إليها رجلانِ ذوا شاربينِ كثيفينِ، ترافقهما ثلاثُ سيّدات انتشرت التجاعيدُ في وجوههنّ على نحوٍ صريحٍ.

انتهت «سوزان» من وصلتها الموسيقية ومعها موجةُ تصفيق الرّكّابِ، وأزفّ موعدُ الإفطار الذي سيكونُ أوّل وجبةٍ ضمنَ متوالية طويلةٍ من الوجباتِ التي ستشكّلُ إيقاع حياتنا النهريّة.

وبينما انهمك النّدلُ يوزّعونَ علينا قطع المرطّباتِ الصغيرة، أبحرت «أميرةُ السيّن» من ميناء «بيرسي». لقد ذكّرني ذلك الارتباطُ بين ما هو محلّي وبين ما هو متناهٍ في الصغر، بمشروعٍ كانت «أناستازيا» قد حدّثتني عنه مؤكدة أنّ نجاحه تجاريًا مضمونٌ. قالت لي يومها: «سيتعيّنُ علينا تخليقُ دلافينَ مصغّرة، أقصدُ دلافينَ دقيقة الأحجام. إنّ الدلفين هو أكثر المخلوقاتِ المحبوبةِ عبر العالم، ولذا سنعمدُ إلى تعديل جيناته وراثيًا، ونقومُ بتخليقه على هيئة مصغّرة، تسمحُ بوضعه داخل حوض أسماكٍ داخلي، وهكذا نبيعها بالآلاف». مع مرأى قطع المرطبات الصغيرة، فكّرتُ ساخرًا أنّ الوقت قد يكونُ حان لمهاتفةِ عالم أحياء بحريّة وعرضِ الفكرةِ عليه. لكني سرعان أعرضتُ عن ذلك الخاطر مكتفيًا بتناول شريحة خبز الزبيب الصغيرة، بينما راحت عيناي، من خلف نافذة المطعم، تتابعانِ بحيادٍ برجي المكتبة الوطنية الفرنسيّة- وهما

برجانِ يشبهان كتابان زجاجيّانِ لطالما أمضيتُ داخلهما أيّامي الباردة- وهما يبتعدانِ حتّى اختفيا.

فجأة سألني صاحبُ الشارب الأوّل:

-هل تسافرُ وحدك؟

-أوه، أجل...أجل... لقد قدمتُ بمفردي.

حلّت لحظة من الصمتُ بيننا، سرعانَ ما أدركتُ خلالها مدى صعوبةِ تقّبل النّاس لفكرة أن يقومَ شخصٌ ما برحلةٍ نهريّة خارجَ «مشروع علاقةٍ عاطفيّة» وقبل بلوغهِ سنًا معيّنة.

بدا كالمعتذر وهو يقطعُ الصمت قائلاً:

-أوه...هذا جيّد.

وأضاف:

-أقدّم لك «فيرونيك» زوجتي. أنا «جان بيار»، وهذه المرّة الثانية التي نسافرُ فيها على متن «رحلات السين الأزرق». ما الذي شجّعك على القيام بهذه الرحلة؟

-أوه، قد يعود ذلك إلى رغبتي في استكشاف نهر «السّين» وهذه السّفينة. كما أنّ برنامج الرّحلة يبدو مثيرًا للاهتمام.

لم أكن أعرف ما الذي يتعيّنُ عليّ إضافتهُ بعد ذلك، غير أنّي شعرتُ بأنّي مضطرٌ إلى الاستمرار في تلك اللعبة. والحقّ أنّ النباهة خذلتني وأنا أسألهُ:

-ماذا تعمل؟

-حسنًا، أنا أشتغلُ مهندسًا في المؤسسة العسكريّة، أقصدُ أنّي كنتُ كذلك، قبل إحالتي على التقاعد.

قال لي ذلك ثمّ قدّم لي يدهُ وصافحني بحزمٍ. تبادلنا بعض المجاملات التافهة، على غرار «هل أصبّ لك المزيد من القهوة» أو «قطع الكرواسون هذهِ لذيذة

جذاء (تلك هي طريقةُ كبار السنّ في التعليق على ما يقدّمُ لهم كطعامٍ)، ثمّ أخبرتهُ بسبب وجودي على متنِ السّفينة، وجودٌ يقعُ في منطقةٍ تتقاطعُ فيها السّياحةُ العرضيّة بالبحثِ العشوائي، وهو لعمري تبريرٌ مزدوجٌ وغير ذي معنى كحال ذلك الصباح الباريسيّ.

وأمام دهشتي، أبدى «جان بيار» شيئا من الاهتمامِ بما قلت. ولم تكد تمضِ سوى دقائق قليلة حتّى كنتُ قد أخرجتُ دفتر طيوري النافقة وسردتُ على مسامعهِ ما جرى من أحداثٍ وقع توثيقها خلال الأيّام الأخيرة، مقلّبًا أمامهُ المقالات والصور، وطارحًا كلّ الفرضيّات الممكنة.

حالما أنهيتُ عرضي، خاطبني قائلاً:

-أنا أعرفُ الكثير عن الطيورِ، كما تعلم.

ولبرهةٍ قصيرة، لاذ بالصّمت لكي يعطي التأثير المطلوب لعبارتهِ. ثمّ استأنف حديثهُ قائلاً: «حتّى إنّني أعرفُ قصّة غريبة عن طيور الحمام». «هل هذا صحيح؟»، استجوبتهُ عيناي، فواصل حديثهُ: «إن الطيور، وكلّ ما يطيرُ ويسقطُ، تقعُ ضمن مجال اختصاصي».

لم أطق صبرًا فاندفعتُ أسألهُ عمّا كان يفعلهُ صلب المؤسسة العسكرية. ارتجفَ شاربهُ قليلاً لسؤالي. ولم يكن الأمرُ يحتاجُ سوى إلى هزّة من حاجبهِ لكي تبدأ دبّابةُ قصّتهِ في التحرّك. أخبرني أنّه تخصّصَ مبكّرًا في «الباليستيّات»(21) عقب تخرّجه من كليّة الهندسة في عام 1956. في ذلك الوقت، كان كلّ الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية يهيمنان على ذلك المجال، بينما كانت فرنسا تبذل جهودها للحاق بركبهما. وأضاف: «لقد كنّا نحاولُ خلق صناعة باليستية على الطريقة الفرنسيّة». استهواني ما احتوت عليه عبارتهُ الأخيرة من غرابةٍ، فأصختُ السّمع إليه وهو ينتقلُ بسرعةٍ إلى دقائق الأمور. أخبرني عن الصواريخ السوفياتية وشرح لي خصائصها، ثمّ طفق يعقدُ مقارنات بين الصواريخ الروسية والأمريكية. حدّثني أولاً عن الصواريخ الروسية كصاروخ أر-13، بحر- جو (وهو عبارة عن صاروخ يبلغ مداه 600 كلم، ودقته 1800 متر، يدفع بالوقود الفائق)، وصاروخ أر-9، جو-جو

(يدفع بالكيروسين والأوكسجين السائل، مع مدى يبلغ 11 ألف كلم، وقوة تفجيرية قد تصل إلى 2.3 مليون طن)، ثم راح يعدّد لي أنواع أخرى من الصواريخ، حتى تهت تمامًا، كصاروخي أس. أم. 68 تايتان وآل. جي. أم 30 أف- مينتمان الأمريكيين، والأم. 1 الفرنسي الذي أنفق حوالي عشر سنواتٍ في العمل عليه، وبرامج صاروخية أخرى، كـ «بلوتو»(20) و«هاديس»(19). في حديثه ذاك، لم يغفل عن ذكر إله إغريقي واحدٍ وقع استخدامُ اسمه، مضافًا إليهِ سلسلة طويلة من الأرقام والأحرف، في تكنولوجيات الصواريخ المتقدّمة، أو ينسى أنواع المحرّكات الضغاطية النفاثة، والصواريخ المضادة للدبابات والسّفن والطائرات والأقمار الاصطناعيّة وللصواريخ نفسها، بينما كنتُ، في غضون ذلك، أستزيدهُ بهمهماتٍ ودودةٍ. صحيحٌ أني وجدتُ مشقّة بالغة في فهم طرائق عملِ تلك الأجهزة، فباستثناء معارفي القليلة حول الرادار، تهتُ تمامًا وهو يحدثّني عن الصواريخ والمحرّكات والمسارات الجويّة، لكنّ ذلك لم يحل بيني وبين الاستمتاعِ بحديثهِ، حتى إنّي شعرتُ بانجذابٍ غريبٍ إلى ما خلّفتهُ تلك التفاصيل والأرقام المتراكمة من غموضٍ، وهو ما مكّنني لبرهةٍ من الهروب من حياتي العامرة بالعموميّات والقصص والتفاصيل المتماسكة. في معظم الأحيان، من المحبّذ أن نفسح المجال لكلّ ما هو غامض لكي يطغى على ما حولنا من تفاصيل الحياة. هكذا فكّرت. الحقّ أنّي كنتُ أحلمُ أن تتحوّلَ الحياةُ في يومٍ ما إلى غرض الكمالي يمكنُ نسيانهُ بسهولةٍ دون أن نشعر بالذنب، أو نحتاجَ إلى خطّةٍ كليّة أو هوسٍ بالدقّةِ، غرضٍ هو عبارةٌ عن عالمٍ أعشى تمامًا، ما إن يتخلّى عن نظارتيه، حتى يتركنا الواقعيّ ننعمُ أخيرًا بالرّاحةِ من وفرة تفاصيله العصيّةِ على إدراكنا. أعاد ذهني تلخيصَ ما قالهُ «جان بيار» لأخلص إلى أن الأمر يتعلّقُ بصناعةِ مقذوفاتٍ قادرة على إصابة أهدافها من مدى بعيدٍ وبدقّة عالية. كان «جان بيار» رجلاً ثرثارًا حتى إنّي عجبتُ من قدرته على إشاعةِ كلّ ذلك الدفء داخل كلّ تلك الشروحات الباردة. كان يعرضُ على مسامعي ملحمةً مكوّنةً من الصواريخِ الباليستية والقواعد الصاروخية السرية وقصص عن التجسّس الصناعيّ وبرامج تطوير لها أسماء سخيفة، بل وبسط أمامي تفاصيل حربٍ خياليّة وتقنياتها التي مهّدت للإنجازات التكنولوجية الحالية. في غضون ذلك، كان قد نسي تمامًا قصّة الحمام

التي أخبرني عنها في مفتتحِ حديثنا.

كانت السفينة قد غادرت في تلك اللحظةِ «ميناء باريس»، فصعد الرُّكابُ إلى جسرها لمتابعةِ موكبَ معالمها السيّاحية الهائلة، باستثنائنا نحنُ، إذ خيّرنا الجلوس بمفردنا إلى طاولة المطعم، غير معنيين بما كانت «باريس» تعرضُه من واجهات متآكلة على الأعين.

فجأة قلتُ له:

-أين قصّة الحمام في كلّ هذا؟

قلتُ ذلك لأنّي خفتُ أنّ أعلق داخل قصّة عن الحرب الباليستية الباردة، وأفوّتُ شيئا من المرحِ على سطح السّفينة. قدم نادلٌ وقام بإخلاء الطاولة من فناجين القهوة ومسح ما تناثر من فتاتٍ وأمّن المنطقة. كنّا وقتها قد غادرنا باريس ومررنا من أمام مدينة «إيسي- ليه- مولينو»(18). تذكّرتُ أنّ مفردة مولينو Moulineau تعني «الطاحونة الصغيرة»، وفكّرتُ ساخرًا في تضاؤل كلّ الأشياء من حولي ذاك الصّباح.

أخرجني «جان بيار» من أفكاري، وردّ على سؤالي قائلاً:

-حسنًا، سيأتيك خبرُ الحمام، لا تقلق! إنّ الصاروخ الذي يحلمُ به الجميع هو الصاروخُ الذكيّ الحيّ. أنت تفهم أنّ كلّ هذا، أعني كلّ هذه الصواريخ الباليستية، لم يكنْ من الممكن أن ترى النورَ لولا تقنيات التوجيه، مع ابتكار تقنية التوجيه عن بعد قبل أن تردفَ بتقنية التوجيه الذاتي. والمعلوم أنّ التوجيه الذاتيّ لم يكن ليوجد لولا اختراع الرادار. دعني أتجاوز عن التفاصيل الفنيّة وأقول لك إنّ الرادار هو باختصارٍ نظامٌ يستخدمُ الموجات الكهرومغناطيسية. هل تعرف كيف كنا نقومُ بتوجيه الصواريخ قبل ذلك؟ حسنًا، قبل اختراع الرادار، لم نكن نوجهها ببساطة، إذ كان الأمرُ يعتمدُ على الكيفيّة التي نطلقها بها، أعني بعد دراسة الزاوية والمدى وقوة الدفع، وما إلى ذلك. وههنا سآتي على ذكر الحمام وأجيبُ على ما يشغلُ بالك، فلا تقلق.

في عام 1942، قرّر مهندسٌ أمريكي- في واقع الأمر لم يكن مهندسًا بل كان

مختصًا في علم النفس، وإن شئتَ الدقّة أكثر لقلتَ إنّه كانَ مختصًا في علم نفس الحيوان- وهو رجلٌ مهمّ ومعروف فضلاً عن كونه أستاذًا في جامعة «هارفارد»، قلتَ ذاك المهندسَ أن يعالج مشكلة توجيه الصواريخ الرئيسية. في ذلك الوقت، كان العالمُ يخوضُ غمار الحرب الكونيّة الثانية، وشهدت الولايات المتحدة وقوع حادثة الاعتداء على ميناء «بيرل هاربور» قبل فترةٍ قصيرة، هذا فضلاً عن دخول القوى الدولية في سباق تسلّحٍ محموم. كان اسمُ ذلك هو «سكينر»(17) الذي عدّهُ معاصروه خليفة لـ «بافلوف»(16).

كان «سكينر» قد استوعب جيّدًا درس أستاذهِ، درسٌ يقولُ إنّه بإمكاننا «تكييف» استجاباتِ الحيوانات، كأن نعلّم كلبًا مثلاً طريقة المصافحة باستخدامِ إحدى قوائمه. ولقد أطلق ذلك اسم «الاشراط الاستثابي»، ويعني تعليم الحيوانات كيفيّة التفاعلِ مع إشارات ذات طبيعة معقّدة، بل والاستجابةَ إليها على نحوٍ استباقيّ. ولقد كانَ ما اقترحهُ على الجيش الأمريكي بسيطًا للغاية، فلكي يتمكّن من توجيه صواريخه بدقّة، فما عليه سوى استخدام طيور الحمام، بعد تكييف سلوكها وتعليمها طريقةَ تحديد النقاط المستهدفة على الخريطة، ومن ثمّة يقعُ حبسها داخل رؤوس الصواريخ لكي تتمكنّ من النقر على النقاط المستهدفة وتنجح بالتالي في المحافظة على مسار القذيفة. ولقد كانَ تبريرُ «سكينر» لتلك الخطّة بسيطًا، فوفقا له «يحتاجُ السّلاحُ الذكيّ إلى طيّارٍ ذكيّ»، والمعلوم أنّ طيور الحمام تعدُّ حيوانات ذكيّة، وهذا ما بات يجهله أغلبنا اليوم للأسف. لقد راح يدرّبها على كيفيّة التفاعل مع الأشكال المرئية، مستندًا على حقيقة تقول إنّ نشاط دماغ الحمامة هو أسرع بثلاث مرّات من نشاط دماغ الإنسان، إذا تعلّق الأمرُ بتلك النوعيّة من المهامّ. وكمكافأة لتلك الطيور، صنع باب مصيدة صغيرة فوق الخريطة، ينفتحُ أمامها تلقائيا، حالما تنقرُ على الصورة بدقّة، لتجد في انتظارها حبّات البذور. وكان الهدفُ من تلك العمليّة تعليمُ الطائر النقرَ لكي يعيد الصاروخ إلى مسارهِ إذا ما جنحَ عنهُ. في حقيقة الأمر، كانت خطة «سكينر» تقضي بوضع ثلاثة طيورٍ بدلاً من واحدٍ داخل الصاروخ نفسهِ لتقويمِ ما قد ينجرُّ عن عمليّة النقرِ من أخطاء، أي أنّهُ جمعَ إلى غريزة الحيوان التقنية العسكرية. وهكذا، لم يعد الطائرُ مكلّفا بإيصال الرّسائلِ من فوق الخنادق الحربيّة

فحسب بل أوكلت إليه أيضا مهمة إيصالِ القنابل والتحوّلُ إلى طيّارٍ انتحاريّ. ولقد أطلق «سكينر» على تلك الخطّة اسم «مشروع الحمامة» «.

كانَ الحماسُ واضحًا على «جان بيار» وهو يروي قصّتهُ بلسانٍ طلقٍ، بيد أنّ ذلك لم يمنعني من التساؤل بجدّية عن مدارك الرّجل العقلية. مشروع الحمامة؟ حقًا؟ وكأنّهُ تفطّن إلى ما أفكّر فيه، أكّد أنّهُ جادٌّ في ما قالهُ، وهو يضيف: لقد استثمر الجيشُ الأمريكي بالفعل في ذلك المشروع الذي بقي سرّا لعدّة سنواتٍ، ومنح «سكينر» مبلغ 25 ألف دولارٍ لتطويره، وهو مبلغٌ لم يكن هيّنا في ذلك الوقت. وبالفعل، قام «سكينر» بتدريب الحمام لعدّة أشهر، وعلّمهم لعب كرة الطاولة والتعرّف على نفسها في المرآة والنقر على أهدافٍ، متدرّجةٍ في تعقيدها، قبل أن يضعها داخل الصواريخِ ويختبر أجهزتهُ.

في ذلك الوقت، تقدّم شخصٌ آخر بمشروعٍ إلى الجيش الأمريكي يقضي باستخدامِ الخفافيشِ كقنابل حارقة يتمّ إسقاطها من الطائرات. ولئن بدا واضحًا أن الجيش لم يكنْ يؤمنُ حقًا بمثل تلك المشاريع المجنونة، إلا أنه لم يتعامل معها باستخفافٍ. هل كان من الممكنِ حقًا أن يجازف الجيش الأمريكي بإعطاء الحمام متفجّراتٍ حتّى ولو كانت مدرّبة جيّدًا؟ ومع اختراع الرادار في العام 1944، اقتنع المسؤولون بأنّ الأجهزة الإليكترونية هي وسائل علمية أكثر ضمانًا من ثلاث طيورٍ وقع تدريبها لكي تتعرّف على أهدافٍ فوق خريطة، وسارعوا بالتخلّي عن «مشروع الحمامة».

لاذ بالصمتِ برهةً ثمّ أضاف:

-لقد سقطت طيورك من السّماءِ هنا على ضفاف «السّين». ألا يعني ذلك لك شيئا؟ أعني أنّها تبدو طيورًا انتحاريّة وهذا ما أجده غير بعيدٍ عن أجواء تجربة الحمام التي كنتُ أحدّثك عنها....

صحيحٌ أنّي وجدتُ صعوبةً في تصديق وجود علاقةٍ ما بين أمطار الطيور النافقة و«مشروع الحمامة»، لكنّ الفرضيّة نفسها استرعت انتباهي، على نحوٍ ما. لقد بدا لي كلّ شيء جائزًا بالنظرِ إلى النقطة الميّتة التي بلغتها في تحقيقي. غالبًا ما يعترضك،

في مرحلة ما من مراحل أيّ تحقيق، شخص ما يقترح عليك فرضيات أخرى، كفرضيات القنّاص والذئب المنفرد والفعل الإجرامي العشوائي الذي يستحيلُ كشفه. وأنا كنتُ أحاولُ التقدّمَ بالفعل ناحية ذلك الفعل العشوائي الذي يستحيلُ كشفه. ومن ثمّة رحتُ أتساءلُ: ترى هل قام أحدهم بتسليح تلك الطيور ودفعها إلى السقوط؟ أليس من الجائز أن يكونَ وراء الأمر مهندسٌ شعر بالحنينِ إلى «مشروع الحمامة» فقام بمواصلة خطة «سكينر» وفجّر الزرازير في الجوّ؟

تركني «جان بيار» نهبًا لتساؤلاتي واستأذن للذهاب إلى الحمّامِ. عندئذٍ، أخرجتُ دفتري وانهمكتُ في تدوين تفاصيل «مشروع الحمامة» تحسّبًا لأيّ طارئ. أليس من الجائز أن تكونَ «بونسكور» ضحيّة حربٍ غير تقليديّة حوّلتها إلى ساحةِ قتالٍ؟

في واقع الأمر، كنتُ أفضّل الحروب التي لم تحدث قطّ، والأسلحة التي لم ترَ النور إلاّ في أذهانِ المهندسين غريبي الأطوار، وواضعي الإستراتيجيات الوضيعين وعلماء نفس الحيوان والجنرالات الفارين من المعارك.

بعد أن أنهيتُ تدوين أفكاري، رسمتُ فوق الدفتر صورة حمامة تعلو صاروخًا. فجأة، تذكرتُ بدقّة صور طيور حمام الطاووس التي رأيتها في متجر الطيور بمنطقة «بون نوف»، الواقع عند ميناء «ميجيسري» (وهي طيور لها جسدُ حمامة وذيلٌ مفرود كذيل الطاووس). يومها، ظللتُ أراقبها لفترةٍ طويلةٍ، وقد خلب لبّي ذلك الالتقاء البيولوجي بين نوعين حيوانيين، أحدهما شديد الاختيال والآخر شديد الوضاعة.

في تلك اللحظة، رحتُ أتخيّلُ حمامة طاووس تخوض حربًا جويّة. وبعينِ خيالي، رأيتها وهي تعدو مختالةً فوق طريق الموتِ، قبل أن تفرد جناحيها بشموخٍ وتطير في السّماء قبل أن توجّه منقارها نحو هدفها، وعيناها تلتمعان بنظرة خبيثة.

عدتُ إلى أرضِ الواقع، وحوّلتُ صورة الحمامة الطاووس، وقد تخيّلتها حمامة مقاتلة إلى جُملٍ، وفجأة، طفرت في ذهني عبارة «المنحرف النرجسيّ». كانت العبارة قد أصبحت دارجة على الألسن، بعد أن صارت المجلاّتُ تفردُ لها صفحاتها الأولى بانتظامٍ. لقد صوّرت الصحفُ المنحرفين النرجسيين كأعداء خفيين جدد وقوّة

غامضة تسيطر على حيواتنا اليومية، وبات من اليسير أن نقع على عناوين من قبيل: «كيف تكتشف منحرفا نرجسيا في محيطك المهني؟» أو «هل تشعرين بأن زوجك منحرف نرجسي؟» أو» شهادة: لقد عشت خمسة عشر عاما مع منحرف نرجسي»، إلخ.

حالما فرغت من تأملاتي، كتبت أسفل الرسم (هل فعلت ذلك على سبيل الحاشية؟) بالحبر الأحمر سؤالاً زاوج بين علمي الطيور والنفس:

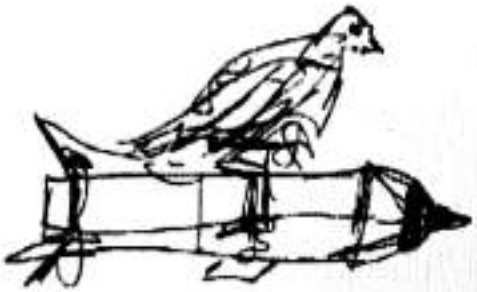

هل يمكن اعتبار الطيور كائنات منحرفة نرجسيا؟

---

(23)خارون هو إحدى شخصيات الميثولوجيا الإغريقية وهو ابن إيريبوس ونيكس (الليل) وكان من واجبه أن يعبر بقارب على نهر ستيكس (أو أخيرون) حيث تأتي أرواح الأموات الذين دفنوا لتوهم وفي المقابل يتلقى عملة موجودة في فم الجثث، ويقال إنه كان لا يحمل الأحياء إلا فيما ندر.

(22)مدينة فيتنامية كانت العاصمة السابقة لجمهورية فيتنام الجنوبية.

(21)البالستيات أو المقذافية أو علم القذائف فرع من علم الفيزياء يدرس حركة القذائف عبر الهواء.

(20)هو إله العالم السفلي في الميثولوجيا الرومانية.

(19)هو إله العالم السفلي في الميثولوجيا اليونانية.

(18)إيسي ليه مولينو هي بلدية في منطقة الضواحي الجنوبية الغربية من باريس، فرنسا، تقع على الضفة اليسرى لنهر السين.

(17)بورهوس فريدريك سكينر (وُلد في يوم 20 من مارس 1904م في ولاية بنسلفانيا - وتُوفِّي في يوم 18 من أغسطس عام 1990م) هو أخصائي علم النفس وسلوكي ومؤلف ومخترع وفيلسوف اجتماعي أمريكي.

(16)إيفان بتروفيتش بافلوف (14 سبتمبر 27 -1849 فبراير 1936) هو عالم وظائف أعضاء روسي، حصل على جائزة نوبل في الطب في عام 1904 من أجل أبحاثه المتعلقة بالجهاز الهضمي، ومن أشهر أعماله نظرية الاستجابة الشرطية التي تفسر بها نظريات التعلم.

عندما اقتربت السفينة من جزيرة «سانت دوني»، تركتُ التفكير في أمر «مشروع الحمامة» جانبًا، لأني لم أشأ تفويت مشهدَ مغادرتنا «باريس» أكثر من ذلك. صعدتُ إلى الهواء الطلق، فوق جسر السفينة المسمى «جسر الشمس»، وهي تسمية بدت لي كأنها تتحدى توقعات الأرصاد الجوية. وجدتُ مكانًا عند ميمنة السفينة، فجلستُ فوق واحد من تلك الكراسي الطويلة التي تعجّ بها أسطح السفن العابرة للمحيطاتِ عادةً، كانت قد نشرت فوقها خصّيصًا لتلك الرّحلةَ الإقليمية.

يعدّ نهر «السين» نهرًا كثير الالتواءات والتعرُّجاتِ وذلك عائدٌ إلى تدنّي درجةَ انحدارهِ. كنتُ قد اطلعتُ على ذلك في كتّيب السّفر الذي وزّعتهُ «سوزان» علينا قبل بضعِ ساعاتٍ وفيه قرأتُ إنّ كلمة «سين» هي في الأصل مشتقّة من المفردة اللاتينية «سيكوانا Sequana»، وهو اسمٌ كان يطلقُ على الإلهة الأمّ في الحضارة السلتيّة. ومفردة «سيكوانا» تعني حرفيًا «تدفّق»، وهو ما كان يفعلهُ النّهرُ في واقع الأمر. كما بيّن الكتابُ بوضوحٍ أنّ درجةَ انحدار النّهر تبلغُ، في المسافة الفاصلة بين باريس والبحر، حوالي ستّة وعشرين مترًا، وذلك يعني أنّنا سنبدو طوال تلك الرحلة النهريّة كأننا نسقطُ ببطء من فوق مبنى مكوّنٍ من عشر طوابقٍ.

ولكي أشغل ناظريّ، رحتُ أنتظرُ كلّ تعرُّجٍ ممنّيًا نفسي في آنٍ، بأنّ كلّ منظرٍ جديد يتكشّفُ لعينيّ قد يحملُ معه أجوبةً لأسئلتي. كانت جميع حواسي مشحوذةً بينما أنتظرُ أن يحمل لي أحد تلك التعرّجاتِ مفاجأة بصريّة. قبل سفري، كنتُ قد أحطتُ كلّ المناطق الصناعيّة لنهر السّين بدوائر فوق الخريطة. في واقع الأمرُ، خمّنت أنّ تلك الرحلة النهريّة يمكنُ أن تصلح أيضًا كسفرٍ في الزّمنِ وتحديدًا إلى حقبةٍ مجيدةٍ كان بعضُ ما تبقّى من آثارها الحيّة المتناثرة هنا وهناك على ضفّتي النهر، ما يزالُ شاهدًا عليها على نحوٍ ما.

في بعض الأحيان، كانَ مرأى المداخنِ يشعرني بالحنينِ إلى زمنٍ قديمٍ فأغفلُ عن متابعةِ التعرّجات، كمداخن مصانع «بيلان كور» القديمة ومحطة معالجة المياه في «آرشير»، ومصانع «بيجو» في «بواسي» ومحطة «بورش فيل» لتوليد الطاقة الحرارية ومصانع «فرنون» الكيميائية وبالتأكيد مداخن معامل الإسمنت المجهولة

والمصانع المتوارية عن الأنظار أو الأخرى التي مرّت عليها القرونُ وآلت إلى الفناء. كنتُ أعرفُ يقينًا أنّي يجبُ أن أبقى متنبّهًا، بينما تسرحُ عيناي في ذلك المشهد، لأنّي قدّرتُ أنّ قصّة الطيور قد تكونُ وضعتني على خيطٍ حقيقيّ يشيرُ إلى وجود فضيحة كيميائية حقيقية وراء سقوط أمطار الطيور النافقة.

تركتُ نفسي لتعرّجات النهرِ، مفتشًا عنها بنهمٍ، وقد نفد صبري من تتالي المناظر الطبيعيّة أمام عينيّ. لقد بدا الأمرُ كأنّي واقعٌ تحت تأثير متلازمة المناطق النائية، تلك اللعنة اللذيذة التي تسحبك إلى مناطق لم تطأها قدمُ إنسانٍ من قبل، سواء كانت تلّة موعودةً أو جزرًا ترى من بعيدٍ أو مفترقاتِ طرقٍ بكرٍ. كنتُ أمنّي نفسي بمشاهدةِ أرضٍ سحريّة كانت تقامُ فوقها مهرجانات غريبةٍ، أرضٍ تُرى خلفها، عند أوّل انعطافٍ، أطلالُ قصرٍ مهجورٍ غزتهُ النباتات المتسلّقة، ويمتدُّ عنقها حتّى يكونَ بوسعِ المرء أن يشاهدَ الوادي بأكملهِ بنظرةٍ واحدة وهو ينحدرُ في اتجاه البحر. ذات يومٍ، قال لي أحد الرّعاة الكورسيكيين (أجل يحدثُ أن يصادف المرء أحيانا راعيًا كورسيكا في جزيرة كورسيكا) إنّ المتعة، كل المتعة، تكمنُ في تغيير المسارات. عندما تذكرتُ ما قالهُ الرّاعي، قلتُ لي، الآن سيكونُ بإمكانك أن تستمتع بتغيير مساراتك، بينما تخوضُ غمار رحلتك النهريّة، إلى أن تصل البحر، وتأمل في العثور على شيءٍ جديدٍ أو ظهور ما يعزّز مخاوفك، سواء كان سدًّا أو مصنعًا أو قلعةً أو مستعمرةَ طيورٍ أو سربَ غدفانِ القيظ أو كتيبة غربانِ زرق أو سرب حمامِ مقاتلٍ أو قنطرةً جديدةً أو حبًّا قديمًا.

أخرجني صوتٌ أنثويّ أجشٌّ من تهويماتي، هو صوتُ مساعد (أو مساعدةِ) القبطان. كان ذلك الصوتُ يرتفعُ، عبر مكبّر صوتٍ جهيرٍ، كلّما أبطأت السّفينة سيرها، ليقدّمَ المعالمَ الرّائعة التي نالنا شرفُ المرور بها ويعلّقُ عليها. في واقع، كانت الرّسائل تبثُّ عبر أكثر من مكبّر صوتٍ، ما يجعلها تبدو كرسائل إلهيّة يتردّدُ صداها بين جنبات كهفٍ: «أيّها المسافرون الأعزّاء، بوسعكم أن تروا على يساركم مدينة «ميدان»، حيثُ يقعُ ذلك المنزل الشهير الذي عاش فيه الكاتبُ «إميل زولا»(31)، هنالك خلف تلك الأشجار. أمّا على الضفّة المقابلة، فيمكنكم رؤيةُ مركز «فيسيوبوليس» المقامِ فوق جزيرة «بلاتيس»، وهو مركزٌ ترفيهيّ قديم صار مهجورًا

الآن».

أحدث ذلك الصوتُ هزّة بسيطة في أعماقي، إذ كانَ هشًا ودافئًا في الآن نفسه، وكأنّهُ قطعة خشبٍ قديمةٍ ملمعة. لقد بدا لي أنه خلقَ لأمرٍ آخر تمامًا غير تقديم الإعلانات السياحيّة حتّى إنّي تخيّلتهُ صادحًا عمّا قليلٍ بأغنية لـ «نينا سيمون»(30)، كأغنية «إلهي، لا تدعهم يسيئون فهمي»، مثلاً.

ألقيت نظرة خاطفة على مقر إقامة «إيميل زولا» ذي الطابع البرجوازي، لكنّه لم يثر اهتمامي، وهو موقفي من الكاتب نفسه. كان ما رأيتهُ على الضفّة اليمنى هو ما استرعى انتباهي حقًا، أي ذلك «المركز الترفيهي» (يا للحزنِ الكامن في اسمه) الذي كان يكشفُ لمن يدّقق فيه النظر من السّفينةِ عن حوض سباحةٍ واسعٍ، مستطيل الشكل، تملؤهُ مياه موحلة بنيّة اللون. ثبّت عينيّ على المسبح المهجورِ ومقفزهِ المشطور إلى نصفين، قبل أن ترتفعا في اتجاهِ المزلقة العاليةِ التي تنحدرُ نحوهُ وراحتا تتأمّلانِ شكلها. عاينتُ أيضا وجود سلّمٍ حلزونيّ، متصل بالمزلقة، قضمهُ الصّدأ وحوّطتهُ شجيرات بريّة بدت كأنّها تهاجمهُ من كلّ جانبٍ. كان السلّم ينزلُ على نحوٍ أفعوانيّ في اتجاه الضفّة والمسبح معًا، بينما يتسلّلُ ضوء الصّباحِ الباهت من بين شقوق درجاتهِ البلاستيكية، ذات الألوان الورديّة والزرقاء، أمّا دعاماته فلقد بدت لي كأنّها تشارفُ على السقوط تحت ثقل أطفالٍ خياليين. خلفهُ، ثمّة مبنى نصف دائريّ، يضمّ صفًا من الأعمدة، لا بدّ أنّها كانت تفصلُ بين غرف تغيير الملابس والاستحمام ومشربًا، فضلاً عن مقصورة لتسمير البشرة كانت تعلو سطحه تمامًا. كان المبنى قد تحوّلَ إلى ما يشبهُ معبدًا يونانيا ذا جدرانٍ من الإسمنت المسلّح آيلة للسقوطِ، ولقد فكّرتُ ساخرًا أنّه ربّما يستحقّ أن يطلقَ عليه اسم معبد «أبولو»(29)، إله الترفيه وعطلات نهاية الأسبوع في الهواء الطلق، وربّ الأجسام السليمة ومخاريط الآيس كريم والأيّام القصيرة والعضلات المشدودة. لقد كان كلّ ما شاهدتهُ يقعُ على أرضِ «فيسيوبوليس»، وهي مدينة تكادُ أن تكونَ مغمورةً بالماء لولا أنّها تكافحُ بشكلٍ أخرق لكيلا تغرقَ تمامًا، ما كانَ يمنح المرء فرصةً تخيّل ما كانت عليه الحياةُ فيها قبل أن تهجرَ. لا بدّ أنّها شهدت تنظيم حفلات كبرى لا ترى فيها سوى

ملابس السباحة، حيث احتفلْ بالشمس، وقُلّدت الأساطير، واصطبغت ثياب راقصاتها باللون البنيّ، وصدحت حناجرُ الأطفالِ المتعطّشين لشراب الليمونِ بأغاني الحبّ المنتصرِ ورياح الحياةِ المواتية. إنّ من يتأمّل المزلقة الأفعوانية التي تنحدرُ نحو المسبح حتّى تختفي فيه، سيكون بإمكانه أن يرى الأطفال بعينِ خيالِه، يصعدونَ درجات السلمِ، كلّ أربعةِ معًا، في جولاتٍ لا تنتهي ويسمع أصداء صرخاتهم تتردّدُ كلّما انزلقوا في اتجاه الماء. والحقّ أن تخيّل ذلك هو أفضلُ ما يمكنُ أن يفعلهُ المرءُ على سطحِ السّفينة. كلّ ما عليه فعلهُ هو إغماضُ عينيهِ والاستلقاء فوق ذلك الكرسي الطويلِ تاركًا صخب ذكرياتِ أيّامِ الصيفِ البعيدةِ تهدهدهُ.

استأنفت السّفينةُ إيقاع إبحارها العاديّ، إذ لم يكن من المنطقيّ أن نتوقّفَ أمام كلّ أطلالٍ تعترضنا، حتّى وإن تعارض ذلك مع ولع الركابِ بالخرائب. في غضونِ ذلك، تعلّق بصري بضفّتي النهرِ وروافدهِ وأجماته وما يسمّى بـ «موانئه»، موانئ تبدو في واقع الأمر أقربَ إلى تجمّع قواربٍ، قد تنقصُ كثافته أو تزيد. كانت المراكبُ راسيةً هنالك وكأنّها موجودة منذ الأزل، بلا أملٍ في الإبحار مرّة أخرى والتغلّب على تيّارات الأنهار الأخرى أو شقّ عبابِ المحيطاتِ الحقيقية. وذلك ما كان ينطبقُ إلى حدّ مّا على سفينتنا «أمير السّين» التي كانت تفتقرُ إلى المرونة. كان حجمها يجعلها تبدو مثل فيلٍ بحرٍ متوتّرٍ، يزحفُ فوق سطح الماء. فكّرتُ ساخرًا أنها لو أرست في واحدٍ من تلك الموانئ لما تمكنت قطّ من الإبحار مجدّدًا. من يدري؟ ربّما لو حدث ذلك، لاقتنع ركابها وأفراد طاقمها حينها بفكرة التحوّل إلى طائفة مسافرين، يخلدُ أفرادها إلى النوم، متخذين من إحدى محطات النهرِ، مكانًا ينقطعون فيه عن العالم إلى الأبد.

كانت النباتاتُ البريّة تستوطنُ ضفّتي النهرِ. حاولتُ عبثاً العثور على منافذ بين أغصان أشجار الصفصاف، أو رؤية الضوء وسط الشجيرات المنخفضة، قبل أن أتوقّف عن ذلك وأمضي إلى أمرٍ آخر، وهو أن أتخيّلني داخل قاربٍ يمخرُ عباب نهر «المسيسيبي»(28) لكي يوصلني إلى خليج «بايو». في خيالي، كان يكفي أن أقفز من السفينة النهرية الكبيرة وأرمي بنفسي نحو طوفِ المراهقِ «هكلبيري فين»(27)

وصديقه «جيم»، حيث سيكون بوسعي أن أضحك بصوتٍ عالٍ على نكاتِ «هوك»، وأصرخ فرحًا أو هلعًا عندما نقع في فخّ تقلّباتِ مياهِ النهر، قبل أن نعثر على ملاذٍ آمنٍ عند أطراف القرى التي تعترضنا. في تلك اللحظة، استرجعت ذاكرتي كتابًا مصوّرًا كبيرًا ذا غلاف بنّي، كنتُ قد اكتشفت فيه مغامرات «هاكلبيري فين» للمرة الأولى، بل وتذكّرتُ بوضوحٍ صورةَ العبد «جيم» وهو يختبئ في قاعِ قاربٍ تظلّلهُ شجرة صفصاف بابلي، بينما تغمرهُ قطرات العرق.

كان من عادة والدي أن يقرأ لي، كلّ ليلةٍ، من ذلك الكتاب بينما يدخّنُ سيجارهُ الذي غزت رائحتهُ كلّ شيءٍ بالتدريج: لياليّ وحياتي وملابس الطفل الذي كنتهُ. وبعدما فرغَ من روايات «مارك توين»، طفق يقرأ لي روايات لكتّابٍ آخرين كـ «كوينتين دورارد»، رامي السهام الأسكتلندي، للكاتب «والتر سكوت»(26)، أو «جزيرة الكنز» لـ «ستينفسن»(25)، وهي الرواية الوحيدة تقريبا التي كان لمغامراتها أعمقُ تأثيرٍ على طفولتي.

في تلك اللحظة، صعدت امرأة مسنّة، لها شعرٌ أبنوسيّ قصير، إلى سطح السّفينة لكي تدخّن سيجارة أمريكية رفيعة. فكّرتُ ساخرًا أنّ المغامرة في حياتي اتخذت لها من رائحة التبغ الباردة رفيقا أبديًا، لأنّي شممتُ لحظتها مزيجا من روائح الدخانِ المنبعثة من سيجارة السيّدة، وقد كانت من ماركة فوغ، وغليون «لونغ جون سيلفر» وسيجار أبي، حتّى إنّي تخيّلتُ نفسي الصبيّ «جيم هاوكينز»(24) وهو يبحثُ عن صورةِ أبٍ منافقٍ في ذلك القرصان ذي الساق الخشبيّة والببغاء الذي يعلو كتفهِ، بينما يضعُ قدمهُ في السفينة التي ستحملهُ إلى مغامرة حياته.

---

(31)إميل فرانسوا زولا (2 أبريل 29 - 1840 سبتمبر 1902) هو كاتب وروائي فرنسي مؤثر يمثل أهم نموذج للمدرسة الطبيعانية في الأدب.

(30)يونيس كاثلين وايمون (21 فبراير 21-1933 أبريل 2003)، والمعروفة باسم نينا سيمون، مغنية، وكاتبة أغاني، وموسيقية، وموزعة موسيقى، وناشطة في مجال الحقوق المدنية الأمريكية.

(29)ابولو او أبلن او ابوللو (Apollo) هو إله الشمس والموسيقا والرماية والشعر والرسم والشفاء والحراثة، بحسب الميثولوجيا الإغريقية.

(28)نهر ميسيسيبي هو أطول نهر في الولايات المتحدة الأمريكية ويقع في الشمال الشرقي لأمريكا الشمالية.

(27)مغامرات هكلبيري فين (وتعرف أيضاً بهكلبيري فين أو هاك فين) : هي رواية من تأليف مارك توين، نشرت في شهر كانون أول من العام 1884. وتعد أحد أعظم الروايات الأمريكية، وأول الأعمال الروائية التي كتبت باللغة العامية .

(26)السير والتر سكوت (15 أغسطس 21 - 1771 سبتمبر 1832) رواني وكاتب مسرحي وشاعر أسكتلندي.

(25)روبرت لويس بلفور ستيفنسون (13 نوفمبر 3 - 1850 ديسمبر 1894) رواني وشاعر وكاتب مقالات وكاتب أسكتلندي وتخصص في أدب الرحلات.

(24)احد أبطال رواية "جزيرة الكنز".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اتكأتُ على حاجز السفينة منحنيًا بجذعي إلى الأمام كأنيّ أروم الإمساك بشيء ما أفلت لحظتها من يدي. تطلّعتُ إلى النهرِ مستغربًا من ضعف تيارهِ وتساءلتُ في سرّي: ماذا لو لم يكن النهرُ يتدفقُ حقًا؟ استغرقني التأمّلُ في مياه النهر البنيّة وصورة أبي المضللة ما حدا بي إلى التساؤل إن كان لرحلتي النهريّة سببٌ آخر غير الطيور، سببٌ مباشرٌ هو أبي نفسهُ. في تلك اللحظة، استرجعت ذاكرتي ما حلمتُ بهِ قبل بضع ليالٍ من سقوط أولى أمطار الطيور النافقة. كان واحدًا من تلك الأحلامِ التي تشعرُ فيها بأنّ أحدهم يرشدك إلى طريقٍ لا وجود لهُ على الخرائط. بدا الأمرُ كأنيّ أحيا داخل شريط وثائقيّ عن الحيوانات، ورغم ما أحاط بي من صورٍ مضبّبة، إلا أني أذكرُ حين استيقظتُ صباحًا ورحتُ أسترجعُ تفاصيله بدقّة تبعثُ على القلق. لقد رأيتني واقفًا حذو نهرٍ وداخل نهرٍ- في حلمي، كنتُ أراقبُ سطح الماءِ وأسبحُ فوقه في الآن نفسه- وقد اتخذت ملامحي شكل سمكة سلمون تصعدُ النهر مكافحةً التيار. فجأة ظهر أبي. هل كانت ملامحهُ آدميّة أم ملامح سمكة سلمون؟ لا أدري. كلّ ما أتذكرهُ هو النهرُ وسمكة السلمون وفعل «صعدَ» وما شعرتُ به من شفقةٍ على الحيوانِ الذي كنتهُ بينما أراقبني من الضفّة.

عندما استيقظتُ، رحتُ أفكّر في دورة حياة السلمون، ورحلته الثابتة، وما فيها من حياةٍ وإنجابٍ وصخورٍ كثيرةٍ وموت. قبل أن يبدأ السلمون رحلةَ عودتهِ الدقيقةِ إلى المكانِ الذي ولدَ فيه، يتحوّلُ لون جلدهِ من الرماديّ إلى الأحمر، ولون رأسه إلى الأخضر. وعندما توشك حياتهُ على النهاية، يتحوّلُ لونُ جلدهِ إلى ما يشبه الإشارة الضوئية، إشارة هي عبارة عن درعٍ قتاليّ مشكّلٍ من الحراب والسنانير، وفكٍ ضخمٍ، مع حدبةٍ جديدة لا تظهرُ إلاّ عند الذكور. ومردّ ذلك، هو استعداد ذكور السلمون إلى القتالِ من أجل الإناث، قبل أن يلقوا حتفهم حالما ينتهي التزاوج. إنّ مهمّة كهذه تستلزمُ السّفر لأكثر من ألف كيلومترٍ وتتطلبُ قوّةً لا يمكنُ تخيّلها، هذا لأنّ حياة سمك السلمون هي عبارة عن رحلةِ ذهابٍ وعودةٍ تعترضها الكثيرُ من الشلالات صعودًا وهبوطًا، مع ما يعانيه من خسارة قشورهِ، وتعرّضهِ الدائمِ لخطر الحيوانات المفترسة. وإذ يهلكُ السّلمونُ أحيانًا بسبب الكلاب والدببة وحيوان الوشق والصيّادين، فإنّهُ غالبًا ما يموتُ بسبب الإرهاقِ. لقد أخبرني القاموس أنّ

اسم السلمون مشتقٌ من الكلمة اللاتينية salmonem، وهي مفردة مشتقة بدورها من الفعل salire ويعني «قفز». وهذا يعني أنّ السلمونَ سمكٌ قافزٌ، أو هو «القافزُ» ببساطةٍ. عندما استيقظتُ من حلمي الغريب، شعرتُ برغبةٍ جامحة في القفز والصراخ عاليًا: «كلّنا أسماك سلمون!» وربّما بالغتُ بعض الشيء وأضفتُ: «أنا أيضا مثلهم، أصعدُ وأقفزُ وأشقُّ طريقي ضدّ التيار والضواري».

هل كان ذلك الحلم، في لغتهِ التي تجمعُ بين البساطة والغموض، يعيّنُ لي الطريق التي يجب أن أسلكها؟ هل كان يدعوني إلى ركوب النّهر، واكتشاف مسقط رأسي ورؤية أبي مجدّدا؟

كانَ أبي قد قرّر البقاء في «بونسكور»، فرحتُ أتسقّطُ أخباره من رسائلهِ العرضيّة، وكلّها رسائل تدورُ حول شرفه المهدور والاستقامة والهويّة الوطنية. بجملها الكثيرة بالغة الطول، أو مفرطة القصر، كانت تبدو لي مناشير سياسية، لا رسائل من أبٍ لابنه. لقد حاولتُ في أكثر من مرّة أن أردّ على رسائلهِ لكنّي كنتُ أتوقّفُ في منتصف الطريق وقد تملّكني التعب. عندما كنتُ طفلاً، أنفقتُ جهدي محاولاً أن أمنع النقاشات العائلية من الانزلاق إلى معارك حامية. كان أبي يرى أنّ على المرء دوما أن ينتصرَ إلى موقفٍ ما في مواجهةِ واقعٍ سياسيّ لطالما رآهُ مخيّبا للآمالِ وغير كاملٍ، واقعٍ يفرطُ في ميلهِ نحو اليسار والحداثة والابتذال والغباء. من وجهة نظر أبي، ليس ثمّة منطقة وسط، فإمّا أن نحارب العالم أو نفرّ منه. وبمرور السنوات، انتهى به الأمر إلى العثور على طريقةٍ مكنته من اعتزال تلك القلّة الباقية من حوله: أصدقاء وإخوة ونساء وأبناء. أنا أيضا أرهقتني المقاومة ففررتُ من ساحة المعركة وانتقلتُ إلى «باريس»، ولم أعد أستجيبُ إلى رسائله إلاّ على فتراتٍ متقطّعة.

ولد أبي، بعد الحرب مباشرة، لعائلة تنتمي إلى البرجوازية النورمانديّة، وعاش في كنفها محاصرًا بين حقبتين، بين إغراءات المعاصرة وذلك الحنين الأخرق للقرن التاسع عشر، بتقاليدهِ الجامدة وثوراته الفاشلة. وإذ ولد من زواجٍ مُرتّبٍ، ألفى نفسهُ مجبرًا على أن يكبرَ داخل عالمٍ متحجّرٍ، تتلخّص إحداثياته الكبرى في أعشية الصيّد، وتذمّر أطباء العائلة العسكريون من عدم إلحاق أبنائهم بكليّة «بيريتاني» والقيم

الخانقة والقواعد المهينة. في تلك الفترة، كان العالمُ يتفتّحُ والآفاق تتسع (يجب ألا ننسى أنّ الأمر يتعلّقُ بفترة الستينيات وما أدراك ما فترة الستينيات)، لكنّهُ لم يُمنح حقّ الكلام على طاولة أبيه بل وأجبر على دراسة القانون فوق ذلك. لقد كان والدهُ طاغيةً ومحزونًا، فأورثهُ الصّفتانِ معًا. والحقّ إنّي أكادُ لا أعرفُ أيّ شيءٍ بخصوص فترة شبابهِ، لأنّه لم يكن يتحدّث عنها قطّ. لعلّها كانت أسعد فترة في حياتهِ، ربّما أكثر مما أستطيعُ تخيّله، ولهذا لم يكن يتحدّث عنها. الحقّ أنّي لا أدري. في واقع الأمر، كان هنالك أمرٌ وحيد ما فتئ يتحدّث عنهُ وهو مشاركتهُ «التروتسكيين» نضالاتهم في «باريس»، وكيف تحوّلت تلك النضالاتُ إلى أكبر اخفاقاتهِ التي بنى عليها فلسفته في الحياة. كان يسرفُ في استخدام العبارات المنمّقة لا لشيء ولكن لكي يلوم نفسهُ على تلك السّنواتِ وكأنّهُ سجنَ نفسهُ فيها، رغم أنّها شكّلت الحاضنة التي درّبتهُ وعلّمتهُ كيف يكتب ويناضل ضدّ الكلّ ويناقش باستمرار إلى أن يستنفذ العدوّ الطبقي كلّ حججه. في تلك الفترة أيضا تعرّف على والدتي وإذ أتخيّلُ أنّه عاش شيئًا من الفرحِ أو على الأقلّ شيئا ممّا تتداعى لهُ ابتساماتُ المراهقين المتحمّسين، إلا أنّه لم يحتفظ من تلك الفترة بأيّ شيء ولم ينقل إلينا سوى تفجّعهِ المحبطِ، وهو تفجّع مردّهُ أخطاء جيلهِ المرتكبة ما حوّلهم إلى مثار تندّرٍ، سواء كأفرادٍ أو كمجموعةٍ. لم يكن يرى في أحداث ماي عام 1968 حركةً مجيدة، تغنّى الناس بمآثرها، بل سرديّة بولغَ في النفخِ فيها، لازمت كارثة التأسيس التي أدّت، من وجهة نظرهِ، إلى سلسلةٍ من الأخطاء التي طبعت حياتهُ كما طبعت فرنسا. وإذ كان يفترضُ بتلك الفترة أن تشكّلَ بالنسبة إليه أهمية بالغة، باعتبارها مهّدت إلى تمرّده على عائلته وأشياء أخرى كثيرة، إلاّ أنه كان يفضّلُ دومًا أن يقدّمَ روايته الخاصة القائمة على سرد فجائعيّ لا مكان للكبرياء أو الفرح فيه.

وكحال كلّ أولئك المنافقين المرهقين، لم يجرؤ والدي قطّ على الثورة على نفسهِ أو على حزنه الذي أودى بهِ. لم يحدّثنا بوضوحٍ سوى عن نتفٍ قليلةٍ من حياتهِ، وهو ما دفع بي حينها إلى طرح جملة من الفرضيّات: هل أدّت طموحاته السياسيّة إلى عرقلة فرصه المهنية؟ أعني هل تسبّبت «فترة تجنيده»، مثلما كان يطلقُ على تلك السنوات، في تشويش علاقتهِ بالعالم؟ لقد ولد لعائلة برجوازيّة، وتخيّلَ أنّهُ

سيصبح «لينين» جديد، قبل أن يستيقظ من أوهامه ويجد نفسهُ موظفًا حكوميًا صغيرًا مثقفًا، وربّ عائلة عجزَ على أن يبادلها حبًا بحبّ. بالنهاية، أقنعتُ نفسي بهذه الحقيقة الوحيدة: عندما يعجزُ المرء عن مواصلة حلمهِ في لعب دور البطولة حتى النهاية، ويضع كلّ ثقتهِ في الخطب الرنّانة، سيكونُ من الصعب عليه بعدها أن يلملم شتات نفسهِ.

كان أبي يقرأ عليّ كثيرًا وعلّمني أن أقرأ كثيرًا. روى لي الكثير من القصص ورنّاني على مزيجٍ من الفضول إلى العالم الخارجي والكراهية لكلّ ما هو دنس فيه. وربّما أورثني كذلك قلقهُ، قلقًا جاهدتُ في مكافحتهِ لكيلا يتحوّلَ إلى شعورٍ بالمرارةِ. في «باريس»، كنتُ أشعرُ بأنّي بعيدٍ عنهُ وأني محميٌ على نحوٍ مّا.

حسنًا، كيف أفسّر قصّة أسماك السلمون؟ هل كان ذلك الحلم النهزيّ يحرّضني على العودة إلى بيت والدي المظلم؟ إنّ معاندة شلالات الذهان العائلي لكي أصعد إلى والدي ليس بالأمرُ الذي يهفو إليه قلبي. كنتُ قد استيقظتُ للتوّ، وأعرفُ أنّي لستُ بالمجازفِ فضلاً عن كوني سبّاحًا سيئًا، وذلك يعني احتماليّةَ غرقي إن أنا عدتُ إليه.

حتى تلك اللحظة، لم أرَ سوى أعدادٍ قليلةٍ من الطيورِ كانت تحوّمُ فوق النهرِ أوفي الأنحاء. أحيانًا، كنتُ أميّزُ من بينها أعدادًا قليلة من طيور النورسِ أو دجاج الماء الذي يختارُ أماكنهُ قرب ضفّتي النهر. في الوقتِ نفسه، كنتُ أعي أنّي جاهلٌ بعادات أنواع الطيور المختلفة ومواسم تزاوجها ومناطق تعشيشها. وفي الحال، دخلتُ في مواجهةٍ مع ما أجهله، ففضلاً عن ضعف حصيلتي من المعارف بخصوص الطيور، كنتُ أعي جيّدًا احتماليّة أن يغالطني حدسي. كنتُ مثل قارئٍ غير قادرٍ سوى على فك رموز عدد ضئيلٍ من الحروفِ، وعلى نحو أخرق فوق ذلك، وهو ما يضطرّهُ إلى ابتكار التفسيرات وتخمين الإجابات، دونَ إدراكٍ حقيقيّ للفروقِ بين ما هو عجيب وما هو غرائبي. ومع ذلك، كان هنالك أملٌ يدغدغني وهو أن تحوّلني أبخرةُ نهر «السين» المتصاعدة إلى وسيط روحيّ كـ «بيثيا»(32)، أو إلى نبيّ جديرٍ بتأويلِ بشائر السّماء وتمييزِ نذرها.

نفضتُ عنّي أفكاري، وتشاغلتُ بمراقبة نورس أسود الرأس كان قد حطّ فوق حاجز السّفينة. بدا لي أن الطائر ينظرُ إليّ بتركيز بينما يحرّك رأسهُ الملطّخ بالسّواد باضطرابٍ وكأنّه يقولُ لي: نعم، نعم، نعم، نعم! كان يعاودُ تحريك رأسهِ من اليمينِ إلى اليسار، ويهرش صدرهُ باستخدام منقاره، وهو ما رأيتُ فيه علامةَ تشجيعٍ لي على مواصلة بحثي، حتى إنّي تخيّلتهُ يقولُ لي: «نعم، نعم، نعم، نعم، عليك أن تمضي قدمًا!»

فجأة، فتحت السّماءُ مزاريبها – لم تكن طيورًا نافقة ما أنزلتهُ في تلك المرّة وإنّما البردُ- وهو ما رأيته أمرًا طبيعيًا، إذ كنّا في شهر نوفمبر حينها. عندئذٍ، غادرتُ جسر السّفينة.

في غضون ذلك، عنّ لي أن أغتنم فرصة تغيّر الطقس وأستكشف سفينة «سفينة السّين» البالغ طولها 110 أمتار، لكنّ جولتي على متنها سرعانَ ما انتهت. ثمّة 43 مقصورة، مرقّمة من 100 إلى 199، عند سطح السّفينة السفليّ (ويسمّى السطح الرئيسي)، و24 مقصورة إضافية مرقّمة من 300 إلى 399، في الوسط، عند السطح العلويّ (ويسمّى السطح العلويّ بالفعل)، ولكم شعرتُ بالسّعادة حين

اكتشفتُ أنّ المقصورة رقم 313، أي مقصورتي، تتوسّط السفينة، وهو ما كان يسهّل عمليّة الوصول إليها من الجهتين. ثمّة كذلك مساحات مشتركة، عند طرفي السفينة، مخصّصة لتجمّعات المسافرين العابرين. في مؤخرة السفينة، ثمّة المطعم (بدا لي تصميمه فاقدًا للذوق ومخيّبا للآمال) والمطبخ، وإلى الأمام قليلاً، ثمّة متجر بدا لي عديم الفائدة فضلاً عن كونه مغلقًا (كان يبيعُ المناشف والساعات والأقلام والبطاقات البريدية والكتيّبات السياحية عن مدينة باريس). وأخيرًا، عند قوس السفينة، ثمّة حانة كتب فوقها «بيانوراما بار» (لا يوجدُ تلاعبٌ بالألفاظ)، إذ كانت تضمّ بالفعل بيانو نصف ذيلٍ وتمنحُ الجالسَ رؤية بانوراميّة للنّهر.

كان كلّ ما في الحانة يذكّرُ المرء بأناقة تصاميم سنوات الثمانينيات: مقاعد ذات جلود «بيج»-بدت لي أقرب إلى الجلود المقلّدة- وأباجورات على هيئة شمعدانات مذهّبة وطلاء جدران يذكّرك بغرف فنادق القرى. والحقّ أنّ من يشاهد ذلك التصميم سيذهبُ في روعه أنّ الأمر برمّته يتعلّقُ بديكور مسلسل تليفزيونيّ قديم، عنوانهُ «أليست الحياةُ أجمل فوق سطح بارجة؟».

وبينما كنتُ أتجوّلُ بين تلك المساحاتِ، لاحظتُ أنّ الهدوء يخيّمُ على المكانِ. لقد كان وقت القيلولة، وتذكّرتُ، حينَ دلفتُ إلى المطعم، أنّي لم أتناول طعام الغداء. كان المطعمُ فارغًا إلاّ من نادلينِ منهمكين في مسح الأرضيّة، وثلاث سيّدات متحلّقات حول كوبينِ من الشاي. حينئذٍ، فكّرتُ أنّهُ ما تزالُ تفصلني ستّ ساعاتٍ عن موعد طعام العشاء.

كنتُ قد زرتُ كلّ مكانٍ تقريبا في السفينة، ومع ذلك خمّنتُ أنّي لم أر شيئا بعد، طالما أني لم أزر غرفة المحرّكاتِ وقمرة القيادة. عدتُ أدراجي إلى الاستقبال، وهناك وجدتُ «سوزان»، قائدة الأوركسترا، غافيةً تقريبًا. قدّمتُ إليها نفسي، وطلبتُ منها أن تمنحني جولةً داخل كواليس السّفينة، متظاهرًا بأنّي بصدد إعداد تحقيقٍ صحافيّ. وبالفعل سمحت لي بالقيام بجولةٍ داخل قمرة القيادة وقادتني إلى القبطان الذي وجدتهُ يتأرجحُ فوق كرسيهِ الطويل، وقد بدا عليه الشعورُ بالسّأم. عندما دخلتُ القمرة، أدارت مساعدتهُ رأسها نحوي، وقد كانت تمسكُ لحظتها بالدّفة. ولكم

استغربتُ من عدم التطابق بين صوتها وصورتها، إذ لم تكن جميلةً كما تخيلتها وإن احتفظت ملامحها بشيء من الجاذبية. فكّرت أنّ سبب قبحها قد يكونُ أنفها الطويل المائل قليلاً أو عقصة شعرها الأشقر التي كانت ضخمة ومرتفعة للغاية إلى حدّ ينذرُ بالويل والثبور.

قدّمتني «سوزان» للقبطان قائلة:

-هذا الشاب صحافي يعدُّ تقريرًا....

قطعت جملتها ملتفتةً نحوي:

-...بخصوص ماذا بالضبط؟

-أوه، هذا سؤال جيد. في واقع الأمر، لنقل إنّي أعدّ تقريرًا حول نهر السّين...أقصد نهر السين وطيورهِ...حسنًا، ما زلتُ في مرحلة الإعداد للتقرير...أقصد...

قاطعني القبطانُ قائلاً:

-مرحبا بك على متن السّفينة.

تكلّمت «سوزان» في تلك اللحظة قائلة:

-لقد طلب منّي أن أريهُ قلب السّفينةِ النابض.

استغلق عليّ فهمُ ما ترمي إليه، فلم أعرف إن كانت تسخرُ من القبطان ومساعدتهِ أم أنّ ذلك هو أسلوبها في الحديث، وهو أسلوبٌ لم يكن يخلو من التبجّح.

أخرجني صوتُ القائد من شرودي وهو يقولُ:

-إن كانت لديك أسئلة تريدُ طرحها أو رغبتَ في إجراء مقابلة معي فلا تتردّد. أعترفُ أنّي غير ملمّ بموضوعِ الطيور، ولكنّ نهر «السين» أعرفهُ كباطن كفّي.

غادرت «سوزان» القمرة مخلّفة وراءها صمتًا ثقيلاً. وإذ فتح القبطانُ صحيفتهُ، رحتُ أتشاغلُ بمراقبة حركاتِ مساعدتهِ الدّقيقةِ. كانت تديرُ الدّفة بحركاتٍ خاطفة مرنة، وهو أمرٌ خمّنتُ أنّهُ يحتاجُ إلى تركيزٍ كبير. كانت متأهّبةً بالكامل، وهو ما

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

عاينتة في كتفيها ورقبتها وساقيها بل وفي سائر جسدها، بينما تحرّك الدفة في سلسلة من الحركات الخاطفة، واحدة إلى اليسار لتصحيح المسار، وثانية إلى اليمين للمحافظة عليه، وهكذا دواليك. لاشك أنّ حركاتها الرّاقصة، بكلّ ما فيها من بطء وعدم انتظام، قد جنّبتنا الاصطدام بالشاطئ وبالتالي، غرق السّفينة، تمامًا كطيور «مشروع الحمامة» التي كانت تضربُ بمناقيرها فوق الخارطة لكي توجّه الصواريخ مباشرةً نحو أهدافها.

وإذ انزعجتُ من الصمتِ الجاثم على القمرة، حاولتُ كسرهُ قائلاً:

-لقد شعرتُ بالسّعادة وأنا أتمكّنُ أخيرًا من رؤية صاحبة الصوت.

لم تنجح مزحتي المفتعلة سوى في انتزاعِ شبح ابتسامةٍ منها. كنتُ قد تورطتُ في محادثة محكومٍ عليها بالفشل، ولذا رحتُ أقدح ذهني بحثا عن وسيلة تضمنُ لي الخروجَ من تلك الورطةِ، ودفعها إلى التفاعل معي، إلى أن عثرتُ على ضالتي في «فيسيوبوليس»، تلك المنطقة التي حدّثتنا عنها عبر مكبّر الصوت، فذكرتها لها، ثمّ تابعتُ حديثي، بلا توقّفٍ ودون حتّى أن أنتظر ردّها، عن المزلقة العملاقة والخرائب. فجأة، وبينما كنتُ على وشك أن أستعرض أمامها ذكرياتي عن» هكلبيري فين»، تلقّت نداءً مشوشًا على جهاز استقبال السفينة، وهو عبارة على جهاز لاسلكي ذو تردد عالٍ. «من ميناء «غيفرني» إلى سفينة «أميرة السّين»، من ميناء «غيفرني» إلى سفينة «أميرة السّين»». كان الاتصالُ رديئًا، ما حدا بالمتّصل إلى تكرار ندائه، قبل أن ينقطع الاتصالُ مجدّدًا. أمسكت المساعدة بالجهازِ بدورها وخاطبت محدّثها قائلة: «من «أميرة السّين» إلى ميناء «غيفرني»، من «أميرة السّين» إلى ميناء «غيفرني»، أنا أسمعك». وسرعان ما جاءنا الردُّ على هيئةِ رجعِ صدى وطنينٍ متقطّعٍ وغمغماتٍ غير مفهومة. شعرتُ بالسّأم من فشل المحادثة مع المساعدة، وحديثي المتواصل إلى نفسي ورداءة الاتصال اللاسلكي، وفكّرتُ أنّ الوقتَ قد حانَ للعودةِ إلى مقصورتي. عندئذٍ، غادرتُ قمرة القيادة ولسان حالي يردّدُ: «إلى سفينة «أميرة السّين»، إلى سفينة «أميرة السّين»، سأعودُ إلى المقصورة رقم 313».

CamScanner ب الممسوحة ضوئيا

(32)بيثيا هي وسيط روحي وكاهنة الإله أبولو، حسب الميثولوجيا الاغريقية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشعرتني العودةُ إلى مقصورتي بالزاحة، ففيها لن أضطرّ إلى الاستماع إلى الموجات اللاسلكيّة الرديئة، أو الالتزام بقواعد سلوكٍ معيّنة أو محاولة التذاكي على غيري. كان تصميمُ مقصورتي يحملُ الألوانَ نفسها الموجودة في كامل أنحاء السفينة، ولقد شعرتُ بالطمأنينة، مع ذلك الذوق السيء، والشراشف الموضوعة بإحكامٍ فوق السرير الصغير والكوّة الصغيرة التي كانت تعيقُ مجال الرؤية، وهو ما كان من شأنه أن يحول بيني وبين الغرق داخل خيالاتي، لا سيّما أنّي كنتُ في حاجةٍ ماسّة إلى التركيز وتنظيم أموري وترتيب نقاط تحقيقي.

أخرجتُ بعض الكتبِ، كنتُ قد أخذتها معي، من الحقيبة ورتّبتها بانتظامٍ فوق المنضدة الصغيرة المواجهة للسّرير، وقد خالجني شعورٌ بأنّ محتوياتها هي جزءٌ من المعادلة، وأنّها ستوجّهني نحو الوجهة الصّحيحة. ومن ثمّة، انهمكتُ في نقل مقتطفاتٍ منها إلى دفتر ملاحظاتي، وأضفتُ إليها أفكارًا ونتفًا من حكاياتٍ وكلمات سحريّة ومحادثات وقصص حقيقية.

كنتُ قد أخذتُ واحدًا من المجلدات الثلاثة لـ «كتاب الملعونون» للكاتب «تشارلز هوي فورت»(36) وفتحتهُ. كان ذلك الكاتب هو أوّل من خطر على ذهني، في خضمّ بحثي عن تفسير ظاهرة تساقط أمطار الطيور النافقة، لأنّ كتاباتهُ كانت تشكلُ مفترق طرق إلزامي تتقاطعُ عندهُ كلّ الظواهرُ الغريبةِ والغامضة. كان أوّل ما اعترضني هو تحذيرُ مقدّمةِ الكتابِ: «لقد أمضى «تشارلز هوي فورت» حياتهُ مكافحًا للآراء العلميّة الجامدة بينما يجمعُ، بتصميمٍ قلّ نظيره إلاّ عند أولي العزم كـ «موسى»(35) و«داروين»(34) و«لايل»(33)، ما أسماهُ بـ «المعطيات المخالفة» التي جاءت لتقوّضَ استقرار العالم الحقيقيّ».

نشر «تشارلز هوي فورت» «كتاب الملعونين» في العام 1919، ومن خلاله، قام برصدِ سلسلةٍ هائلة من الظواهر الغريبة، وكلّها تتحدّى قوانين العلم والدين والعالمَ وتضعها موضع مساءلة. ولقد أوضحت كلمة الغلاف الخلفيّ الأمر كالتالي: «لقد تطلّب إنجازُ هذا العمل القيامَ بعمليّة مقارنة يدويّة بين ستين ألف جذاذةٍ، وقع ترتيبها وفق نظامٍ مبتكرٍ داخل تسعة وثلاثين صندوقَ أحذية. إنّ ما بين أيدينا ليسَ كتابًا

فحسب، بل ناطحة سحاب مدهشة». حانت مني التفاتة إلى دفتر ملاحظاتي، وكان من ماركة «كلارفونتين»، فبدا لي بصفحاته الستّ والتسعين شديد التفاهة مقارنةً به. ومع ذلك، أقنعتْ نفسي بأنّ ما يدفعني لملء صفحاته هو طموحُ «تشارلز هوي فورت» نفسه، طموحُ يناطح السحابَ، أو ناطحة سحاب أحلمُ أن أحشرَ داخلها أو ألقي بنفسي من فوقها، شاعرًا بحماسةِ مضاعفة.

تركتُ إيقاعَ الكتابِ، وقد كان والحقُّ يقالُ مرهقًا، يجرّني خلفهُ، إذ أنّ النصّ نفسهُ كان عبارة على نزهة طويلة مسترسلة، تنوّعُ من مواضيعها باستمرار، وتجمّع الوقائع وتستشهدُ بعشرات المجلات العلميّة والكتب والصحف، على غرار «مجلّة الطقس الشهرية» و«مجلة سيمونز للأرصاد الجوية» و«صحيفة كيبك ميركوري اليوميّة» و«مجلة تاسمانيا للعلوم»، إلخ.

فضلاً عن ذلك، كانت «المعطياتُ الملعونةُ» تتابعُ داخل فصولٍ لها عناوينَ تبدو كأنها أسطر مقتبسة من قصائد موجّهة للأطفال، على غرار «الأقمار الزرق والشموس الخضر» أو «دماء، أجساد، يرقات وهلام نجميّ» أو «مذنّبات مباغتة» أو «أجوار غامضون» أو «طوربيدات وعوالم تحت السيطرة» أو «الانتقال الآنيّ للصخور والمياه والبنزين» أو «موكب الوحوش المرح»...

كانَ «تشارلز فورت» يصيبُ القارئَ بالدّوار ويجتاز العصور والبلدان ويضاعفُ الأسئلة. ولأنّه ذو طبيعة مستفزّة، مرهقة ومؤثّرة، كانَ يدافعُ عن نفسهِ دون هوادةٍ ضدّ الانتقادات التي تسخرُ منهُ معتمدًا على شواهد قويّة. والحقّ إنّهُ كان رجلًا ذا رؤية حقيقية، إذ وثّق في كتابهِ وقائع هطول أمطارٍ سودٍ وصفرٍ، وسقوط أغراض صغيرة على هيئة فتاتٍ وحبوب قهوة وإبر وأقراص، واندلاع عواصف حمر، وسقوط أمطار غزيرة بلون الخزامى فوق منطقة «أودون» في فرنسا بتاريخ 19 ديسمبر 1903 (نشرة جمعية الأرصاد الجوية الفرنسية ، 1904)، ونزول أحجار برد زرقاء وبنفسجية ورمادية في روسيا، وسقوط جسم يشبهُ لحم البقر من سماء بلدة «أوليمبيان سبرينغ» الأمريكية، وجذوع أشجار الماهوجني فوق سواحل «جرينلاند»، وحشرات مائية فوق قمّة جبل «مون بلان» في منطقة الألب.

انهمكتُ في نقل صفحاتٍ بأكملها من كتاب «الملعونون» فوق دفتري وقد شعرتُ بأني وجدتُ أخيرًا مخاطبًا بوسعي التحدّثُ إليه، مخاطبًا قد يكونُ مثلي موسوشا ولكنهُ بالتأكيد شخصٌ طيّب. لقد كان ودودًا، وربّما أخرق بعض الشيء، وهو يبسطُ على القرّاء خيارًا ثالثًا، كما كان يقولُ، لا هو بالواقعيّ ولا هو بالمثاليّ، وإنّما خيارٌ وسطٌ كما لخّص ذلك في الجملة التالية: «أعتقدُ أنهُ لا يوجدُ شيء ما حقيقيّ أو حتّى خياليّ. فكلّ الظواهر تقتربُ، بنسبٍ متفاوتةٍ، من جدرانِ «اللا شيء» و«كلّ شيء»، على نحوٍ يجعلُ من وجودنا غير المؤكّدِ حالةً وسيطةً بين ما هو إيجابي وما هو سلبيّ، بين ما هو واقعيّ وما هو عدمٌ».

أنا أيضا شعرتُ بالرّعب من احتماليّةِ غرقي داخل لجج الوقائعِ. وعندما أرهقتني القراءة، واعتراني شيء من الاضطراب، وكأنّي عشتُ تلك الحالة الوسيط بين ما هو إيجابي وما هو سلبيّ، بين ما هو واقعيّ وما هو عدمٌ، استغرقتُ في نومٍ عميقٍ.

---

(36)تشارلز هوي فورت (6 أغسطس 3 - 1874 مايو 1932): كاتب أمريكي وباحث في الظواهر الخارقة للطبيعة.

(35)النبي موسى عليه السلام.

(34)تشارلز روبرت داروين عالِم تاريخ طَبيعي وجيولوجي بريطاني ولد في إنجلترا في 12 فبراير 1809 في شروزبري لعائلة إنجليزية علمية وتوفي في 19 أبريل 1882. اكتسبَ داروين شهرته كمؤسس لنظرية التطور والتي تنص على أنّ كل الكائنات الحَية على مر الزّمان تَنحدِر من أسلاف مُشتركة، واقترح نَظرية تَتضَمن أن هذه الأنماط المتفرعةَ من عملية التطور ناتِجةً لعمليتي الاصطفاء (الانتخاب) الطَبيعِي والصراع من أجل البقاء.

(33)سير تشارلز لايل (14 نوفمبر 22 - 1797 فبراير 1875) كان محامياً بريطانياً وأول جيولوجي في عصره.

كنتُ في حالٍ سيئة للغاية عندما استيقظت، إذ اكتشفتُ أنّ لعابي كان قد سال على قميصي وفوق ملاءة السرير المزينة بأشكالٍ هندسيّة مائلة إلى الصفرة، ولم أدر أينَ كنتُ، فاستغرقتُ في أحلامي ثانية. حلمتُ أنّي أتنزّهُ وسط مرجٍ كبير يقعُ قرب البحر ثمّ رأيتُ أبي، وقد كان يرتدي زيّ نادل مطعمٍ توشي الشرائطُ المذهبة كتفيه ويعتمرُ قبّعة سخيفة الشكل، وقد تحوّل إلى نورسٍ انقضّ فجأة عليّ وكأنّه حيوانٌ جائعٌ. رحتُ أركضُ في كلّ الاتجاهات لكي أتفاداه وأصرخُ متوسّلاً إيّاهُ أن يوقف هجماته، دونَ جدوى. استمرّ النورسُ في انقضاضه العنيف وسط لا مبالاة من كانوا حولي بما يحدث. كانوا منشغلين بتناولِ شطائرهم الزّديئةِ، وهم جلوسٌ على طاولاتٍ خشبيّة ذات أحجام كبيرة، ولم يكلّف أحدهم نفسهُ عناء مساعدتي والتوقف عن التهام شطائر الطماطم.

قرّرتُ الاتصال بأبي، حالما استيقظت، وسؤاله إن كان جدّ جديدٌ في «بونسكور»، إلا أنّ هاتفه الخلويّ ظلّ يرنُّ دونَ مجيبٍ. تركتُ لهُ رسالةً جديدة، أشرتُ فيها إلى توقيت مكالمتي وتاريخها، باذلاً جهدي لكي يبدو صوتي ودودًا. بدأ غيابهُ يثيرُ بالفعل حتّى إنّي تساءلت: إلى أيّة نزهةٍ بعيدة حملتهُ قدماه؟

ألقيتُ نظرة من كوّة المقصورة واكتشفتُ أنّ السفينة لم تكن تتحرّك، حينها أدركت أنّها رست بنا في أحد الموانئ. فجأة رأيتُ نورسًا يقفُ عند الضفّة فتساءلتُ ساخرًا: هل هو ذاك الذي رأيتهُ قبل قليل في حلمي؟ هل وصلنا إلى «نيويورك»؟

غيّرتُ قميصي وعدتُ إلى الاستقبال، وهنالك ابتدرتني «سوزان» قائلة:

-لقد وصلنا إلى ميناء «غيفرني»(41). هناك حافلة ستأتي بعد لحظاتٍ لتقلّ الزاغبين في زيارة منزل «كلود مونيه»(40).

تذكّرتُ ما حدث قبل عامٍ، يومَ ذهبتُ أنا و«أناستازيا»، إلى منزل الرّسامِ، لكننا حالما تجاوزنا الحديقة، وجدناهُ مغلقًا للصيّانة، كما قيل لنا وقتها.

حاولت «سوزان» تشجيعي على الذهاب قائلة:

-ألا ترغبُ في الذهاب؟ الحافلةُ ستنطلقُ بعد قليلٍ.

رفضتُ عرضها، وقد وطنتُ عزمي على عدم العودة إلى «غيفرني» كلّفني ذلك ما كلّفني. كنتُ قد قطعتُ على نفسي عهدًا بألاّ أضعَ قدمًا في «غيفرني» أو أزور ذلك المتحف ما حييت. فليزر أولئك المسافرون الشبيهون بزنابق الماء المكانَ لكنّي لن أضع قدمًا في «غيفرني». فكّرتُ أنّ قراري هو نوعٌ من التكريم الصّامتِ لتلك الرّحلة التي قمتُ بها قبل عامٍ، إذ كانَ يذكّرني على نحوٍ ما بـ «أناستازيا» التي أمضيتُ معها سنواتٍ بالغةِ العذوبة حتّى كاد الخدرُ أن يصيب علاقتنا نفسها. تذكرتُ الرسالة التي كتبتها إليّ لحظة انفصالنا. قالت لي فيها: «أحببتُ طريقتك في إظهار مشاعرك لي»، وأضافت: «لكنني صرتُ أكرهُ ما أصبحتَ إليه. لقد صارَ الهروبُ دافعًا لك. أنت تذكرني بـ «بلاتونوف»(39)، بطل مسرحيّة «تشيكوف»(38)، فهو لم يكن بطلاً بالمعنى المتعارف عليه بقدر ما كان فاشلاً عبقريًا، مجرّد معلّمٍ بائسٍ حلمُ أن يصيرَ رجل أدبٍ يشارُ إليه بالبنان، وبحث في مغازلةِ ما هو مستحيلٍ عن انتقامٍ لإخفاقاتهِ الكثيرة. لقد كانَ ديك قريةٍ، حزينًا مثل ديك وحزينًا مثل قرية. وما هو مؤكد بالنسبة إليّ هو أنّك ستستمرُّ في تردّدك وادعاءاتك وذكائك الذابلِ لفترةٍ طويلةٍ. ولهذا كلّهُ، أتمنى لك حظًا سعيدًا يا «بلاتونوف»».

نفضتُ عن ذهني ذكرياتي عن «غيفرني» و«تشيكوف»، وقرّرتُ التسكّعَ قليلاً داخل متجر السّفينة. ألقيتُ نظرة على البطاقات البريدية. كانت تعرضُ صورًا لنهر السّين وضفافه وصور منحدرات بالإضافة إلى عددٍ كبيرٍ من لوحات «مونيه». فجأة استرعت انتباهي لوحةٌ بعينها وسط تلك الكومة من البطاقات. كانت تصوّرُ رجلين مستلقيينِ داخل قاربٍ يطفو على أحد الأنهارِ، وقد استندا على وسادتين كبيرتين، بينما تغطيهما ملاءةٌ مطرّزة. كانا يبدوان منهكينِ والضماداتُ تغطّي أقدامهما. في آخر الزورقِ، ثمّة شمعةٌ صفراء وزهور بيضٍ كتلك التي توضعُ في المقابر. كان الرّجل المستلقي على يسار الصورة شارد العينينِ، وقد ترك يدهُ الهزيلةُ تتدلّى من القاربِ فوق سطح الماء، ولم يكن حالُ رفيقه أفضل منهُ، إذ كانت عيناهُ تتطلّعانِ إلى النهرِ، وقد عقد ذراعيه فوق بطنهِ كأنّ جسدهُ هيّأ بالفعل للسّهر بقربِ جثّةٍ مّا. أدرتُ البطاقة، وقرأتُ المكتوب على ظهرها. كنتُ أعرفُ قصّة اللوحةِ بالفعل. ففي كلّ مرّة كنّا نزورُ فيها أنقاض «دير جومياج»، وهو ديرٌ يبعدُ قليلاً عن ضفّة نهر السّين، ويقعُ

بعد مدينة «روان»، كان أبي يحدثني عن أسطورة العصبيين. ولقد كان أبي واضحا للغاية وهو يأمرني بأن آخذ مفردة «العصبي» في معناها الحرفي، أي ذاك الذي قُطعت أعصابهُ. كانَ ذينك المُرهقين المستلقيين فوق طوفهما دونَ حانةٍ «بيانوراما بار» أو ضابط محاسبة أو وجبة فطور أوروبيّة، هما «كلوتاير» و«شيلدريك»، ابنا «كلوفيس الثاني»(37). وكانت والدتهما «باتيلد»، ملكة فرنسا والوصيّة على العرش، هي من قام بإحراق أوتار ركبتيهما بعد أن نبأ إلى علمها أنّ ولديها يتهيّآن للهجوم على أبيها «كلوفيس»، وقد كان عاد للتوّ من رحلةِ حجّه إلى الأرض المقدّسة. لقد بدا أنّ ما فعلتهُ هو أأمنُ وسيلة لحرمانهما من الركض وإفشال مخططهما في «جوميانج».

«لعلّ هذه الأسطورة تصلحُ كعبرة لك»، هكذا كان أبي يردّدُ على مسامعي حالما ينتهي من سرد قصّته الميروفينجية، ولكم كانت سخريته المبطّنة تشعرني بالذعر في كلّ مرّة.

اشتريتُ البطاقة وقد نويتُ إلصاقها في دفتر ملاحظاتي. في غضون ذلك، تساءلتُ إن كنتُ سأتمكّنُ، في يوم من الأيّام، من تشكيلِ جيشٍ أحاربُ به أبويّ، ورحتُ أحاولُ احتسابَ المدّة التي يمكنُ للمرء أن يصمدَ فيها بينما يستلقي داخل قاربٍ تحت رحمة الأمواج والتيارات النهريّة. لعلّي بدأتُ أفقدُ السّيطرة، وأنا على متنِ «أميرة السّين»، مركبي الجنائزي، دونَ أدري، ما يعني أنّ الوقت قد حانَ بالفعل لكي أعتدلَ في جلستي وأتشوّف الأخطار القادمة. هكذا فكّرتُ قبل أن أتساءل عمّا يجبُ أن أحذر منه بالضبط: الشعور بالسخط أم الرصاص الطائش أم هجوم النوارس أم مطاردة اللا معنى؟

---

(41)بلدة فرنسية تقع في إقليم أور شمال فرنسا. ارتبط اسمها بالرسام الفرنسي الشهير كلود مونيه رائد المدرسة الانطباعية.

(40)كلود مونيه (بالفرنسية: Claude Monet) 14 نوفمبر 1840 في باريس - 5 ديسمبر 1926

في غيفرني. كان رشاما فرنسيا. رائد المدرسة الانطباعية في الرسم

(39)بطل مسرحية للكاتب الروسي تشيكوف كتبها وهو في سن العرشين ما بين 1878 و1881ولكنها نشرت لأول مرة في عام 1932.

(38)انطون بافلوفيتش تشيكوف (29 يناير 15 - 1860 يوليو 1904) طبيب وكاتب مسرحي ومؤلف قصصي روسي كبير ينظر إليه على أنه من أفضل كتاب القصص القصيرة على مدى التاريخ، ومن كبار الأدباء الروس. كتب المئات من القصص القصيرة التي اعتبر الكثير منها إبداعات فنية كلاسيكية، كما أن مسرحياته كان لها تأثير عظيم على دراما القرن العشرين. بدأ تشيخوف الكتابة عندما كان طالباً في كلية الطب في جامعة موسكو، ولم يترك الكتابة حتى أصبح من أعظم الأدباء، واستمز أيضاً في مهنة الطب وكان يقول «إن الطب هو زوجتي والأدب عشيقتي.»

(37)كلوفيس الثاني هو ملك المملكة الفرنجية الغربية، حكم مابين 639 و657.

مع حلول المساء، انتظمت ندوةٌ حول «التحوّل الانطباعيّ»، أثناء تناولنا طعام العشاء. وبينما انهمكنا في مضغ ظهور أسماك القدّ، طفقَ رجلٌ شديد المرحِ، يعرضُ صورًا للوحاتِ «مونييه» ويعلّقُ عليها بحماسٍ مفتعلٍ، وهو ما كان يتناقضُ جوهريًا مع صورة المؤرّخ الفنّي الجادّ المعتادة.

ولقد راح يردّدُ لازمة «إنّها ثورة بصريّة» في كلّ مرّة، رافعا عقيرته بالصراخِ في مكبّر الصوتِ، حتّى وقرَ في قلبي أنّ الرّجلَ كان يأملُ بسلوكهِ ذاك أن يدفعَ الحضورِ إلى فتحِ أعينهم المتحفّظة المتثاقلة.

بعد الانتهاء من العشاء، لم أجد مكانًا أسترخي فيه غير حانة البيانوراما. وهناك، جلسَ «جان بيار»، الرّجل ذو الشارب الذي أخبرني عن قصّة «مشروع الحمامة»، في مواجهتي وطفق يسألني عن أخبار التحقيق الذي أنجزهُ، مكرّرًا في كلّ مرة: «كما تعلم، أنا مهتمّ بقضيّة الطيور. أنا مهتمّ حقًا». ونظرًا لفشلي في تقديم أيّة معلومةٍ جديدةٍ له وانتشارِ مساحات الصمت بيننا، نهضَ فجأة وقفل عائدًا إلى مقصورتهِ متعلّلاً بالإرهاق الذي شعر بهِ بعد زيارة المتحف. لم يبق في الصالة سوى خمسة عشر شخصًا فقط، أغلبهم أزواجٌ بدوا لي وكأنّهم يجبرون أنفسهم على الحديث فيما بينهم، وأنا. كنتُ أجلسُ بمفردي معتليًا مقعدًا قصيرًا، أمام طاولة واطئة لونها بيج، وضعت فوقها كأسٌ كبيرة من مشروب الجنّ. كنتُ قد شربتُ نصفَ كأسي، ساحقاً في الأثناء قطعة الليمونِ بين أسناني، عندما دخلَ رجلٌ وجلسَ خلف البيانو. لا بدّ أنّه صعد إلى السفينة من «غيفرني» أو أمضى يومهُ نائمًا في مقصورتهِ، هكذا قدّرت، لأنّي لم أرهُ بين المسافرين قبل تلك اللحظة. كانت ملامحهُ تفضحُ أسنانهُ النخرة بفعل تقلّباتِ الحياة والكحول، وخصلات شعره النافرة من تحت قبّعة صوفية سوداء ولحيته المشعثة. لقد بدا لي، بقدميه اللتين حشرهما، بلا جوارب، داخل حذاء قارب، وسترة التويد ذات المربعات والمرقّعة عند الظهر، وكأنّهُ قادم من عصرٍ آخر (قد يكون القرن التاسع عشر أو ربّما القرن السابع ميلادية حيث عاش كلّ من «كلوتاير» و«شيلدريك»). فجأة، توقّفت الموسيقا داخل الصالة، ووجهُ الكشّافِ ناحيةُ البيانو، ليسقط الضوءُ على وجه القادم الجديد.

كانت النغمة الأولى نشازًا ومع ذلك نبهتني من شبهِ غفوتي، فتابعتُ العازفَ وهو يرتجلُ، على نحوٍ أخرقَ، لحنًا إيقاعيًا. في الجملة، كانَ لحنهُ مشكّلاً من نغمات قليلة، كاد النشازُ أن يغلب عليها لولا ذلك التنويع اللحنيّ الذي أدخلهُ في نهاية المعزوفة. وبعد بضع دقائق، قدّم الموسيقي نفسهُ لنا، دون أن يرفع نظره عن لوحة مفاتيح البيانو، قائلاً: «مساء الخير، أنا شوفال بلان(45)»، ثمّ شرع في الغناء، وعيناهُ مركزتانِ على آلتهِ. كان صوتهُ العميقُ يرتفعُ، مع نهايةِ كلّ سطرٍ من أسطر الأغنية، إلى طبقات عالية تكادُ تكونُ نشازًا مزعجًا للآذان. كانت أغنيته الأولى عبارة عن قصيدة في مديحِ الامتناع عن شرب الخمر، وبدا لي كأنّها تخاطبُ كأس الجنّ الموضوعةِ أمامي. «يا شراب قلبي، أخشى أن تطير بعيدًا/ بكلّ حبّ، سألعقُ/ ما خلّفهُ حبّك من ندوبٍ كثيرة على جسدي». ولم يكتف الموسيقي بذلك بل تابعَ إعلانهُ قائلاً: «أيّها الشرابُ، حتّى لو رحلتَ بعيدًا، لا تنس أنّي حبّك/وعندما تصير بعيدًا، لا تنس أن تفكّر بي، رغم كلّ شيء». الحقُّ أنّي فتنتُ بما في أغنيتهِ من قوّة على الرغم من بساطتها. بعد ذلك، استرسلَ في الشدو بالألحان المحبطة والقصائد المتأزّمة وترديد اللوازمِ المنذرة بنهاية العالم. بدا لي أنّ الحضور داخل الصالة لا يلقونَ إليهِ بالاً، بينما طفقَ هو يتمايلُ، مغمض العينين، ولو لم يكن جالسًا، لكنتُ قدّرتُ أنّه سيسقطُ لا محالة عند قدم البيانو. كان صوتهُ عالقًا، في أغلبِ ما غنّاه، بين الغناء والصراخ، حتّى إنّي شعرتُ، بينما أنصتُ إليه، وكأنّه اختزل مآسي حياتهِ كلّها في بضع نغماتٍ متسارعة. في أغنيتهِ الأخيرة، طفق يتحدثُ إلى أشباحه: «إلى ذكريات المرضى النفسيين الذين كنّاهم/ إلى مناقشاتنا الطويلة داخل أسرتنا في العيادة/ حيث التأمت جروحنا ونحن متجاورون/ في ذلك المصحّ العقليّ الذي صار جنّتنا». وتابع: «إلى ممرضات النهار/إلى أجمل ما في ليالينا/إلى أدويتنا/إلى أصدقائنا المعتوهين/ إلى همساتنا/داخل السلالم المظلمة/ إلى ممرضات النهار/إلى أجمل ما في ليالينا،...». راح يكرّرُ اللازمة الأخيرة ثلاث مرّات، بصوتٍ كان يرفعهُ بإطراد، ما حدا بالجميع إلى التوقف عن شربِ كؤوسهم سيئة المذاق، كما لو أنّهم بصدد متابعة «أنطونين أرتو»(44) وهو يدلفُ إلى نادي «الروتاري»(43) لكي يقرأ قصائدهُ. فجأة، انطفأ ضوء الكشّافِ، واختفى وجههُ، بينما تعالى تصفيقٌ محرج من القلّة التي بقيت

CamScanner

مرابطة في المكان. وما كادت أضواء الصالة تشعلُ ثانيةً، حتى كان قد غادر المسرح تمامًا، وكأن تلك الوصلة «الحصانية» لم تحدث قط.

عندما أدرتُ رأسي باحثًا عنه، ألفيتهُ جالسًا عند نضد الحانة، فالتحقتُ بهُ وجلستُ إلى جانبهِ عارضًا عليه كأسًا «لن يطير بعيدًا». شدّ على يدي مصافحًا وقدّم نفسهُ باسمهِ المسرحي:

-مساء الخير، أنا شوفال!

قالها ببساطةٍ شديدة وكأنهُ يلقي باسمه الحقيقيّ على مسامعي. وسرعان ما شعرتُ برغبة جامحة في الاصطفافِ وراء راية ذلك الحصانِ الأبيض. لقد كان رجلاً شديد العصبيّة، شاعرًا، فوضويًا، حتى إنّي فكّرتُ أنّ صفاته تلك تصلحُ أن تجعل منهُ قائدًا مدمنًا على الكحولِ يقودُ جيشا مبعثرًا، جريحًا وفخورًا. بيد أنّ ذلك لم يمنعني من التساؤل عن سبب صعود ذلك الرّجل الشبيه بالقرصان إلى سفينةٍ شبهِ راقيةٍ كـ «أميرة السّين». وعندما طرحتُ عليه السؤال، جاءني الجوابُ سريعًا. كان السببُ عائليًا، فالقبطانُ هو عمّه.

وتابع:

-عندما انتدبني عمّي كعازفٍ على متن رحلات «السين الأزرق»، قال لي: «لقد حان الوقت لكي تكبر يا آثر رامبو(42)». كان من الممكن أن أستشيط غضبًا، ففي تلك الفترة كنتُ مفلسًا تمامًا، ووجدتُ ضالّتي في قرض الشعر، لكنّ عبارتهُ أعجبتني بالنهاية، وفضلاً عن ذلك، كنتُ أحبُ التجوال على متنِ سفنِ الترف المزيّف والمسافرين الذين لا ينصتون إليك لأنّ أغانيك يرونها حزينةً أكثر ممّا ينبغي. هذه هي سفرتي الثالثة على متنِ سفينة. حملتني سفرتي الأولى إلى نهر «لوار» وهو نهرٌ غريب الأطوار. ثمّ قمتُ بجولةٍ ثانية على متن سفينة «الراين الرومانسيّ» في شهر مايو الماضي. في واقع الأمر، أحبُ هذه الرحلات النهرية، ففضلاً عن الاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلّابة والحصول على الوجبات المجانية، بوسعي فعلُ ما أريد، بل وأجدُ في معظم الأحيان من يساعدني على التوقّف عندما أفرطُ في الشراب. أحيانًا، يطلبُ مني، في أوقات تناول فواتح الشهيّة، تقديم وصلات من موسيقا

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الجاز، وغالبا ما تسيرُ الأمورُ على نحو جيّد. لكن في المساء، عندما لا تكونُ هنالك برمجة خاصة (أقصد الحفلات الراقصة أو المسرحيات الموسيقية، إن كان يهمّك أن تعرف)، أكتفي بعزف شيء من ألحاني، مرتجلاً على آلة البيانو. في غالب الأحيان، لا أحد يتحدّثُ معي، ربّما بسبب أغنياتي، أو مظهري...

كنّا قد شرعنا في جولة ثالثة من تناول مشروب الجنّ، عندما انبرى بغتةً يتحدّثُ عن أزمة إدمان الكحول التي يعاني منه وغرامهِ بالغواني الفاسقات اللائي يروين عطشه ويهيّجنهُ في الآن نفسه. حدّثني كذلك عن مغامرتهِ، وهو في سنّ العشرين، كعازفٍ في فرقة روك معروفة، وهي مغامرة عصفت بأحلامه قليلاً كما ذكر لي، ثمّ عرّج على ما عاشهُ في «باريس» و«سان دوني» و«أرديش» التي لجأ إليها مؤخّرا. فجأة، قطع حديثهُ وسألني:

-لكنك لم تقل ماذا تفعلُ على متن هذا المركب بحقّ الجحيم؟

بمشقّة بالغة، مردّها ما حرّكهُ فيّ الكحول من مشاعر ارتباكٍ وحماسةٍ في آن، طفقتُ أشرح لهُ قصّة أمطار الطيور النافقة ثمّ حدّثتهُ عن التحقيق الذي أجريهِ بخصوصها. في تلك اللحظة، وبينما كنّا نتناول كأسينا، قدمت مساعدة القبطان وجلست إلى جوارنا.

وسرعان ما قدّمها إليّ «شوفال بلان» قائلاً:

-هذه «كلاريس»، مساعدة قبطان هذه السّفينة. هي من تتولّى مساعدة عمّي على الإبحارِ فوق النهر. إنّها جنّيةُ «أميرة السيّن» الحامية.

كانت «كلاريس» تبدو مسترخية، إذ لم تعد مشاكل جهاز استقبال السفينة اللاسلكي أو إدارة الدّفّة على ذلك النحو المحموم، تشغلُ بالها في تلك اللحظات.

تابع «شوفال بلان» حديثهُ موجّها كلامهُ إلى «كلاريس»:

-هل تعلمين يا عزيزتي أنّ هذا الشاب يجري تحقيقًا بخصوص هطول أمطار غريبة، قال إنّها أمطارُ طيور نافقة؟ يبدو متخصّصا في هذه المسائل، وهو إلى ذلك سكران، وهذه هي كأسهُ الثالثة. ولذا أدعوكِ إلى الحذر، فقد يكونُ مخبولاً. لا أحد يدري ما

الذي يمكنُ أن يحدثَ على متن هذه السفن في وجود مخبولٍ...

ولأني، أولا، رغبتُ في محو آثار محادثتي الفاشلة مع «كلاريس» داخل قمرة القيادة، ولأنني وجدتها جميلةً ولأني أيضا أفرطتُ في الشراب، رفعتُ صوتي مجيبًا «شوفال بلان»، بينما يعرضُ النادلُ علينا جولة أخيرة من مشروب الجعة:

-الخبلُ لا يكمنُ في هوسي بأمطار الطيور، وهي أمطارٌ لم تحدث لمرة واحدة، بل تكرّرت مرّتين...أو في محاولتي التحقيق في الأمر والعثور على تفسيرٍ لما حدث... الخبلُ هو أن أكون الوحيدَ الذي يهتمّ للأمر برمته. الخبلُ هو أن تسقط أسراب الطيور من السّماء ويمضي الجميعُ إلى حيواتهم التافهة وكأنّ شيئا لم يحدث. الخبلُ هو أن يسقط ألفا زرزورٍ من السّماء ويعود الجميع إلى منازلهم دون أن يتساءلوا إن كان ثمّة خطبٌ ما، في الأرض أو في السّماء. هل تعلم أنّ هنالك من شاهد تلك الطيور وهي تحتضرُ لدقائق طويلة بعد سقوطها؟ الخبلُ هو ألا يعلمُ النّاسُ عن هذه الحادثة شيئا، أو عن تكرّرها في مرّة أولى على بعد كيلومترات قليلة شمال منطقة الحادثة الأولى، ثمّ في مرّة ثانية....

استأنف «شوفال بلان» حديثهُ قائلاً:

-لطالما فكّرتُ أنّ نهاية العالم لن تثير حزن أحد. لو حدث ذلك، ستختفي الطيور لأنّها لن تجد أغصانًا. أنت محقّ في مواصلة بحثك، وأرجو ألا تغضب، فكلمة مخبول لها معنى إيجابيّ عندما تخرجُ من فمي.

في تلك اللحظة، تدخّلت «كلاريس» في الحوار قائلةً:

-ثمّة قصص كثيرة مشابهةٌ عن الحيوانات، وبعضها غريبٌ حقًا. مؤخّرًا، قرأتُ قصّة عن شخصٍ يمتلكُ حديقة حيوانات خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية. أجل على المرء أن يصدّق وجود مثل هذه الحدائق فلا تنسوا أننا نتحدّث عن الولايات المتحدة الأمريكية...قلتُ إنّ ذلك الشخص كانَ جامعَ حيواناتٍ وأسلحةً ناريةً، حسب ما قرأت. وفي أحد الأيّام، قرّرَ، بلا سببٍ ظاهرٍ، أنّهُ سئم من حبسِ حيواناتهِ، وقد كان يربّي أنواعا مختلفة منها: ضواري وطيور وحمر وحشية وثعابين...أعني حديقة

حيوانات كاملة إن فهمتما قصدي...قلتُ إنّ هذا الرّجل الأمريكي جُنّ بغتةً وقام بفتح أقفاص حيواناته وأطلق سبيلها، ثمّ عمد إلى بندقيّة، كانت ضمن مجموعة تحفه الخاصة، وأطلق النار على نفسه. هامت الحيواناتُ لمدة أربعٍ وعشرين ساعة، حول بلدة المنتحر الصغيرة، وفي الحقولِ ومواقف سيارات المساحات التجاريّة الكبرى، حتّى إنّه قيل أنّ هنالك من خرج من غرفة الحمّام ليجد قردًا أمامهُ، واتخذ سوّاقُ العربات جانب الحذر لكيلا يصطدموا بالنمورِ والظباء على الطرقات. ولقد كان من الطبيعيّ أن يخرج رجال الشرطة في رحلةٍ «سافاري» بعد تلك الحادثة، غير أنهم قاموا بقتلها الواحدة تلو الأخرى، بدلًا من القبض عليها حيّة. كان المشهدُ مروّعاً عندما نشرت إحدى صورة وثّقت مجزرتهم الدمويّة، صورة كانت تظهرُ حديقة كاملة من الحيوانات النافقة المرميّة على الأرض.

أشعرتني قصّةُ تلك المجزرة بالاضطراب، رغم حدوثها في مكانٍ بعيدٍ، فلذتُ بالصّمت. ألقيتُ نظرة على «شوفال بلان». كانَ ما يزالُ حيّا، لكنّ قواهُ بدأت تخور شيئا فشيئا. أحيانًا، كانت عيناهُ تنغلقان لنحو عشر ثوانٍ، قبل أن يسارع إلى فتحهما مفزوعًا.

فجأة تذكّرتُ قصّة الطوفان والنبيّ نوحَ وسفينته، فانبريتُ مخاطبًا «كلاريس»:

-لا أعرفُ لماذا تذكّرتُ قصّة سفينة نوحٍ، ولكنّها تذكّرني بحادثة سفينة حاويات، كانت تبحرُ بالقرب من سواحل «ألاسكا»، حسب ما أتذكّر، وعلى متنها عشراتُ الآلافِ من اللعب البلاستيكية، معظمها من دمى البطّ الصفراء. ما حدث هو أنّ المركب غرق بحمولتهِ بسبب عاصفة.

-وهل نجا أفرادُ الطاقم؟

-أوه، لا أعرف، ولكنّه سؤال جيّد. ما أعرفهُ هو أنّ دمى البطّ راحت تسبحُ بحريّة في المحيط. لقد ظلّ الناسُ، طوال أشهرٍ، يعثرون عليها عند سواحل منطقة «فانكوفر»، إذ كلّما اندلعت عاصفة بحريّة، إلاّ وخرجت دمى البطّ البلاستيكية، تلك الناجية الوحيدة من الفلكِ المفقود، من المحيط.

حانت مني التفاتة إلى «شوفال بلان»، فألفيتهُ قد استغرق في النومِ تمامًا، وقد أراح رأسهُ فوق كوعهِ المثني فوق النضدِ السابحِ في الماء، أو هكذا تهيأ لي.

-هل تعتقدين أنّ علينا حملهُ إلى مقصورته؟

سألتُ «كلاريس» لكنها ردّت قائلة:

-تلك هي عادتهُ. لا تزعج نفسك، سيستيقظُ بعد قليلٍ.

اقترحت عليّ أن نخرج وندخّن السجائر على سطح السفينة. كان الجوُّ في الخارج لطيفًا بعض الشيء وهادئًا. لا بدّ أنها كانت الثانية صباحًا، كما قدرت. كان بوسعنا أن نرى مداخنَ ثلاثة مصانع، بدت من بعيدٍ كأسطوانات عملاقة مضاءة بالكامل بواسطة كشّافاتٍ كانت تشكّلُ ما يشبهُ أضواء زينةِ شجرة عيد الميلادِ تنعكسُ أنوارها على مياه النهر. كانت المداخنُ تنفثُ دخانًا أحمر اللون، بدا لي كأنّهُ ينبعثُ من عالمٍ آخر. كانَ دخانًا سميكًا، غير ضارّ، كما بدا لي، راحَ يصعدُ ببطء متجاوزًا الصواري الثلاث الطويلة المصنوعةِ من الصلب، بألوانها البيضاء والسوداء، لإبعاد الطائرات، دون شك، أو ربّما الطيور أيضًا. فكّرتُ ساخرًا.

أشعلت «كلاريس» سيجارتها واستأنفت حديثها قائلةً:

-أرى أنّ ما حدث مع سفينة الشحن التي وزّعت الدمى على السواحل، يبعثُ على الأمل بالنهاية.

-أجل، أكثر ممّا حدث في حديقة «فانسان» الخاصة، عندما عثر على بعض حيواناتها غارقة في دمائها. أجل، هذا أمرٌ مؤكد.

-نعم، أعتقدُ أنّ غرقها ترتّب عنهُ أمرٌ جيّد.

-أوه، لقد قلتِ إنّ غرقها ترتّب عنه أمرٌ جيّد. ربّما هذا ما يتعيّنُ علينا أن نبحث عنهُ: غرقٌ يترتّبُ عنهُ أمرٌ جيّد. أو ربّما يتعيّنُ علينا أن نجد الوسيلة المثلى لكي يترتّبَ عن غرقنا أمرٌ جيّدٌ بالفعل.

كانت «كلاريس» تقفُ في مواجهة محطّة توليد الطاقة الكهربائية، تدخّنُ، تبتسمُ

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وتجلب نظراتي. كنتُ أرغبُ في نيلِ إعجابها والحديث كذلك عن قناديل البحر، لكن سطح الماء كان معتمًا، ولم يكن ثمّة ما يشي بوجود عوالق أو قناديل نهريّة، من نوع رجل الحرب البرتغالي المشعّ. في تلك العتمة، كان الضوءُ الوحيدُ المتوفّرُ هو ذلك الصادرُ عن محطة توليد الكهرباء.

-هل ثمّة ما يهيّجُ المشاعرَ في الليلِ أكثر من رؤيةِ محطّة لتوليد الطاقة النووية؟

تظاهرتُ بطرح السؤال لاستدراجها إلى الحديث، لكنّ ذاكرتي سرعانَ ما أعادتني إلى تلك الأيام والليالي الطويلة التي أمضيتها أنا و«أناستازيا» خائفين، كلَّ دقيقة، من سحابةِ «فوكوشيما» النوويّة. كنّا ننتظرُ نهاية العالم بينما نمارس الحبّ ونصيخ السّمع، بآذان قلقة، إلى الأخبار القادمةِ من هناك، أخبارٍ تحوّلت إلى وليمة كنّا نقبلُ عليها بجشعٍ. لقد صرنا، في غضون أيّامٍ معدوداتٍ، خبيرَيْنِ بمحطّة «فوكوشيما دايتشي» النوويّة، حتّى إنّهُ كان بوسعنا مثلاً رسمُ مخطّطٍ يدوي لمواقع المفاعلات 1 و3 و4، وبرك تبريدها، ومعرفةِ التسلسل الزمنيّ للانفجارات التي حدثت بالمبنى والتسرّبات الإشعاعيّة ومسار موجةِ الضغط والخسائر الناجمة عن الزلزال. في ذلك الشتاء، كنّا بعيدين عن اليابان، في مأمنٍ من الانبعاثات السامّة، ومع ذلك، ركبنا هوسٌ بمراقبةِ العالم من بعيدٍ، عالم كان يوشكُ على الفناء. والحقّ أن رعبنا من خطرٍ نوويّ قادم من الشرق الأقصى عزّز حبّنا لبعضِ الوقت.

Telegram:@mbooks90

لم تقل «كلاريس» شيئًا، خلال تلك اللحظات القليلة التي غادر فيها عقلي «أميرة السيّن» ليحطّ على السواحل اليابانيّة. كانت تقفُ إلى جانبي، حيّةً، بينما تعتمدُ بمرفقيها على حاجز السّفينة. ورغم أنّها لم تجب على سؤالي الكاذب، إلاّ أنّي شعرتُ بأنّها اقتربت منّي أكثر. حينئذٍ، لملمتُ شتات نفسي، والتفتُّ نحوها، راغبًا في التخلّصِ من تلك الذكرى النوويّة البعيدة- ذكرى محطّة «فوكوشيما» و«أناستازيا» معًا- ومستفيدًا من شجاعةِ خرقاء منحنيها الكحولُ، وقلتُ لها بعباراتٍ لا تقلُّ تهوّرًا:

-أنت جميلةٌ كمحطّة نوويّة في الليل.

فجأة، سمعتُ صوتًا ساخرًا ينادي عليّ من الجانب الآخر للجسر، في اللحظة التي سمحت لي فيها «كلاريس» بتقبيلها:

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

-هل أنتما بخير؟ أرجو أني لم أزعجكما!

كان ذلك صوتُ «شوفال». كان الشرابُ قد طوّح به فعلاً وهو ما فضحهُ صراخهُ الحادّ.

وأضاف:

-حسنًا، أرى أنّ أحدهم استفاد من غيابي!

في تلك اللحظة، شعرتُ بأنّ كلّ شيء بدأ في الاهتزازِ أمام عينيّ، وكأنّ شراب الجنّ باشرَ مفعولهُ دفعةً واحدة. كانت أضواءُ محطّة توليد الطاقة تومضُ أمام ناظريّ بقوّة وحدستُ أنّ ذلك الحصانَ قد تخلّص من لجامه تمامًا.

تناهى إليّ صوتُ «كلاريس» وهي تقولُ متنهّدة:

-اللعنة!

في غضونِ ذلك، راحَ «شوفال» يتحزّك في اتجاهنا، متشبّثًا بالحاجز، قبل أن يرفعَ عقيرتهُ موجّها حديثهُ إلى نهر «السين» وإلينا بالتناوب.

-إنّي أحييك أيّها النهرُ القديم. إنّي أحييك.

وإذ فضحت نظراتهُ ما كان يشعرُ بهِ وهو يعاينُ مدى قربي من «كلاريس»، تابع موضّحًا نواياه:

-حسنًا يا عزيزي، هل آتت قصصك المثيرة عن الطيور أكلها؟ بربّك يا «كلاريس»، لا تقولي إنك وقعتِ في الفخّ؟ هيّا، تعالي يا «كلاريس»، دعينا نذهب بعيدًا عن هذا الأحمق. هيّا.

كان قد وصل أمامي في تلك اللحظة، فوضع يدهُ على كتفي أوّل الأمر ثمّ شدّ معطفي، وتهالك على صدري، هامسًا في أذني بأسطر شعريّة بدت لي أكثر ركاكةً من عزفه على آلة البيانو. فابتدرتهُ قائلاً:

-لا بأس! اهدأ الآن. أهدأ بحقّ الجحيم.

كان ما تفوهتُ به يفضحُ رغبتي في تهدئتهِ أكثر من كونهِ تعبيرًا عن نفاذ صبري، لكنهُ واصل التشبُّث بي بقوةٍ. كان من يرانا على تلك الحال، سيذهبُ في ظنهِ أنّ ما يحدثُ بيننا هو عناقٍ حميمي يعقبهُ انفصالٌ نهائي، أو مباراة جودو تعرضُ بحركةٍ بطيئة أو رقصة شعبيّة تجمعُ بين ثملينِ طوّح بهما السُكرُ.

فجأة، صرخت «كلاريس» فيه قائلةً:

-توقف يا «جيروم». أنت سكران وما تفعلهُ مقرف.

لم يكن لذلك الانتقال من اسم الرّجل المسرحيّ إلى اسمهِ الحقيقيّ، وهو ما قدّرت أنّ «كلاريس» فعلتهُ لتهدئته، أيّ تأثيرٍ في واقع الأمر على إدراكي لما يحدثُ حولي، فشرعتُ أصرخُ بدوري محاولاً تخليص نفسي منه:

-هل جننت أيّها المعتوه! ابتعد عنّي بحقّ الجحيم!

فجأة، جذبتهُ بحركة دائرية كبيرة وسقطنا على سطح السفينة، ثمّ رحنا نتعارك فوق تلك الخردة المعدنيّة الرطبة. كانت مبارزة مخيبّة للآمال بين سكرانين، حوّلت فارسين شجاعين إلى رضيعينِ يتخبّطانِ فوق مفرشِ اللّعب، وهو ما كان يبعثُ على الرّثاء حقًا. ولأنّ «كلاريس» كانت هي الوحيدة من بيننا التي حافظت على صفاء ذهنها، اندفعت لكي تفصل بيننا صارخةً، قبل أن تمسكني من قدمي وتجرّني إلى الخلف ككيس قديم. وفي محاولةٍ أخيرة، أردتُ توجيه لكمةٍ إلى ذلك الحصان البائس، لكني أدركتُ أنيّ ابتعدتُ عنه بالفعل ببضعةِ أمتارٍ، قبل أن تترك «كلاريس» عقب قدمي بحركةٍ مفاجئة. فجأةً، أدركتُ ما كان عليهِ الموقفُ، فجلستُ على أربعٍ لكي أتمكن من التنفّس على نحوٍ أفضل. كنتُ حيوانًا جريحًا أجبرَ على تقبّل هزيمتهِ المهينة. شعرتُ بألمٍ في رأسي فبصقت، دون أن أنسى توجيه إهانة أخيرة لجيروم/ الحصان.

ساعدتهُ «كلاريس» على النهوض، ثمّ استدارت نحوي قائلةً:

-سيكونُ من الأفضل لو عدت إلى مقصورتك الآن. إنّ حالة «جيروم» سيئة، كحالك تمامًا.

(45)تعني حرفياً: الحصان الأبيض.

(44)أنطونين أرتو (ولد في مرسيليا في 4 سبتمبر 1896 - توفي في باريس في 4 مارس 1948) هو شاعر سوريالي وممثل وناقد وكاتب ومخرج مسرحي فرنسي. ساهم في بلورة ما يعرف بمسرح القسوة في كتابة الخاص " المسرح وقرينه " الذي يعد المرجع الأول لتوجهه المسرحي. ويعد أرتو امتدادا طبيعيا لاتجاهات رفض المدرسة الواقعية في الفن والتمرد عليها.

(43)الروتاري العالمي هو منظمة تطوعية للخدمة العامة، أسسها بول هاريس (محامي) وثلاثة من أصدقائه هم: سيلفستر شيلي (تاجر فحم) وجوستافوس لوير (مهندس مناجم) وحيرام شوري (خياط)، في شيكاغو في عام 1905. ويحيل اسمها إلى معنى التناوب كون اجتماعات المنظمة كانت تعقد بصورة دورية. واتسعت عضوية النادي بمرور الوقت لتشمل في 2006 حوالي مليون ومائتي ألف عضو في 32 ألف نادي موزعين على 200 دولة.

(42)آرثر رامبو (Arthur Rimbaud؛ 20 أكتوبر 10 - 1854 نوفمبر 1891) شاعر فرنسي أثرت أعماله على تطور المدرسة السريالية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما فتحتُ عينيّ، شاعرًا بالدوار بسبب شراب الجنّ وأحداث الليلة السابقة التي انتهت إلى ما يشبه حفلَ ألعابٍ نارية وقع إخمادها بالقوّة، كان المكبّرُ الصوتي الموضوع عند رأس السرير يصدحُ بلحنٍ فلامنكو افترضتُ أنّهُ يعملُ كمنبه للاستيقاظ. لا بدّ أن «كلاريس» عادت إلى قمرة القيادة، واسترجعت وظيفتها كمساعدة قبطان، بعد أن أوصلت الحصانَ إلى اصطبله. كنتُ قد تحصّلتُ على رقمها، قبل أحداث ذلك الشجار السخيف، ومن ثمّة أمضيتُ الليلَ أرسل لها من مقصورتي رسائل غزلٍ تعتعها السكرُ، خالطها شيء من الاعتذار المرتبك. ولقد أثبتت أنّها نبيلة حقًا عندما فضّلت عدم الردّ على رسائلي. أجل، لا شك أنّها استرجعت مكانها خلف الدفّة، إذ بدا لي، حين ألقيتُ نظرة من الكوّة، أنّ السفينة سحبت مراسيها واستأنفت رحلتها البطيئة فوق النهر البنّي، كما لو أنّها سيّدة عجوز أثقلت السنون كاهلها.

والحقّ إنّي ما زلتُ أجهلُ إلى هذه اللحظة سرّ إقدامي على فتح المجلّد الثاني من كتاب «التاريخ الطبيعي»، لـ «بلينيوس»(48)، بينما كانَ عقلي يعاني من آثار الخُمار، على شكل صدمات كهربائية قصيرة، وفمي من الجفاف وجسدي من نقص السكر في الدّم. كنتُ قد اشتريتُ الكتابَ من أحد الأرصفة قبيل رحلتي، وفكّرتُ أنّ قراءة متنه قد تكونُ بمثابةِ منبه صباحيّ جيّد لذهني أو نوعًا من الأقراص الفوّارة، بيد أنّها أقراصٌ تنتمي إلى زمنٍ قديمٍ. أضف إلى ذلك، كنتُ أبحثُ عن طريقة فعّالة أمحو بها أحداثَ الليلة السابقة.

كان عليّ أن أعترفَ، بينما أتقدّمُ في الكتاب، أنّ ما تضمّنهُ من وقائع مربكة كانت تشبهُ إلى حدّ بعيدٍ وقائع ما صرتُ أحبُّ أن أسميَها قضيّتي. وبالفعل، سارعتُ إلى تدوينها في دفتر الطيور النافقة، رغم ما كنتُ أشعرُ به من آلامٍ في كتفي التي سقطتُ عليها في الليلة السابقة.

كان «بلينيوس» قد استعرض في كتابه الكثير من حوادث سقوط أمطار الحيوانات من «السماء الدنيا»، كما يقول، كحادثة «هطول أمطارٍ من الطوب المُحمّى في العام 702، حسب تقويم روما»، أو «نزول أمطار من الصوف، في زمن القنصلين «باولوس» و«مارسيلوس» العام 704، حسب تقويم روما، حول قلعةِ «كاريسا»

التي شهد محيطها مقتل «تيتوس أنيوس ميلو»، في العام التالي» أو «هطول أمطار من الحليب والدم في زمن القنصلين «بورسيوس» و«مانيوس أسيلوس»، العام 640، حسب تقويم روما»، أو «سقوط قطع من اللحم زمن القنصلين «فوليمنيوس» و«سيلبيسيوس»، العام 293 ، حسب تقويم روما، لم يفسد منها سوى ما مسته الطيور» أو «نزول أمطار من الحديد فوق منطقة «لوكانيا»، وأضاف» كان للحديدِ شكل ندفٍ إسفنجيّة».

عندما قرأتُ الجملة الأخيرة، حاولتُ أن أتخيّل الحديد وهو على هيئة ندفٍ إسفنجيّة، غير أنّ ذهني أعادتني إلى ما أعانيه من خُمارٍ قبل أن ترحل بي مجدّدًا إلى شكل الإسفنجة الكاشطة، ذات الوجهين، وهي إسفنجةٌ نقعُ عليها عادةً داخل قيعان أحواض الغسيل وتستخدمُ خصوصًا لتنظيف البقع المستعصية. فجأة، طفرت في ذهني ذكرى الإسفنجة المقدّسة التي قدّمت للمسيح ليشرب منها خلال الصلب، بعدما صرخَ لحظة احتضاره «أنا عطشان»، كما ورد ذلك في إنجيل يوحنّا. كانت الجملة مكوّنة من كلمتين بسيطتين صادمتين، عبّرتا عمّا كان المسيحُ يعانيه من عذابٍ، ولكن أيضا عن رغبتهِ في الحصولِ على شيء ما لم يجد وقتًا لكي يسقيه. لقد حدث أن شاهدتُ، قبل ثلاث سنوات، قطعةً من تلك الإسفنجة المقدّسة معروضةً إلى جانب ثلاث قطعٍ أخرى من الصليب المقدّس، وجزءًا من مسمارٍ صغيرٍ، وشوكتين من التاج المقدّس، عندما زرتُ كنيسة الصليب المقدّس في روما. والحقّ أنّ لا شيء جذب انتباهي، من بين كلّ تلك البقايا المتواضعة، سوى تلك القطعة الإسفنجية، إذ كانت ضئيلة، سوداء اللون، ومتقشّرة كقلبٍ مجفّفٍ.

شعرتُ بأنّ ذهني ازدادت تشوّشًا، وإن كنتُ لا أدري إن كان ذلك بسبب الخمارِ أو «بلينيوس» أو الأناجيل، وتخيّلتني موجودًا في روما وعلى الجلجثة(47) في آنٍ واحدٍ، بينما تهمي السّماء بإسفنجات معدنية ودماء وحليب وخلّ وسترات صوفيّة كانت تطفو في الهواء ثمّ تسقط على الأرض ومزنٍ وكنائس من الطوبِ كانت تتحلّلُ في الأجواء. كنتُ أعاني من جفاف حلقي لكنّ ذهني أبت إلاّ أن تخلطَ بين أسماء القناصل «باولوس» و«مارسيلوس» و«سولبيسيوس» و«بيلاتوس»، حتّى صرختُ

في خيالي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟(46)

فجأة، قطع صوتُ «سوزان» القادم من مكبّر الصوت، رحلتي الفجائعيّة تحت السمواتِ القديمة. اللعنة! كان موعدُ الإفطار قد حان!

---

(48)كايوس بلينيوس سيكوندوس (ع.25 - 23 أغسطس 79م). اشتهر باسم بليني الأكبر. كتب الكثير من الأعمال التاريخية والفنية التي لم يتبق منها سوى 37 مجلدًا جلّها في التاريخ الطبيعي.

(47)الجلجثة هي اسم يشير إلى مكان يقع خارج مدينة القدس القديمة، يعتقد بحسب الإنجيل أن يسوع صلب عنده.

(46)كان ذلك آخر ما قالهُ المسيحُ على الصليب بحسب الأناجيل (انظر انجيل (متى 27: 46)). ولقد اعتمدها الكاتب في هذا السياق، ساخرًا من أعراض تشوش ذهنه.

عندما بلغتُ المطعم، في الطابق العلوي، رأيت رجلاً يشيرُ بيديهِ بحركات كبيرة. كان يحرّكُ ذراعيه من اليسار إلى اليمين ويرفعهما إلى أعلى رأسه، كما تفعلُ الشخصياتِ المصوّرة على اللوحات الإرشاديّة المعلّقة في كلّ أروقة السّفينة والمعدّة لحماية المسافرين من الغرق. في واقع الأمر، كان الغارقُ هو «جان بيار»، وكنتُ أنا المعنيّ بإشاراتهِ تلك. عندما، اقتربتُ من طاولتهِ، ابتدرني قائلاً:

-لقد كنتُ أبحثُ عنك. ثمّة ما أودُّ إخبارك به.

جلستُ إلى طاولتهِ في الحال، دون أن يسعفني الوقتُ بإلقاء تحيّة الصباح عليه، ومع ذلك، شعرتُ بالسّعادةِ لرؤيةِ شاربهِ الذي لا يكفُّ عن الحركة.

-الأمرُ يتعلّقُ بتحقيقك. هذا الصبّاح، جافاني النوم، وهي حالة صرتُ أعاني منها كلّ يومٍ تقريبًا. ففي كلّ يومٍ، أستيقظُ مع الخامسةِ صباحًا، وهو ما بات يزعجُ زوجتي كثيرًا. على أيّة حال، خرجتُ مبكرًا هذا الصباح، وانطلقتُ في نزهةٍ عند رصيف الميناء، ثمّ واصلتُ سيري حتّى بلغتُ محيط محطّة توليد الكهرباء. لا بدّ أنّك تعرف أنّي أتحدّثُ هاهنا عن المنطقة الواقعة على الجانب الآخر من غيفرني، عند ذلك المنعطف حيثُ رست السّفينة بنا يوم أمس. المهمّ، رحتُ أتمشّى هناك، راغبًا في الحصول على شيء من الهواء النقّي وتحريك ساقيّ، وهاك ما صادفتهُ.

أخرج هتفه المحمول وقلّب فيه قليلاً قبل أن يعثر على صورةً وضعها أمام عيني قائلاً:

-ألا يبدو لك الأمرُ مذهلاً!

-أوه، بلى.

-لقد عثرتُ عليها عند الضفّة. لقد وجدتُ الخمسة على نفس الحال، مستلقيةً على ظهورها، قربَ الماء، وكأنّها خرجت منهُ للتوّ. لقد وجدتها متجاورةً تقريبًا، وهي على تلك الوضعيّة، لكنّي لم ألمسها بالطبع قبل أن ألتقط لها صورة، لأنّي أردتك أن ترى ما رأيته.

مدّ لي الهاتفَ محرّكًا شفتيهِ- لم أدر إن كان يبتسمُ أو يغمغمُ بشيء ما- وطفق

يتطلّع إليّ بتركيز. لعلّهُ كان بصدد اكتشافِ أمرٍ ما، بينما يسبرُ أغواري، بدا لهُ منظرهُ مريعًا؟ فكّرتُ ساخرًا. الحقُ أنّ ما رأيتهُ على شاشةِ الهاتف كان هو المريعُ حقًا. كنتُ قد قلبتُ الهاتف لكي أتمكّن من مشاهدة الصورة من زاويةٍ صحيحة. عاينتُ وجود نقاط حمرٍ فوق أعناقها ومناقيرها. وباستثناء تلك الجروح الدامية، كانت الصورةُ عاديّة، لم أر فيها سوى مناقيرَ وريش وأجنحة بطّ، وإن كان ممّا لا شكّ فيه، أنّهُ بطّ ميت وشبعَ موتًا. حسنًا، الأمرُ يتعلّقُ إذن ببطٍّ ميتٍ، وإن شئتُ الدّقة، لقلتُ إنّ الصورة تعرضُ خمس بطّات ميتة.

استأنف «جان بيار» حديثهُ قائلاً:

-لقد فكّرتُ بك في الحال عندما رأيتُ ذلك المشهد. لقد أردتُ القدوم لاصطحابك، لكنّي كنتُ أجهل رقم مقصورتك، وكانت السّفينةُ ستبحرُ في كلّ الأحوال.

حسنًا، لو لخّصتُ الأمر لقلتُ إنّ «جان بيار» أحضر لي صورة خمس بطاتٍ ميتة، كان قد عثر عليها في محيط محطّة توليد الكهرباء، بديلاً عن طعام الإفطار. كان يفترضُ بالصورة أن تكونَ، دليلاً جديدًا أو على الأقلّ خيطًا يمكنُ تعقّبهُ، غير أنّي لم أحر جوابًا.

-لا بدّ أن تعترفَ بأنّ مشهد هذه الطيور الخمسة النافقة، وهي متجاورة على تلك الوضعية قرب الضفّة، يبدو غريبًا. أليس كذلك؟ لقد فكّرتُ بك في الحال.

شعرتُ بالتأثر لأنّهُ فكّر بي حينما رأى تلك الطيور النافقة. كانت تلك هي المرّة الثانية التي يخبرني بأنّه فكّر بي. فكّرتُ ساخرًا أنّي، في يومٍ ما، سأرتبطُ بالطيور النافقة على نحوٍ لا فكاك منه. وسيذيعُ خبري بين النّاس. سيسارعون إلى التفكير بي كلّما سقط طائرٌ في مكانٍ ما، وربّما تظهرُ صوري في الصحفِ تحتَ أخبار حوادثِ تساقط الطيورِ ورحلات الصيد الكبيرة. سيفكر الصيادون بي حينَ يرونَ ما اصطادوهُ من طيور السّمانِ والدرّاج والورشان المألوف(53) والحجل أحمر السّاق والبطّ البريّ وديوك الغاب(52)، على الأرض مضرّجةً في دمائها أو في أفواه كلابها. عندما تسقطُ الفراخُ من أعشاشها، سأكونُ هنالك أيضا، وسيقولُ لي أحدهم، أو ربّما يكتب

لي، «لقد فكّرتُ بك في الحال». سأشغلُ عقول الأطباء البياطرة بينما يجهزون على طيور الببغاء المستأنسة التي لا أمل في شفائها، وسيفكّرون بي عندما يحينُ وقتُ صعق طيور الدجاج الحبشي والأوز والدجاج، قبل ذبحها.

ذات يوم، التقطتُ حمامةً صغيرة جريحةً عثرتُ عليها في حديقة جدتي، وقد كنتُ وقتها في الحادية عشرة من عمري. كان جناحها مكسورًا، ولم نكن نعرفُ، مع اقتراب نهاية الإجازة، إن كانت ستتعافى من جراحها أم لا. لقد اعتنت جدتي بها في غيابي، وكانت ترسلُ لي أخبارها في رسائلها. بعد مرور زمنٍ طويلٍ، عثرتُ على واحدة من بطاقات جدتي البريدية. كان كلّ ما قرأتُ فيها هو التالي: «فخورة ببلوغك سنتك الحادية عشرة يا حفيدي. أرسلُ إليك قبلاتي الحارّة. ملحوظة: الحمامةُ بخير».

لقد رافقتني جملة «الحمامة بخير» طويلاً مثل رسالةٍ مشفّرة. وحتى إن غابت عنّي بعض التفاصيل، سيكونُ بوسعي تخيّلُ مدى فرحة الطفلِ الذي كنتهُ برسالةِ جدّته حين قرأها للمرّة الأولى في عيد ميلاده. والحقُّ أنّ ما ذيّلتهُ جدّتي في آخر البطاقة التي وجدتها، وهو ما رأيتُ فيه أثرًا مكتوبًا يعكسُ رقّتها، ما زال إلى اليوم يشعرني بالتأثر. فحتى لو سقطت الطيور بالمئات من حولي، أو استغلق عليّ فهم منطقها، فإنّ الثابت لديّ هو أنّي قادر على بعث الطمأنينة في روعي، ما أن أكرّرَ تلك الجملة النقيّة البسيطة، مثل جملةٍ تلقّن للمبتدئين في درس لغةٍ أجنبيّة، جملة: «الحمامةُ بخير، الحمامةُ بخير».

صحيحٌ أنّ الحمامةَ بخير، ولكن كان عليّ أن أعودَ إلى بطّاتي. ما هو مؤكدٌ أنّ صورة «جان بيار» كانت مذهلة من نواحٍ عدّة، لكنّي كنتُ أعرفُ أنّ إقناع طاقم السّفينةِ بالعودة إلى المنطقة، متعللا بتحقيقي، هو أمرٌ مستحيل. كانت فرصة معاينة الحادثة قد فاتتني وانتهى الأمر. بيد أنّ ذلك لم يمنعني من التساؤل: هل يجوزُ ربط موت البطات بحادثة سقوط الزرازير فوق «بونسكور»؟ هل سقطت ميتة من السّماء أم أنّها قتلت بعد سقوطها؟ هل لفظها النّهرُ بعد ساعات من الاحتضار المرير وسط الماء؟ هل كانت تعاني من وباءٍ فتاك، كالإنفلونزا الإسبانية أو الإيبولا أو كوليرا البطّ

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

أو لا أدري ماذا، أم أنها ماتت ميتةً طبيعية هادئة؟

حاولتُ تكبير الصورة، لكنها أعتمت. كلّما اتّسعت نقاط صورة البطّات، غامت التفاصيل. عندما أعدتُ الهاتف إلى «جان بيار»، طلب أن أعطيه رقمي، وأضاف مبتسماً: «يجب أن أكون قادرًا على الاتصال بك في حال جدّ جديد».

لقد صعدتُ إلى تلك السفينة لكي أرى ما حدث وأجمع الأدلّة وأتابع التحقيق اعتمادًا على ما توفّر لي من معطياتٍ، لكنّي انصرفتُ عن ذلك كلّه بشرب الجنّ والتشاجر مع الحصان الأبيض ومغازلة «كلاريس»، وهو ما جعلني أغضبُ من نفسي، غضبًا خالطهُ شيء من الحزن على البطّات الخمس التي فوّتتُ فرصة معاينتها. لقد ماتت عبثًا، يلفّها صمتُ الشاطئ المحاذي للمحطّة النوويّة. فكّرتُ في جمال «كلاريس» الشبيه باليورانيوم، وتخيّلتني أعودُ على عقبيّ إلى تلك المنطقة، ومن هناك أتصل بأبي وأترك لهُ رسالةً أخرى لا معنى لها، لكنّ إرهاقي غلبني.

أخرجني صوتُ «جان بيار» من شرودي وهو يقول:

-تبدو في حالٍ سيئة ومرهقًا. يجب أن تتناول شيئًا من الطّعام.

-لقد أمضيتُ يومين كاملين في المراقبة لكنّي لم أرَ شيئًا. لقد أصاب الإرهاقُ عينيّ.

أجبتهُ وأنا أضعُ في صحني بعض الجزر المبشور.

كنتُ بصدد الانتهاء من طبق سلطة الفاكهة عندما لاحظت عيناي، من الجانب الأيمن للسفينة، منظرًا طبيعيًا مألوفًا. لقد كنّا نبحرُ في تلك اللحظةِ بالقرب من بلدة «بونسكور». صعدتُ إلى «جسر الشمس»، تحت سماء شهر نوفمبر الرماديّة، لكي أتمكّن من مراقبة الضّفة. طالعتنا كاتدرائيّة السيّدة العذراء بـ «بونسكور» من أعلى الجرف، وأمامها النصب المخصّص لتخليد ذكرى «جان دارك»(51)، وهو نصبٌ هائلٌ يعلو قمّتهُ مجسّمٌ يظهرُ الملاك «ميكائيل» وهو يغرسُ رمحهُ في تنّين نهاية الزّمان.

في المساحة الفاصل بين الكنيسة والسّفينة، رأيتُ أعدادًا قليلة من النّوارس تحلّقُ

دون أن ترهق نفسها بالتفكير في وجود الشيطان، وبوق الملاك السابع وخلاص الأرواح. فجأة، دبّت الحركةُ في النهر، وقد كان هادئا إلى حدود تلك اللحظة، مع اقترابنا من مشارف مدينة «روان». كانت السفنُ المعدّةُ لنقل النفط والرّمال والفحم والإسمنت والقمامة تذرعُ النهر، جيئة وذهابًا، قبل أن تلتقي بالقرب من الضفّة، ما جعلَ سفينتنا المخصّصةِ للعجائز تبدو أمامها تافهةً تمامًا.

كنتُ أعي بأنّي أقتربُ من المكانِ الذي سيقدّمُ لي، بلا شك، بعض الإجاباتِ عن أسئلتي. كانت أولى أمطار الطيور النافقة قد حدثت وراء جرفِ «بونسكور»، والثانية حدثت أبعد قليلاً في مدينة «بلان فيل كروفون» التي تقعُ بعد مدينة «روان». فكّرتُ أنّ القيام برحلةٍ بين «بونسكور» و«بلان فيل كروفون»، ذهابًا وإيابًا، قد توضّح لي بعض ما استشكل عليّ، وربّما تمكّنتُ كذلك من الحصول على التفاصيل من فم أبي مباشرة. في تلك اللحظة، شعرتُ بأنّي شواطئ مسقط رأسي أعادت إليّ شجاعتي.

لم يكنْ الإبحارُ في نهر السين شاقًا كما يبدو عليه الأمر. كنتُ قد تخيّلتني سأعبرُ نهرًا وعرًا، تنتشرُ فيه القناطر الخطرة، وترمى فيه التمائمُ كما يحدثُ في خليج «بايو»، نهرًا لا يختلفُ عبورهُ البتّة عن اجتياز نهر «أخيرون»(50) المرير. في واقع الأمر، شعرتُ بأنّي عالقٌ، على الغفلة منّي، داخل ما يشبهُ الانجراف الموحلِ ما جعلني عاجزًا عن تبيّنِ أيّ شيء. صحيحٌ أنّي سوّدتُ دفتر طيوري النافقة ببعض الملاحظات، وفتحتُ عينيّ جيّدًا، ولكن ماذا رأيتُ حقًا؟ طائر نورس تخيّلتهُ يومئ إليّ برأسهُ متطلّعا إليّ؟ خمس بطّات نافقة قرب محطّة توليد الكهرباء؟ حمام أمريكي مقاتل؟ آلاف من دمى البط البلاستيكية التائهة في المحيط الهادئ؟ عليّ أن أقرّ بأنّي لم أتقدّم في تحقيقي. ولحسن الحظّ، ما زالت الفرصةُ سانحةً أمامي لاكتشافِ الأمر على الأرض، هنالك على خشبةِ مسرحِ الأحداث.

عندما راحت السّفينة تقتربُ من عاصمة إقليم «النورماندي»، صار بوسعي أن أتخيّل نفسي بطلاً رومانسيًا عائدًا إلى الديار لكي يتعافى من أوهامه، وكان كلّ ما عليّ فعلهُ في تلك اللحظة، بينما أقفُ على جسر الشمس والرّيحُ تعبثُ بشعري، هو الصراخُ في وجهِ اليابسة التي شهدت سقوط الموتِ من السّماء قائلاً: «لقد حانت

المواجهة بيننا يا «بونسكور». لقد حانت المواجهة بيننا يا «روان». لقد حانت المواجهة بيننا يا «بابيلون»(49)».

---

(53)الورشان المألوف هو نوع من الطيور ينتشر في الأماكن الزراعية والحدائق، والواحات، والمناطق شبه الصحراوية وبالقرب من القرى والمسطحات الزراعية، والسدود. يسهل التعرف على هذا الطائر من لونه الرملي وشبه الطوق الأسود على رقبته.

(52)طائر ينتمي إلى فصيلة دجاج الأرض.

(51)جان دارك الملقبة بعذراء أورليان ولدت لعائلة من الفلاحين في الوسط الشرقي من فرنسا عام 1412، وتوفيت في 30 مايو 1431. وُعدّ بطلة قومية فرنسية وقديسة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

(50)أشيرون في الأساطير الإغريقية هو اسم نهر من الأنهار الخمسة (الأغلب أنه بحيرة) يجري في مملكة هاديس (العالم السفلي). الاسم يعني "نهر العويل" ويستخدم مجازياً للدلالة على مملكة هاديس نفسها.

(49)بابيلون أو بابل هي مدينة عراقية كانت عاصمة البابليين أيام حكم حمورابي. يعتبرها الكتاب المقدس مدينة ملعونة. وهذا ما يفسّر استخدامها من قبل الكاتب في هذا السياق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصلنا إلى «روان» في وقت مبكر من الظهيرة. كنتُ وقتها منهمكا في تذويب ذكرياتي، على هيئة قطعٍ سكّرٍ، داخل فنجان القهوة الزابع. كانت ذكرياتٌ لذيذة لذة مذاقِ لحم البطّ الذي أكلتهُ طفلاً. وكعادتها، لبت «سوزان» نداء الواجب وأخذت الكلمة لكي تقدّم برنامجَ جولتنا على البرّ. كان البرنامجُ مختلفًا عن محطّات التوقف السّابقة، إذ بدا دسمًا للغاية و«سوزان» تفضّلهُ لنا. قالت إنّ المحاضرَ- ذلك المتحمّس الذي رأيتهُ في أوّل ليلةٍ لي على متن السّفينة- سيتولّى قيادة الجولة التي ستشملُ زيارة متحف الفنون الجميلة، والتجوّل داخل المركز التاريخي، والتعرّف إلى منزلٍ خشبيّ تقليديّ والقيام بجولةٍ كاملة داخل الكاتدرائية.

كانت السّفينة قد رست على الضفّة اليمنى، غير بعيدٍ عن الرّصيفِ، حيثُ دخنتُ أوّل سيجارة لي كمراهقٍ، محاولاً، بين الفينة والأخرى، مغازلة الفتياتِ على نحوٍ أخرق. حالما استرجعت ذاكرتي ذلك المشهد، شعرتُ بنفخةٍ من تبغ قديمٍ تستولي على جسدي، وأحسستُ بشيء ما يضغطُ على جانبي الأيمن، وآلامٍ تتجمّعُ تحت رئتي. في تلك اللحظة، خرجت «كلاريس» من قمرة القيادة متّجهةً نحو المعبر، وانطلقت المراسمُ. ففي كلّ محطة ننزلُ فيها إلى البرّ، كأن أفراد الطاقم يقفون عند المخرج ويشكّلونَ حرسَ شرفٍ للركابِ النازلين، وهو ما كنتُ أرى فيه نوعًا من الهراءِ الذي بدا أنّه يناسبُ الجميع، طاقمًا وركّابًا.

اتخذ أفرادُ الطاقم أماكنهم قرب المخرجِ، بحسب الترتيب البروتوكولي، نادل الحانة أوّلا، تليهِ نادلتا المطعم ثمّ «سوزان» وبعدها «كلاريس» وأخيرًا القبطان، عاقدين أيديهم خلف ظهورهم ومعتمرين قبّعاتهم، إكرامًا لمستعمرة مشكلة من كبار السنّ، كانت تتهيّأ للالتحاق بقائد الجولة السياحيّة الذي كان يرفع رايةً زرقاء وحمراء، علامةً على ضرورة التجمّع.

انطلقت المجموعة بخطواتٍ وئيدة خلفَ راية ملوّنة، كانت أقربَ إلى شعار نبالةٍ(57) قروسطي، مخطط باللونين الأحمر والأزرق السماويّ، كتب فوقهُ «أميرة السّين». في طريقي نحو المعبر، أدرتُ رأسي نحو «كلاريس» وأردتُ أن أتذاكى، لكنّ الكلام تاه على فمي، كحالي عندما التقيتها أوّل مرّة داخل قمرة القيادة، حتّى بدا

الأمرُ كأنّ كلّ ما أحفظهُ من كلماتٍ طارَ فجأة ليحلّ محلّهُ شعورٌ عميقٌ بالإخفاق.

مشيتُ وراء المجموعةِ بضعة أمتار، ثمّ استدرتُ مبتعدًا عنهم، لأنّي لم أكن بحاجةٍ إلى دليلٍ على تلك الطريق النورمانديّة التي أعرفها جيّدًا.

سرتُ في شارع «راسين» الذي يؤدّي إلى الكاتدرائية. الحقُّ أقولُ، لم تكن زيارة مكان العبادة تعنيني بقدر ما كانت نفسي تهفو إلى رؤية «مادلين». كنتُ قد فكّرتُ فيها أكثر من مرّة خلال الأيّام الفارطة، بلا سببٍ واضحٍ أو جليّ. «مادلين» هي مجنونةُ كاتدرائية السيّدة العذراء، وواحدة من وجوهها المعروفة. لطالما شوهدت وهي تتجشّأ داخل أروقة الكاتدرائية، أو تهاجم الشمامسة ومزوّدات الكنيسة بالكراسي(56) والقساوسة وفتيان المذبح. عندما كنتُ أعيشُ في «روان»، كنتُ أحبُّ لقاءها وأخشاهُ في آنٍ. لعلّ واحدة من مزايا الكنائس العظيمة هي أنّها ما تزالُ ترحّبُ بالمهمّشين وأنصاف المجانين والمنبوذين، وهو ما لا يمكنُ أن يراهُ المرءُ كثيرًا في أيّ مكانٍ آخر.

تذكّرتُ في تلك اللحظة «جوليان» الذي كنتُ أراهُ أيّام الآحاد في كنيسة «لوغو» بـ «فيناكو»، عندما كنتُ أمضي إجازة الصيف في «كورسيكا». كان «جوليان» يقاربني سنًا ومصابًا بمتلازمة داون. كان يمضي القدّاس بأكملهِ وهو واقفٌ وسط الممرّ الرئيسي، يغنّي بصوتٍ مرتفعٍ أو يحرّكُ ذراعيه بإشارات مبهمة قبل أن يسارعَ إلى المذبح، لحظةَ يقرّبُ القسُّ يدهُ من كأس المناولة، ليكونَ أوّل من يتناول القربان المقدّس(55). صحيحٌ أنّهُ كان يخيفني قليلاً لكنّي أحببتهُ، لأنّ وجودهُ كانَ يضفي حركيّة على القدّاس الرّتيب، وهو ما كانَ يوفّر لي شيئًا من الإلهاء المرحِ خلال تلك الدقائق الطويلة المملّة. ألا ينبغي علينا جميعًا أن نعهد للمجانين بمهمّة رعاية العقيدة في فرنسا، مملكتنا الجميلة؟ فكّرتُ ساخرًا وعدتُ إلى الحاضر، وإلى روان، حيثُ عهد دور المجنونِ إلى «مادلين»، أو بالأحرى السيّدة «مادلين دوفاي». كانت تحبُّ أن تقدّم نفسها لكلّ من يلتقيها على هذا النحو: «أنا ممرّضة من الدرجةِ الأولى»، ومنعًا لأيّ لبس، كانت تضيف: «ممرّضة في عيادة الولادات لا في مستشفى الأمراض النفسيّة». ولقد بقيتُ لسنواتٍ أتساءلُ إن كانت «مادلين» هي من قامَ قامت بتوليد

أمي في مستشفى «شارل نيكول»، حيث أبصرتُ النور.

عندما وصلتُ إلى الكاتدرائية، سمعتها تشتمُ الكهنة الذين اضطهدوها طوال سنواتٍ، الأب «جورد» والأب «أركيت» والأب «وينتر» وآباءٌ أخر كانت أسماؤهم تتدافعُ على فمها.

بشعرها الرماذي المعقود إلى الخلفِ على هيئة كعكعة، وحبّة الثالول البارزة من ذقنها، وأنفها المدبب الذي تعلوهُ نظارة ذات عدستين صغيرتين دائريتين، عاينتُ كيف كانت تذرعُ صحن الكاتدرائية مثل ساحرات القصص، أو مثل «بابا ياغا»(54) قزمة قدمت من غابات البتولا الروسيّة، مخبِّئةً العقاقير والجرعات السحريّة في جرابها الكبير.

في واقع الأمر، كانت «مادلين» تبحثُ عن آذان تقبلُ الاستماع إلى هذيانها المتشنج، وربّما عن أذنيّ أنا تحديدًا. عندما تناهى إليّ صوتها، شعرتُ بالذهول، إذ بدا لي كأنّهُ قادمٌ من زمنٍ آخر، زمن كان فيهُ المجانين يتحدّثون فرنسيّةً مهذّبة ويسيئون معاملة الجميع باستثناء أقربائهم. هل يمكن لـ «مادلين» أن ترشدني في مهمّتي؟ هكذا تساءلت. ففي عالمٍ، فقد فيه الواقعُ صوابهُ، لم يكن من غير المنطقيّ أن يلجأ المرء إلى أولئك الذين فقدوا صوابهم منذ زمنٍ طويلٍ. عثرتُ عليها قربَ مصلّى «سانت أغاثا» عند الممرّ، حيثُ تُعرضُ لوحاتٌ تنتمي إلى «الفنّ الكاثوليكي المعاصر» أو شيء من هذا القبيل. كانت «مادلين» هناك، تتحرّكُ على ساقيها القصيرتين، منتقلةً من لوحةٍ إلى أخرى، رافعةً في كلّ مرة يدها اليسرى، وكانت الوحيدة التي ألبستها قفّازًا، لتشيرَ إلى واحدةٍ منها. رحتُ أنصتُ إلى صوتها المرتابِ يتردّدُ صداهُ تحت الأقبية الحجريّة العالية. فجأة، غادرت مكانها وذهبت إلى مصلّى آخر، فتبعتها. لم تكن تترك لأيّ أحدٍ فرصة الردّ على أسئلتها التي تملأ خطابها الذّهانيّ. وكمن تحلّى بالصبرِ في انتظار أن تأذنَ له عرّافةٌ بالمثول بين يديها، رحتُ أتحيّنُ الفرصة لمناسبة لأطرح عليها سؤالي.

انتهزتُ اللحظة التي لاذت فيها بالصمت وقلت:

-لقد أردتُ أن أسألك يا «مادلين»....

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنها استأنفت خطابها الذهاني، فتحدثت عن الكهنة، وكررت كلمتي «تحايل» و«شهداء»، قبل أن تنخرط في حوارٍ معقدٍ بدا أنها تجريهِ مع مخاطبين خياليين. كانت تنظرُ إليّ، بينما تلقي خطابها، ثمّ تشيحُ بوجهها بعيدًا وكأني اختفيتُ تمامًا من المصلّى، وهكذا دواليك. لقد بدا لي أنّ الفعاملَ في معادلة وجودي داخل المصلّى، ذو طبيعةٍ متغيّرة. ومما لا شك فيه، أنها كانت تراني واحدًا من أشباحها الخياليّة، يتحدّدُ حضورهُ أو غيابهُ بما يمليهِ عليها عقلها المعطوب. حينَ عادت إلى صمتها، انتهزتُ مجدّدًا الفرصة، وتمكنتُ من طرح سؤالي عليها:

-هل سمعت عن سقوط طيور نافقة يا «مادلين»؟

بدوتُ كالمجنون وأنا أكرّرُ عليها سؤالي خمس مرّات، ذلك أنّها كانت تعودُ مع كلّ سؤال إلى نوبة هذيانها. كانت محادثتنا عبارة عن دائرة مفرغة، فما أن أقولَ لها «هل سمعت عن سقوط...»، حتّى تعودُ إلى خطابها الذهاني، وهكذا دواليك، إلى أن توقّفت فجأة، وكأنّها سمعتني أخيرًا، وراحت تحدّق في وجهي قبل أن ترفع عقيرتها بالصراخ:

-ثقة تحرّكات! ثقة تحرّكات! الأسقف يعرفُ بالأمر. أقولُ لك إنّه يعرفُ بالأمر.

كنتُ أعرفُ أنّ في عقل «مادلين» ليس ثقة مكانٍ لغير مؤامرات الكهنة، ومآسي فتيان المذبح ومكائد الأبرشيّة. فما الذي دفعني إلى محادثتها عن أمرٍ حدث في العالم الخارجيّ؟ كان عالمها يختزلُ في الكاتدرائية التي كانت واسعة من حسن حظّها. كان كلّ ما تحتاجهُ هناك: صحنٌ هائل، ممرّ بطول خمسين مترًا، أسقف، سبعة قساوسة ومكائد بالجملة تكفيها لما تبقّى من حياتها. لقد أمضت عشرين عامًا بين جنبات الكاتدرائية، تتطفّلُ على الاجتماعات الكنيسية وتفسدُ لقاءات تقديم الصدقات وتمارين الغناء. لعلّ ذلك هو ما كان يبقيها على قيد الحياةِ بالنهاية. فكّرتُ ساخرًا. كنتُ أنصتُ إلى سيول هذيانها، حين استوقفني فجأة ما قالتهُ وسط ثرثرتها:

-المشكلة هي أنّ الطيورَ تتغوّطُ في كلّ مكان ووسخت الحجارة...أوه، لا... لقد وسخت كلّ شيء باستثناء بذلات القدّاس الجميلة التي يرتديها الأب «بورغ»...حتّى

إنهم اضطروا إلى...كما ترى.... إلى جلب متخصص...من المتحف...جلبوا متخصصا... لكي يبعدوا الطيور...أجل، أجل، كانوا يكررون إنها دنسة...إنها مؤامرة أخرى من الأب «وينتر». لكني لستُ خائفة...لن أتركهم يعذبونني...!

توقفت عن الكلامِ برهةً من الوقت، وكأنها تمنحني فرصةَ فك شفرةِ كلماتها الملغزة. لقد وقعتُ على شيء ما، حدّثتُ نفسي. لا يمكنُ أن يكونَ الأمرُ مصادفةً. لقد تحدثت العرّافةُ «مادلين»، وما عليّ سوى أن أدفعها إلى الكلام. ولقد حاولتُ بالفعل، أردتُ أن أسألها على من يعود ضمير الغائب الجمع، وعن إبعاد الطيور والتعذيب واختصاصِ ذلك المختصّ، والأب «وينتر»، وعن ذلك الشتاء المقيمِ في قلبهِ، لكنها بدلاً من أن تجيب أسئلتي، دارت على عقبيها، وتوجّهت نحو المذبح، حيثُ استأنفت خطابها الذّهاني، موجّهةً سهام نقدها في تلك المرّة إلى أفراد الجوقة. تخلّيتُ عن فكرة محادثتها، وقد أسقط في يدي. كان كلّ ما عليّ فعلهُ في تلك اللحظةِ هو محاولة تأويلِ كلماتها الشّحيحةِ وكسر شفرةِ جملها المتناقضة. فكّرتُ أنيّ لو قمتُ بربط مختلف عناصر حديثها، لخلصتُ إلى أنّها كانت تتحدّثُ عن محاولة لطرد الطيور المتّهمة بإغراق الكنيسة بفواضلها. وما هو مؤكدٌ أن للأب «بورغ» والأب «وينتر» وذلك الشخص الثالث من المتحف الذي لا أعرفُ اسمه، علاقةٌ ما بكلّ ذلك، باعتبار توزّطهم في أمر ما زلتُ أجهلهُ كمختصّين في فضلات الطيور أو الزرازير أو الكاتدرائيات أو اللاهوت أو لا أدري ماذا. الحقّ إن تلك الرّغبةِ في التخلّص منِ مستعمرات الطيور ذكّرتني بممارساتِ «الفزّاعات». كنتُ قد اكتشفتُ تلك الكلمة أثناء مشاهدتي لتحقيقٍ تلفزيّ مثيرٍ إلى حدّ الغموض، تعرّض إلى مهامّ الرجّال المكلّفين داخل المطارات بمطاردة الحيوانات، بشتى الوسائل، تحسّبا من احتمال تسلّلها إلى محرّكات الطائرات. كانوا يعتمرون القبّعات ويتحوّزون على كلّ أصنافِ الفخاخ ويدّعونَ أنّ طيور الإوز واللقلق قادرة على إسقاط الطائرات الحربيّة وحتّى طائرات «البوينغ» العملاقة، عندما تدخلُ إلى محرّكاتها. وبحسب التقرير، كان الأمرُ يستدعي الكثير من الحذر، ذلك أنّ وجود مقلاع واحد داخل الطائرة، يجعلُ من «داوود» الطائر قادرًا على إسقاط جناحي «جالوت» المصنوعين من الكربون. هل تدرّب الأب «وينتر» على طرق الفزّاعات؟ هل كانت الكاتدرائية مملوءةً بالفخاخ؟ كان من الممكنِ

بالنسبة إليّ أن أفسّر كلّ ذلك معتمدًا على آليات علم التحليل النفسي، غير أنّي شعرتُ، للمرّة الأولى منذ أيّامٍ، بأنّ هنالك شيئًا ما واضحٌ شقّ حجب سماء تحقيقي المدلهمّةِ بالطيور النافقة. أعرفُ أنّي أمضيتُ وقتي في الاستماع إلى خطابٍ طويلٍ، جلُّ عناصرهِ تتحدّى المنطق. ومع ذلك، سمعتُ صوتًا (هل أصبتُ أنا الآخر بعدوى الانحرافِ الفصامي؟) يحرّضني على التقدّم، صوتٌ يقولُ لي إنّي أمسكتُ بطرف الخيطِ، حتّى إنّي سارعتُ، في خيالي، بتحويل ذلك الخيط إلى رسمةٍ بقلمِ الرّصاص، هي عبارةٌ عن لعبة «البطّة البريّة».

وإذ شعرتُ بأنّي قد أكونُ تقدّمتُ أشواطًا في تلك اللعبة، بعد زيارتي للكاتدرائيّة، أرجأتُ الذهابَ إلى المتحفَ، كيلا أجد نفسي في طريقٍ مسدودة، وقرّرتُ أن أدور على عقبيّ وأذهبَ إلى بيتِ والدي في «بونسكور»، هنالك حيثُ بدأ كلّ شيء.

---

(57)شعار النبالة هو رمز يستخدم لتمثيل الأفراد والجماعات والبلدان والمدن والأسر والكنائس والجامعات. وكان يستخدم في القدم على درع الفارس.

(56)سيدات يقمن بتوفير الكراسي للكنيسة أيام الآحاد وفي المناسبات الدينية الكبرى مقابل مبلغ مالي.

(55)الأفخارستيا أو سر التناول أو القربان المقدس هي طقس يحتفلُ به الكنائس. ويتمثل في تناول قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز (تعرف بالبرشان) التي تمثل جسد المسيح وأحياناً تذوق أو غمس قطعة الخبز في القليل من الخمر الذي يمثل دم يسوع.

(54)كائنٌ خرافي من الفُلكلور الشلافي. غالبا ما تصورها القصص كعجوزٍ شمطاء تُحلّق فوق هاونٍ عملاقٍ، وتخطف (وربما تأكل) الأطفال الصغار وتعيش في كوخٍ يقف على أرجل دجاج.

أنزلتني الحافلة في الشارع الرئيسي المسقى «طريق باريس»، أمام المركز التجاري «سوبر أو»(60). كانت خمس سنواتٍ قد انقضت على آخر زيارةٍ لي لـ «بونسكور». وكما هو الحال في ضواحي بلدات المقاطعات، سيكونُ من اليسير عليّ أن أقولَ إن البلدة لم يتغيّرْ فيها أيّ شيءٍ منذ طفولتي، وما هو مؤكّدٌ أنّه لن يتغيّر فيها أيّ قطّ. دلفتُ إلى شارع «أشجار الحور العالية»، لكنّي لم أجد أشجار حورٍ هناك، أكانت عالية أم قصيرة. عندما وصلتُ إلى المنزل رقم 47، حيثُ يقطنُ أبي، ألفيتُه مغلقًا. كانت مصاريع النوافذ مغلقة، ما عدا تلك الموجودة في الطابق الثاني، حيثُ يوجدُ مكتبه، والأنوارُ مطفأة والحديقة على الحال نفسها من الإهمال الذي تركتهُ عليها في آخر زيارة لي.

ورغم ذلك، رحتُ أقرع الجرسَ، وأدقّ الباب، مغيّرا الإيقاع في كلّ مرّة، من الدقّ إلى الهزّ العنيف. فعلتُ ذلك لكي أتأكّد من أنّ أبي لم يكن يستجيبُ بالفعل لأيّة وسيلة تنبيه، سواءً كانت جرس باب، أو رنين هاتف أو جهاز إنذار أو صيحة حرب. بعد ذلك، دخلتُ عبر الحديقة، وقمتُ بجولةٍ حول المنزل، ثمّ عدتُ أدراجي نحو البوابة الرئيسية.

-لقد غادر المنزل.

تناهى إليّ صوتُ جارتنا وقد كانت فتحت لحظتها نافذة منزلها.

-ماذا تريدُ منهُ؟

عندما أدرتُ رأسي ناحيتها، ندّت منها آهةٌ قصيرة قبل أن تردف قائلةً:

-إنّهُ أنت يا صغيري. لم أتعرّف عليك. قل لي، لقد تغيّرت كثيرًا. لا بدّ أنّها اللحية والنظارات...أوه...لقد مرّ وقتٌ طويلٌ منذ رأيناك آخر مرّة.

أجبرتُ نفسي على الابتسام. لم أجد الجرأة على التظاهر بأنّي سعيدٌ للقائها. سألتها عن سرّ غياب والدي. فأخبرتني السيّدة «رون» بأنّه جاء لرؤيتها قبل عشرة أيّام. قال لها إنّهُ سيذهبُ في نزهةٍ على متن قاربِهِ، ثمّ استقلّ سيارتهُ متّجها إلى ميناء «هونفلير». وأضافت أنّهُ ترك لها مفاتيح المنزل تحسّبا لأيّ طارئ. عرضت عليّ أن

تمدّني بالمفاتيح، لكنّي لم أدر ما الذي سأفعلهُ بها. الحقُّ أنّي كنتُ أفضّل البقاء داخل مقصورتي، على متن «أميرة السين»، على الإقامةِ داخل هذا المركب السكنيّ القديم.

عندما رفعتُ عينيّ متأمّلاً البيت، خالجني شعورٌ بالحزن، واستولت عليّ دوّامةُ السُخطِ مجدّدًا. كان كلّ ما نجح والدي في أن ينقلهُ لي هو أن يجعلني أرى العالم من خلف سياجٍ. أجل، ذلك ما نجح في تقديمهِ لي، نموذج حياةٍ قائمٍ على سخطٍ مستديمٍ، نموذج يبدي بوضوحٍ سخطهُ على سخطهِ.

فاجأني رحيلُ أبي الصّامت. كان قد اعتادَ على تركِ ملاحظةٌ ما وراءه أو رسالة عندما كان يخرجُ على متن قاربه البلاستيكي، وهو قاربٌ كان قد اقتناه بعد إحالته على التقاعد. قلّبتُ الأمر في رأسي. هاتفهُ المحمول كان ما يزالُ يرنّ. أضف إلى ذلك، رحيلهُ قبل عشرة أيّام، وهو ما يتصادفُ مع تاريخ 27 أكتوبر (سجّلتُ التاريخ داخل رأسي). كان ذلك التاريخُ يتوافق مع اليوم الذي سبق سقوط أولى أمطار الطيور النافقة. (سقطت الأمطار فوق «بونسكور» يوم 28 أكتوبر، حوالي السّاعة الرّابعة إلاّ الرّبع، وفقا لمقال صحيفة «باريس نورماندي»). لا بدّ أن أبي كان يبحرُ في تلك اللحظة في قناة «المانش»(59) على متن قاربه «فونيكس 5». فكّرتُ في الأمر على ذلك النحو، بيد أنّي وجدتُ صعوبةً بالغة في إيجاد خيطٍ منطقيّ يربطُ بين كلّ تلك الأحداث.

سألتُ الجارة عن أمطار الطيور. كانت قد سمعت عنها بالطبع، لكنّها لم تمنحني تفاصيل أكثر ممّا قيل في الصحف، بل وبدا أنّ المسألة برمّتها لا تعنيها كثيرًا. قالت إنّ الأمطار حدثت قرب الغابة الحضريّة، هناك في الأعلى، في الحقل الواقع في محيط منزل «كلود مونيه».

كنتُ أعرفُ ذلك الحقل، إذ كان يبعد عن منزل «مونيه» بحوالي ثلاثمائة متر. حسنًا، حدّثتُ نفسي، لقد حانَ وقت دخول المنطقة الانطباعيّة(58).

---

(60)اسم لسلسلة من المراكز التجارية الفرنسية الكبرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(59)قناة المانش أو المانش عند الفرنسيين والقناة الإنجليزية عند الإنجليز هو جزء من المحيط الأطلسي الذي يفصل بريطانيا عن فرنسا ويربط بحر الشمال بالمحيط الأطلسي.

(58)تلاعب بالألفاظ من الكاتب، على اعتبار أن الحقل يقع في محيط منزل رائد المدرسة الانطباعية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان يجدرُ بي توقُّع ذلك: لم أعثر على دليل واحد داخل الحقل. كلّ ما وجدتهُ هو أرضُ بورٌ محاطةٍ بسلسلة من البيوت الصغيرة الواطئة وجميعها مسقفة بالقرميد نفسه ذي اللون البرتقالي. كانت الطيور قد سقطت بالفعل في ذلك الحقل. فماذا كنتُ أتوقّع أن أرى هناك؟ منظرًا طبيعيًا مقتطعًا من فيلم بالأبيض والأسود، وأشجارًا شبحيّة متشابكة الأغصان ورائحة لاذعة هي رائحة نهاية العالم؟ كان منظرُ المكان بريئًا، وأقربُ ما يكونُ إلى بلدة «خليج بوديغا» الصغيرة التي كانت مسرح أحداث فيلم «الطيور» لهيتشكوك. وفكّرتُ ساخرًا أنّه لم يكن ينقصني في تلك اللحظةِ سوى العثورِ على شبيهةِ «تيبي هدرين» في «بونسكور»، والاختباء إلى جانبها، تحت سقف منزلها البرتقاليّ، تحسّبًا من هجمات الغربانِ القادمة.

ولو لخّصتُ الأمرَ لقلتُ إنّي عثرتُ على حقلٍ ومنازل صغيرة واطئة و...لا شيء آخر. أخرجتُ دفترَ الطيور النافقة ورسمتُ حقلاً وبيوتًا و...لا شيء آخر. حالما انتهيتُ، طفقتُ أقرعُ أجراس البيوتِ أملاً في الحصولِ على شهاداتٍ عن الواقعة. كنتُ أشعرُ بأنّي تلبّستُ شخصيةَ صحافيّ محليّ مندفعٍ، يعملُ كمراسل خاصّ لصحيفة «ليفاي نورماند» أو كاتب عمود في صحيفة «روان ديموكرات» أو مراسلٍ حربيّ يعملُ لفائدة «كورييه كوشوا»(62)، وقد ذهب في ظنّي أنّي سأتواصلُ بسهولةٍ مع السكان المحليين، بلا وجلٍ، أو سترة مضادّة للرّصاصِ سوى دفتري المكون من الصفحات الستّ والتسعين، من ماركة «كلافونتين». غير أنّ روح «ألبرت لندرس»(61) التي استحوذت عليّ لم تتوقّعْ ما ستجدهُ وهي تقرعُ أجراس البيوت، ففي ظهيرة يوم الثلاثاء ذاك، لم يكن ثمّة نسمةٌ واحدة في محيط منزل «كلود مونيه»، ولا حتّى خيال قطّ أو واحدٍ من هواةِ الرّسم الذين يترددون عادة على منزل الرسّام.

كان كلّ ما تحصّلتُ عليه هو التالي: سيدة عجوز طفقت تحدّق في وجهي لعدّة دقائق من خلف ستائر نافذتها، دون أن تفتح لي، وأخرى، بدا لي أنّها خادمة، قالت لي، من خلال جهاز الاتصال الداخليّ، إنها لا تعرف شيئا عن الموضوع. كدتُ أيأس لولا أن خرج رجل من أحد المنازل في تلك اللحظة لجزّ عشبِ حديقتهِ، فرأيتُ فيه

منقذ تحقيقي، الذي كنت أجريه في منطقة أعالي البحار، من الفشل. أخبرني أنه عثر على ستة طيورٍ داخل حديقتهِ، إثر عودته من العمل في وقتٍ متأخرٍ من ذلك اليوم.

وأضاف:

-كان المشهد غريبًا. ومع ذلك، لم أشعر بالخوفِ عندما اقتربتُ من المكان. رحتُ أتأمّل تلك الطيور النافقة المنتشرة حول بيتي وبيوت الجيران والحقّ إنّي ألفيتها جميلة. كان الأمرُ برمّته مثلَ لوحةٍ، أقصدُ مثل لوحةِ صيدٍ مشوّشة. لكنّ المشهد كان جميلاً بحقّ. ما أزعجني هو الرّائحة. لا يمكنك أن تتخيّل مدى كراهة تلك الرّائحة المنبعثة من تلك الوحوش الصغيرة، حتّى إنّها كانت تدلفُ إلى الحلق مباشرةً. كنتُ أضع يدي على أنفي بينما أعاين المشهد ورأيتُ النّاس يتجوّلون في المكانِ ويلتقطون الصور ويخبرون بعضهم بقصص ما شاهدوه أو سمعوه. سمعتُ أنّ طائرًا سقط على رأس طفلٍ بينما كان يلعبُ بالأرجوحة داخل حديقة منزله، أقصد تلك الحديقة هناك. أعتقدُ أنّ الأهالي شعروا بالخوفِ حقًا، لا سيّما أولئك الذين كانوا داخل منازلهم لحظة سقوط الطيور، إذ أحدث اصطدامها بالأسطح جلبة كبيرة، استمرّت لنحو خمس دقائق، فضلاً عن تحطيم قرميد العديد من المنازل. يجب أن تفهم أنّ سقوط أمطارٍ من الطيور ليس بالأمر الشائع في هذه النواحي، حتّى إنّ بعضنا فكّر بأنّ السّماء كانت توشكُ على السقوطِ فوق رؤوسنا، بلا حولٍ منّا أو قوّة. بعد ذلك، قدم العمدة، بادي التأثّر، وصافحنا جميعًا. بعدهُ، قدم رجال الشرطة، والحقّ إنّي لا أدري سبب مجيئهم هم بالتحديد، ثمّ الأطباء البيطريون بمعاطفهم البيضاء. كانوا قلقين ولم يصافحونا. لقد بدا الأمرُ كأنّ المنطقة شهدت انفجارًا نوويًا. كانوا مضحكين وهم يهرعون إلى المكان. ومنذ ذلك الوقت، حاولتُ تسقّط الأخبار من وسائل الإعلام وخلافها، لكنّها لم تخبرنا بأيّ شيء، كأنّ المنطقة لم تشهد تلك الحادثة قط. لقد تكتّموا عن الأمر كأنّ سقوط مئات طيور الزرزور، لحوالي خمس دقائق، أمرٌ عاديّ وطبيعي. لنفترض مثلاً أنّ مائة شخص قاموا بالصراخ فجأة في الشارع، هل كنت ستعدّهُ أمرًا طبيعيا؟ لقد سقطت طيور أخرى في «بلان فيل»، وأيضا في «باردو فيل»، كما سمعت. كانّ الأمرُ يتكرّر في أكثر من موضعٍ. يجب ألا تنسى كذلك أنّ عددًا من الأهالي كانوا ينتظرون أن يقع تعويضهم عمّا لحق بمنازلهم

من خسائر. لكنّ شركات التأمين رفضت الاستماع إلى شكاويهم. بالنهاية، ما الذي كانوا سيضعونهُ على الورقِ كمسببٍ للتعويضِ: حادث منزليٍ؟ كارثة طبيعية؟ سقوط أشياء؟ هجوم حيوانات؟ لقد بدا الأمرُ كأنّ هذه الطيور تحطّمت داخل فراغٍ قانونيٍ، ولن يفاجئني البتّة إن سارعت شركات التأمين إلى الاستفادة من هذه الوضعيّة. في ما يخصّني، لم يتضرّر منزلي، فباستثناء سقوط قطعةٍ من كوخ الحديقة، لم يحدث ما يثيرُ الاهتمام.

شاركتهُ دهشتهُ بخصوص قصّة شحّ المعلومات. فسألني في أيّ صحيفةٍ أعمل. أخبرته أني صحافي أشتغلُ بالقطعة، ولا أعملُ في صحيفةٍ بعينها. وأضفتُ أني أعيشُ بالجوار، وأنّ لوالدي منزلًا في «بونسكور». الحقّ أني جبنتُ أن أشهر في وجه ذلك المواطن الصالح، سترتي المضادّة للرصاص، أقصدُ دفتري، حتى لا يسخرَ مما دوّنتهُ فوقه. لم أخبره أنّ احتمالات عثوري على صحيفة تنشرُ تحقيقي أو بالأحرى، تمكنّي من الوصول إلى معطياتٍ جديرة بالنشر، تبدو جدّ ضئيلة. فإن كانت الصحافة لا ترغبُ في الخوض في الموضوع، والكلّ يغلقُ أذنيه، فحتما سينتهي الأمرُ بي إلى الاحتفاظ بكلّ ذلك داخل دفترٍ، سرعان ما سيجدُ مكانهُ إلى جانب بقيّة الدفاتر داخل مكتبتي.

ما كان يعنيني حقًا هو ما كنتُ أجدهُ من صعوبةٍ بالغة في إعادة ترتيب مجموعةٍ أوراق اللعب المكوّنة من سبع عائلاتٍ هي عبارة عن أسراب طيورٍ تبشّرُ بنهاية العالم. كانت علبةُ الأوراق في حالٍ كبيرة من الفوضى وتنقصها ورقةُ «جوكر»، لو عثرتُ عليها لكنتُ وضعتها في أعلى قصر أوراق اللّعب الذي يشارفُ على الانهيار.

أخرجني المواطنُ من شرودي، مستأنفا حديثهُ:

-في واقع الأمر، كلُّ ما أعرفهُ هو أنّ أولئك الرّجال، أقصدُ الأطباء البيطريين والعلماء، وما إلى ذلك، منهمكونَ في إجراء اختباراتٍ بفضل ما رفعوهُ من عيّناتٍ. ولقد سمعتُ أنهم استنجدوا بخدماتِ رجلٍ يعملُ في متحف التاريخ الطبيعي، على ما يبدو.

كانت تلك هي المرّة الثانية التي أسمعُ فيها عن رجل المتحفِ، بعد محادثتي

الأخيرة مع «مادلين». في تلك اللحظة، بدا لي أنّ العلامات كلّها تشيرُ إلى أنّ وقت زيارة المتحف قد حان!

---

(62)اسماء صحف فرنسية تصدرُ في إقليم نورماندي.

(61)البرت لندرس مواليد 01 نوفمبر 1884 - الوفاة 16 مايو 1932، صحفي وكاتب فرنسي، اشتهر بتحقيقاته وتقاريره المناهضة لانتهاكات الاستعمار الفرنسي. أطلق اسمه على أشهر الجوائز التي تمنح لصحافيي التحقيقات في فرنسا.

لم يسبق لي أن وضعتُ قدمًا داخل المتحف. فعلى مدى خمسة عشر عامًا، بقي مغلقًا أمام العموم، بسبب أشغال الترميم. أحيانًا، كنتُ أمرّ بجواره وأنا في طريقي إلى محطة القطار. والحقّ أنّ ذاكرتي لم تحتفظ من «التاريخ الطبيعي» -وهي التسمية التي يحملها- سوى بقماش مشمعٍ متآكل، وقد كان يغطي واجهته، أتت عليه السنوات ومزّقتهُ الرّياحُ والأمطار. عاش أخي ردحًا من الزّمنِ بالقربِ منه، في شقّةٍ تقعُ في شارع «بوفوازين»، لا تحتفظ ذاكرتي منها سوى بعوارضها الخشبيّة الكبيرة التي توحي بالوضاعة. كان يكبرني بعشر سنواتٍ. وحدث أن غادر المنزلَ عندما كنتُ في العاشرة من عمري بالضبط. اكترى غرفةً، أوّل الأمر، في «روان»، ثمّ انتقل إلى «باريس»، قبل أن يستقرّ به المقام قريبًا من «نيس»، وأبعد ما يكونُ عن «نورماندي». ومنذ ذلك الوقت، راح يرسلُ إلينا أخبارهُ على نحوٍ متقطّع، أو يأتي ويغادر، لا يكادُ يستقرُّ في «بونسكور»، كأنّهُ يبغي الفرار منها في أسرع وقتٍ ممكن.

كنتُ أمشي في الشارع عندما عادت بي ذاكرتي إلى «باريس»، وإلى الأيّام التي كنتُ أمرُّ فيها بالقرب من متحف التاريخ الطبيعي هناك في طريقي إلى معالجتي النفسيّة وقد كانت تعيشُ غير بعيدٍ عن «حديقة النباتات»(69)، حيثُ كان بوسعي مشاهدةُ الذئاب الرمادية الحزينة، من خلفِ سياج الحديقة الواقعة عند رصيف «سان برنار». للوصول إلى منزلها، كان يتعيّن عليّ أن أقطع شارعًا يحملُ اسم «بوفون»(68)، عالم الطبيعةِ العظيم. مع حلول المساء، كانت الهياكل العظمية تتلألأ بالأنوار، داخل الرواق الواقع على يمين المتحف، وغير بعيدٍ عنهُ إلى اليسار، كان بالإمكانِ رؤيةُ المكتبة المختصّة في علوم الحشرات من خلفِ النوافذِ المتسخة التي كانت تختفي وراءها، بلا شك، مخابزُ أخرى تعشّش فيها الحشراتُ والغبارُ. تردّدتُ على المعالجة النفسيّة طوال عامٍ ونصف، أصابَ الضمورُ في غضونها محادثاتنا حتى بتُّ أكرّس الجزء الأعظمَ من حصص علاجي للحديثِ عن فعلي «وطئ» و«دعس». في أحيانٍ أخرى، كنتُ أكرّس تلك الحصص للحديثِ عن كلمتي التشرذمِ والاكتئابِ أو الشرود بذهني أو التأتأة أو نحت مفردات عبر توليف كلمتين أو أكثر. الحقّ أنّ الأمر برمّته لم يكن يتطلّبُ منّي سوى بضع أحرف ساكنة والقليلُ من الصراحةِ المخاتلة. كان عليّ أن أتعافى من تشرذمي لكي أتمكّن من بعثرةِ اكتئابي (لا شك أنّها

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

فكّرت في الأمر على ذلك النحو، لكن دون أن تخبرني به) أو ربّما كان يتعيّنُ عليّ، على العكس، أن أعيدَ خلط أحرفي الغارقة داخل كيسِ «السكرابل»(67) الوجودي.

ما كنتُ أحبّذه في لعبة «السكرابل» هو صوتُ اصطدام قطع الأحرف البلاستيكية ببعضها لحظةَ تحريكِ الكيس، وكأنّها تبحثُ عن منفذٍ للهروب. بوسعي الآن استحضارُ يد جدّتي الجميلة ذات اللونِ المائل إلى البني، وهي تنزلق إلى داخل الكيس الأخضر، في أمسياتِ الصيف، عندما كانَ يُسمحُ لي بأن أنضمَّ، مرتديا منامتي، إلى طاولة الكبار ومشاركتهم اللعب. وبوسعي كذاك استرجاعُ عبق تلك الليالي النضرة في منزل الجدّة بـ «فيناكو»(66)، وما كنتُ أشعرُ بهِ من خوفٍ طفيفٍ من أحجاره الكبيرة، متعددة الأشكال، عندما أجبرُ على الصعودِ وحيدًا إلى غرفتي في الطابق العلويّ.

تبدو لي لعبة «السكرابل» مزعجةً مثل الحياةِ. بإمكاني مثلاً أن أشكّلَ في الحالِ كلمةً مذهلةً، ومع ذلك، مهما فعلتُ، سيظلُّ هنالك حرفٌ ناقصٌ، أو آخر زائدٌ لا مكانَ لهُ على لوحة اللعبة. أحيانًا نفكّرُ في إخفاء قطعنا، وإبقائها بعيدًا عن متناول الأعينِ، لكي نتمكّنَ من إلقائها دفعةً واحدة، وإنهاء اللعبة، قبل جمعها داخل الكيس والخلود إلى النومِ، وقد اعتقدنا أنّنا قلنا الكلمة الأخيرة، بيد أننا نلفي أنفسنا مجبرين على اللعبِ في كلّ مرّة، إلى أن تفتحَ كلمة جديدة وقع تشكيلها فوق اللوحةِ أعيننا على منظورٍ آخر للحياةِ، منظورٍ خلاصيّ. تماما كلعبة «السكرابل»، ثمّة في الحياةِ أشخاصٌ قيمتهم تحتسبُ مضاعفة، وثمّة أوقاتٌ ظهيرة تتضاعفُ قيمتها ثلاث مرّات، وأيّام على شكل حرف «Y» تساوي عشر نقاط، وصباحات لها أشكالُ أحرف «E» و«A» و«S» (تساوي نقطة واحدة)، وثمّة خصوصًا، أيّامٌ نفشلُ في استخراجِ أيّ كلمةٍ من حروفها المتراصّةِ أمام أعيننا. أحيانًا، يحدثُ أن أعيش يومًا من ثلاثة أحرف هي «L» و«T» و «I»(65) (كلّ حرفٍ يساوي نقطة)، فأشكّلُ مفردة «LIT» (سرير)، لتكون النتيجة كالتالي: يومٌ مشكّل من ثلاث أحرفٍ بسيطة، تساوي ثلاثة نقاط، تحيلُ إلى ما أعانيهِ من مشاكل سببها اضطرابُ النوم أو النعاس المزمن أو رغبتي في الاستلقاء على مرتبة قابلة للنفخ تطفو داخل مسبحٍ.

دفعتُ باب المتحف، ودلفتُ إلى الردهة. تهيّأتُ للمناداةِ على أحد الموظفين

عندما وقعت عيناي على تمثالٍ حجريّ نصفيّ قائم في إحدى الزوايا. ولكم كانت مفاجأتي كبيرة حينَ قرأتُ ما نقش على شاهدة رخامية كبيرة، كانت تتوسّط عمودينِ فاخرينِ، خلف التمثال: «إلى روح فيليكس أرخميدس بوشيه، مراسل المعهد (أكاديمية العلوم) / المديرُ المؤسس للمتحف/1872 -1828». أمعنتُ النظر في الشاهدة لكي أتأكدَ من أنّي لم أخطئ القراءة. نقشت عند زوايا الشاهدة الأربع رسومات هي عبارة أحفوريات حلزون وخنفساء وزهرة برية وقنبرة. كان ما قرأتهُ صحيحًا. قالت لي عيناي إنّ ذاك «الفيليكس» يحملُ نفس لقبي، أو بالأحرى، نتشاركُ اللقب نفسه. بالنّهاية، كان كلانا ينتمي إلى السلالة نفسها، عائلة بوشيه. لطالما حملتُ ذلك اللقب المبتذل كما يرتدي المرء بذلةً رماديّة باهتة لكلّ الأوقات، مصنوعةً من قماش متوسّط الجودة. يتكوّنُ لقبي من مقطعينِ صوتيين تعوزهما الجاذبية، يحيلُ الأوّل(64) إلى حشرةٍ ضارّة، فيما يبدو الثاني أشبهَ بقافيةٍ رتيبة. لا شك أنّ أفراد عائلة بوشيه الأوائل كانوا مربيّ خنازير أرادوا الارتفاع قليلاً في السّلم الاجتماعي، فاستبدلوا في ألقابهم حرفًا ساكنًا بآخر متحرّكٍ(63).

اكتفيتُ من تلك الجولةِ داخل علم الأنسابِ وعلاقته بمزرعة الخنازير، بعد أن اكتشفتُ أنّ لقبي لم يكن مبتذلاً كما اعتقدتُ دومًا، فها هي العائلة تضمُّ فردًا مشهورًا، هو عضو بالأكاديمية، ومدير المتحف ومؤسسهِ. ومع ذلك، كنت متأكدًا من أنني لم أسمع عنهُ من قبل، إذ أنّه من العسير أن ينسى المرءُ اسمًا مشهورًا كذاك الاسم، وفوقهُ مراتب الشرف التي حازها. ربّما كان ينتمي إلى عائلة أخرى، أو فرعًا مختلفًا، أو ربّما امّحى ذكرهُ بعد عام 1872. من يدري؟

نفضتُ عن ذهني قصّة اللقب وذاك الجدّ المفترض، وتذكّرتُ أنّي ما دلفتُ إلى المتحف إلاّ لكي ألتقي بعالم الطيور الذي ما فتئ اسمهُ يتكرّرُ أمامي خلال الأيّام الماضية. فمضيتُ في الحال إلى المحاسبِ وسألتهُ إن كان يعرفهُ أو سمع عنه. أجبرني الرّجل على تكرار سؤالي عدّة مرّات، ثمّ وافق أخيرًا أخيرًا على الاتصال بـ «رئيستهِ»، قبل أن يمكنني من رقم هاتفِ شخصٍ اسمهُ «إيمانويل إتيان»- وهو لعمري واحد من تلك الأسماء المزدوجة الجميلة- أخبرني أنه يشتغلُ باحثًا ملحقًا

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بالمتحف، لكنه غير موجودٍ في تلك اللحظة، ثمّ ختم حديثه بتلك العبارة الشهيرة «نحنُ آسفون حقًا». ومع ذلك، لم أيأس، بل عمدتُ إلى مهاتفتهِ، قبل أن أترك لهُ رسالة بصوتٍ، هو أقربُ إلى نداء طوارئ، طلبتُ منه فيها أن يحدّد لي موعدًا في أقرب وقتٍ ممكن.

---

(69)هي في واقع الأمر حديقةُ حيوانٍ.

(68)جورج-لويس لوكلير دي بوفون (ولد في كوت دور 7 سبتمبر 1707 – توفي في باريس 16 أبريل 1788) هو مؤرخ طبيعي ورياضياتي وعالم كون فرنسي.

(67)لعبة تشكيل كلمات شهيرة.

(66)بلدة فرنسية جبلية تقعُ في جزيرة كورسيكا

(65)خيّرنا الاحتفاظ بالأحرف اللاتينية وعدم ترجمتها إلى مقابلها العربي، نظرًا لاختلاف قيمة الأحرف بين النسختين الفرنسية والعربية من لعبة السكرابل.

(64)لقب بوشيه Pouchet مكوّن من مقطعين صوتيين، الأول هو Pou وتعني حرفيًا القملة.

(63)ثفة جناش صوتي بين مفردتي Pouchet (لقب) وPorcher (وتعني مربّي الخنازير). وحرف «r» في الفرنسية هو حرفٌ ساكن، قام الكاتبُ بتعويضه بحرف «u» وهو حرفٌ متحرك.

لم أكن في عجلةٍ من أمري، فقرّرتُ انتهاز الفرصة والقيام بجولةٍ بين معروضاتِ المتحف الصّغير الذي كان يشغلُ طابقين من المبنى. بدا لي أنّ المكانَ برمّتهِ لم يشهد أيّ تغيير منذ القرن التاسع عشر، إذ لا شيء كانَ يدلُّ على الجدّة باستثناء بضع لوحات تعريفيّة أضيفت حديثًا، كانت تحملُ رسومات موجّهة إلى الأطفال. كان الطابقُ السفليّ مكوّنًا من أروقة عرض متجاورة وممتدّة، تمنح المرء فرصة تمتيع ناظريهِ بتشكيلةٍ من الحيوانات المحنّطة، بعضها حفظَ داخل صناديق عرضٍ خشبيّة، وبعضها الآخر كان داخل بيئاتٍ برّيّة اصطناعيّة تمّ تصميمها للغرض. تركتُ الأسود والفهود جانبًا، ورحتُ أبحثُ عن معروضاتِ الحيواناتِ الأليفة، لأنّي كنتُ أراها أعمق تأثيرًا في النفسِ من غنائمِ الغاباتِ ووحوشِ السّافانا ذات العضلات والأنيابِ البارزة، إلى أن عثرتُ على واجهةٍ تقبعُ خلفها تشكيلة من الكلاب. خُصّص الجزءُ العلويّ من الواجهة لكلبٍ دلماسيّ بدا أنّهُ يديمُ النظر إلى كلبِ صيدٍ كانَ يحملُ طائرًا بين فكيه، بينما خصّص الجزء السفليّ، لكلبيْن من فصيلة الرّاعي الألماني، أحمر اللون، كانا يقعان متجاورينِ، وأمامهما يرقدُ كلبٌ من فصيلةِ «شيواوا»، بدا لي أنّهما يتجاهلانهِ. وقفتُ أمام صندوق العرض لبضعِ دقائق، متأمّلاً تلك الكلابِ التي لم يكن فيها ما يميّزها عن غيرها سوى صفتها ككلابٍ، وفكّرتُ في أسيادها البعيدين. ما الذي أتى بها إلى ذلك المتحف، بعيونها الشاردة، وقوائمها الأماميّة المحشوّة المرفوعةِ، وأجسادها المتخشّبة في وضعيّة التوثّبِ وكأنّها تستشعرُ وجود فريسةٍ بالقربِ منها؟

على بعد أمتارٍ قليلةٍ من واجهة الكلابِ، عثرتُ على صندوق عرضٍ كبيرٍ خصّص لطيور المستنقعاتِ والشواطئ والبرك. كان هنالك حوالي عشرون بطّة من سلالاتٍ مختلفة، تقفُ منتصبةً داخل الصندوق، وقد ثبّتت قوائمها المكشوفةُ بإحكامٍ إلى الأرضيّة ووجّهت رؤوسها إلى مختلف الاتجاهات، حتّى بدا منظرها أقربَ إلى لقطةٍ جامدةٍ من فيلم رسومٍ متحرّكة. لوهلة، شعرتُ بأنّها تحدّقُ فيّ، كلّ من موقعها، بأعينها الميّتة، كما يحدثُ غالبًا مع اللوحاتِ التي تتابعنا نظراتُ شخوصها بصرف النظر عن المكانِ الذي نقفُ فيه. كنتُ أقفُ أمام تشكيلة صغيرة من طيور البطّ، لها مناقيرُ ملوّنة، وصدور مرفوعةٍ باستقامةٍ، لكنّها لا تنثني عن توجيه نظراتها إليّ، كأنّها تحاسبني على ما فعلت. شعرتُ بأنّها تعرفُ أنّي تخلّيتُ عن إخوتها هناك قرب

محطة توليد الطاقة النوويّة. وحدستُ أنها تعزّفت عليّ، رغم تظاهرها بعكس ذلك ولامبالاتها بوقوفي أمامها، وبدا لي، من مرأى مناقيرها المحنيّة، أنها تسخرُ منّي في قرارة نفسها. غير بعيدٍ عنها، لم يبد على طائر البجع الدلماسيّ أنه منزعجٌ من ضخامةِ منقارهِ، حتى إنّي تخيّلتهُ وهو يوجّههُ إلى بطنهِ ويفتحها لكي ينقذَ فراخهُ. في معرض الوحوشِ، شاهدتُ خروفًا برأسينِ، وخنزيرين صغيرينِ، لهما رأسٌ واحد وجسدان وثمانية قوائم (فكّرتُ أنّ القدر يحبُ أحيانًا أن يلعب لعبة الضربِ والقسمة) وهي تسبحُ داخل وعاءٍ كبيرٍ من الفورمالين(71).

واصلت جولتي وبي رغبة في رؤية كلّ شيء. أردتُ التفرّج على كلّ فراشةٍ وإحصاء القناني الزرقاء المرصّفة فوق واجهات العرض. ترى ما الذي تحتويهِ تلك القوارير التي لا شكّ أنّ «فيليكس أرخميدس» هو من عالج مكوناتها في مختبره؟ هل تحتوي على مرشّحاتِ الخلود أم على مراهمِ البعث؟ تساءلتُ وأنا أسرّحُ قدميّ داخل بيتهِ، بيت هو عبارة عن قصرٍ خصّصهُ لعلماء الحيوانِ والأحياء الذين عبروا مثلهُ القرونَ، من خلال وسيطٍ ثابتٍ، هي تلك الحيوانات المحنّطة التي أشرفوا على جرد أنواعها بصبرٍ.

عندما صعدتُ إلى الطابق العلوّي، جلب انتباهي عملٌ فنّي معاصرٌ كان يتوسّطُ أولى قاعات العرض، عمل هو عبارة عن هيكل سيّارة صغيرة محطّمة (خمّنتُ أنها قد تكون من ماركة فيات 500) صدئٌ وملقى فوق سجّادةٍ من الأوراق الميّتة. كانت تخرجُ منهُ أغصانٌ ضخمة ملتوية، وممتدّة في جميع الاتجاهات، ينتهي بعضها بمجسّماتِ أعشاش فارغة. كان اسمُ المنحوتةِ هو «عربةُ الطيور» وتحملُ توقيع شخصٍ اسمهُ «فنسنت دوبرغ». درتُ حول المنحوتة ورحتُ أفكّر في هياكل السيّارات المحطّمة القديمة، وقد غطّتها النباتات. لطالما كان منظرها يسحرني تمامًا عندما كانت تعترضنني طفلاً على طرقات «فاكيو» أو أسفل قيعان وديان «كورسيكا»، حيث كنّا نذهبُ يوميًا تقريبا للسّباحةِ في أيّام الصيف. كنتُ حينها مقتنعًا بأنها كلّ ما بقي شاهدًا على وقوع حوادثَ حقيقيّة، وهو أمرٌ مفهوم بالنظر إلى طبيعة طرقات المنطقة، وقد كانت شديدة التعرّج والخطورة، حيثُ اعتاد أبي قيادة سيّارتهِ على نحوٍ جنونيّ (فهمتُ في وقتٍ متأخّرٍ أنّ عادات أهالي المنطقة

كانت تقضي برمي السيارات القديمة، من ماركةِ «سيتروان» مثلاً، وكلّ ما توقّفوا عن استخدامهِ من غسّالاتٍ وأحواضٍ ومحامص خبزٍ، وكلّ ما زاد عن حاجتهم وبخلوا عن حمله إلى مكبّات النفايات داخل الوديان)، بل حدث أن تخيّلت عائلات بأكملها وهي تهلك داخل تلك القيعانِ بسبب سقوط مركباتها، دون أن يعرف بأمرها أحدٌ أو يبادر إلى البحث عنها عند سفحِ أحد المنحدرات أو في نهاياتِ الطرقاتِ شديدةِ الانحدار. كنتُ كلّما أنهيتُ السباحةِ واتخذتُ مكاني داخل سيّارة «الرينو نيفادا» الحمراء، إلاّ وداعبني أملٌ وحيدٌ، في أن يتوقّف والديّ عن صراخهما وخصامهما المرهقينِ لبضعِ دقائق. اعتاد أبي أن يقود السيّارة بسرعةٍ جنونيّة، وإلى جانبه أمّي، في المقعد الأمامي بينما كنتُ أقعي أنا في الخلف متوسّطا المقاعد الخلفيّة، لكي أتمكّن من رؤية الطريق من بعيدٍ وأؤخّر ما أمكن ذلك العطب الذي كنتُ أعرفُ أنّه سيحلُّ بقلبي. كان في مقدورهما الاستمرارُ في شجارهما لساعاتٍ، إمّا لدوافع جديدة أو أخرى قاما بتحيينها. ولشدّ ما كان يرهقني اختيار السيّارة لبدء منازعاتهما، ليس بسبب اضطراري في كلّ مرّة إلى تحمّل ما يفعلانهِ داخل ذلك المكان الضيّق فحسب، ولكن لأنّي مجبرٌ، من مكاني في المقعد الخلفيّ، على لعب دور حافظ السّلام العائليِ بينهما، وهو دورٌ لطالما قابلاه بالجحود والنكران. والحقّ أني كنتُ أفشلُ في أغلب الأوقاتِ في نزع فتيل معاركهما الضارية. وكنوعٍ من التعويض عن إخفاقاتي تلك، وأيضا للتخلّص ممّا تبعثهُ في تلك الرحلات بالسيّارة من توتّرٍ خانق، كان خيالي يبتكرُ سيناريوهات مأساويّة. واحدٌ منها تحديدًا كان يزورُ خيالي كثيرًا، وهو سيناريو يشبهُ إلى حدّ مّا حلمًا عذبًا وخبيثًا في آنٍ، غالبًا ما يراودُ الأطفالَ الذين يخافون اليتمَ، فيدفعهم إلى البكاء قبل أن يطمئنوا إلى حقيقة أنّهم ليسوا يتامى في الواقع. لقد كنتُ أتخيّلُ أمّي تطلقُ صرخةً عالية كعادتها، فيقومُ أبي بإدارة عجلة القيادة على نحوٍ مفاجئ، ما يجعلُ السيّارة تنحرفُ عن الطريق المتعرّجة وتهوي بنا من حالقٍ. في خيالي، كنتُ أرى المشهد رائعًا وجديرًا بفيلم سينمائيّ، لا سيّما حينَ تطيرُ السّيارة بنا ثمّ تهوي بحركةٍ بطيئة إلى أسفل المنحدر، قبل أن تنفجرَ داخل سحابةٍ من الغبار بالقربِ من جدولٍ صغيرٍ، ليسود بعدها صمتٌ طويلٌ. وبالطبع، كما يحدثُ في الأفلام، أكونُ أنا الناجي الوحيد من الحادث. صحيحٌ أنّي أتخيّلني مصابًا، ولكن إصاباتي لا تكونُ خطيرة، ومن ثمّة أسارعُ إلى تخليص نفسي من براثنِ الخردة

المعدنية بينما يتصاعدُ الدّخانُ منها. وخيالي لا يتوقّفُ عن ذلك الحدّ، إذ أراني عائدًا إلى قاع ذلك الوادي بعد سنواتٍ (كان خيالي الصبيانيّ لا يتوانى عن القفز في الزّمن خصوصًا كلّما صارَ الجوّ داخل السيارةِ خانقًا أكثر) لكي أقفَ بالقرب من سيارة «النيفادا» وهيكلها الأحمر الذي حافظ على تألّقهِ وسط الأحراشِ. وقد صرتُ يتيمًا أخيرًا، أقفُ خاشعًا أمام النصبِ الجنائزي العائليّ المرميّ في العراء، وأذرفُ شيئًا من الدّموع على ذلك الصنم المعدنيّ الصدئ المحاصر بنباتات العليق والسّرخس. وعلى نحوٍ ما، كانت سيّارةُ حلمي ذاك، هي «عربةُ الطيور» العائلية.

مضت نصفُ ساعة تقريبًا على هبوط الليل، وفطنت إلى أنّ القاعات الفارغة أنيرت بمصابيح مكتبيّة قديمةٍ وبعض أنابيب النيون المضافةِ حديثًا، ففكّرتُ ساخرًا أنّي انتقلتُ من نعومةِ الأنوار المنعكسة على واجهات العرض الخشبيّة إلى وهجِ أنابيب المخابر شديدة البياض. عندما تمعّنتُ في انعكاسِ صورتي على الواجهاتِ الزجاجيّة، خيّل إليّ أنّي لو قمتُ بتغيير زاوية النظر، لألفيتني عالقًا وسطَ تلك الصناديق الزجاجيّة إلى جانب بقيّة الحيوانات المعروضة. وبالفعل، تخيّلتني واقفًا إلى جانب «حمار بواتو»(70)، في منفاه الجديد بمنطقة «نورماندي»، فوق سجّادة الأعشابِ المزّيفة، ومعنا رفقة رائعة مشكّلة من الخنازير البريّة، بينما امتدّ صدى صوتي ليداعبَ ذلك الدبّ البنيّ الهزيل، أو يعتلي صهوةَ خروف البحر الورديّ هناك.

كان هنالك حارسٌ في كلّ طابق. والحقّ أنّ من يلقي نظرة على حارس الطابق الثاني سيذهبُ في ظنّهِ أنّ سترتهُ القديمة تخفي وراءها كائنًا محنّطًا أيضا. في تلك اللحظة، رأيتهُ يستشيرُ ساعتهُ قبل أن ينادي عليّ، من آخر القاعة الكبيرة، وينبّهني إلى أنّ المتحف سيغلقُ. كنتُ أعرفُ أنّ الوقت قد حان لكي أترك الموظفين والحيوانات يرتاحون، ومع ذلك، رجوتهُ أن يمنحني بعض الوقت لأنّي أردتُ استكشاف آخر جناحٍ في المتحف. لكنّه رفع صوتهُ قائلاً:

-لا يا سيّدي. المتحف سيغلقُ أبوابه. أرجو أن تتوجّه نحو المخرج في الحال.

في تلك اللحظةِ، استدرتُ يمينًا ومضيتُ إلى آخر القاعة، متظاهرًا بأنّي أسأتُ فهم جملته الأخيرة. تناهت إليّ أصوات قدميهِ وهو يجرّهما داخل الرّواق، عندما دخلتُ

إلى قاعةِ الحشرات، وهناك ألفيتُ الصراصير والخنافس وأنواع عديدة من اليعاسيب معروضة فوق طاولات كبيرة عالية. كنتُ منهمكا في تدوين أسماء بعض أنواع اليعاسيب المعروضةِ فوق دفتر ملاحظاتي (اليعسوب اللطيف، اليعسوب الضاري، اليعسوب المكتئب، اليعسوب المرقّط،...) حين التحق بي الحارس ووقف أمامي، فأدركتُ حينئذٍ أنّي خسرتُ فرصتي في تدوين ملاحظاتٍ أخرى أو تحليل حالات التطابق الغريبة بين عالم اليعاسيب وعالمنا.

-أنت! أيّها السيّد! لقد شارف صبري على النفاذ حقًا. أرجو أن تتبعني. حسنا هذا يكفي!

لبرهةٍ، تمنّيتُ لو أنّي قمتُ بتصوير ذلك المشهد. لقد تخيّلتني ألعبُ الغمّيضةَ مع ذلك الحارس لبعض الوقت، مختبئًا وراء صندوق ثور الزيبوُ أو مستلقيا على بطني إلى جانب الفهود. فكّرتُ للحظة في إخباره بأمر قرابتي بسلفي المفترض بهدف الحصول على معاملة تمييزيّة (تخيّلتني أقول له: لقد أنشأت عائلتي هذا المتحف في عام 1852، فلم لا تتركني أنهي زيارتي بسلامٍ على الأقلّ؟) لكنّي سرعان ما استسلمتُ (لأنّي نسيتُ بطاقة هويّتي) وتبعتهُ نحوَ باب الخروج، حيثُ رافقني بتلك الصرامة المتفانية الجديرة بحارسِ متحف.

---

(71)الفورمالديهايد أو الفورمالين هو محلول كيميائي يستخدمُ في عمليات التحنيط، أو في حفظ الحيوانات النافقة أو البشر لأغراض التشريح الطبي.

(70)حمار بواتو واحد من أضخم سلالات الحمير موطنه الأصلي منطقة بواتو الفرنسية. يستخدم لإنتاج بغال عمل ضخمة بتزويجه من حصان بواتو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألفيتني مطرودًا من المتحف، واقفًا عند رصيفه. أمامي، كانت جدرانُ مدرسة الطبّ القديمة آخذة في التداعي. وإلى يميني، كان متحف الآثار قد أغلق أبوابهِ هو الآخر. كان المكانُ موحشًا حتى إنّي شعرتُ كأنّي تحوّلتُ إلى حشرة يعسوب مكتئبة اختارت أسوأ طقسٍ ممكنٍ للتحليق فوق مرتفعات «روان». كنتُ قد علمتُ لتوّي بأنّ رجلَ علمٍ محترمٍ، يحملُ اسمي، هو من أسّس متحف التاريخ الطبيعي، وقابلتُ أعدادًا قليلة من طيور البطّ، كنتُ أجهلُ أنواعها، بيد أنّ كلّ ذلك، لم يكن كافيًا لتعديل مزاجي. الحقّ أنّي كنتُ أرغبُ في التحدّث إلى شخصٍ حيّ، إذ أرهقتني جولتي وسط معروضات الحيوانات المحنّطة الباردة، مثلما أرهقني ذلك اليوم الطويل الذي أمضيتهُ متنقّلاً بين «بونسكور» و«روان»، يوم ابتدأ باختفاء والدي، وانتهى باكتشافي أنّ لي جدًّا مفترضًا.

لم أكن أرغبُ في العودة إلى السّفينة وتناول العشاء المشكّل من المفتحات والطبق الرئيسي والمحلّيات وربع قارورة من النبيذ الأحمر. قامت ذهني بعمليّة جردٍ لكلّ الكائنات الحيّة التي أستطيع تناول مشروبٍ برفقتها. وعلى الفور، قمتُ بإزاحةِ جميع زملاء الدرّاسة، فمزاجي لم يكن في حالةٍ تسمحُ لي بالإنصات إلى طرائفِ صبانا. لم يبق أمامي سوى «جان بيار» و«شوفال» و«كلاريس». ولأسبابٍ لا تحتاجُ إلى شرحٍ إضافيّ، اخترتُ مهاتفة «كلاريس»، فمن بين الثلاثة، كانت هي الأهدأ والأجمل، ولكم كنتُ أحتاجُ في ذلك المساء إلى الجمالِ والكلام الرّصين.

وافقت على لقائي لاحقًا في حانةٍ تقعُ بالقرب من الكاتدرائية. في غضونِ ذلك، رحتُ أذرعُ الشوارع، محاولاً قدر الإمكان ألا أفكّر في أيّ شيء، ومركّزًا على ما يعترضني من أشياء تافهة، كأشكال إشارات المرور، وألوان مصاريع النوافذِ وتسريحات شعور المارّة. كانت روحي قد تعلّقت بشظايا مفككة من الواقع، بينما تمضي بي قدماي إلى الحانةِ، ذات اللافتة الكهربائيّة.

عندما ألقيتُ نظرة عبر النافذة، رأيتُ «كلاريس» تشقُّ الشارع وتقتربُ من الحانة. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أراها فيها على اليابسة. بدت لي هشّة، وتكادُ تكونُ متردّدة، وهي تشقُّ جموع المارّة. فكّرتُ أنّ لجمالها قدرة على التكيّف مع محيطه،

إذ كانت تنشرُ من حولها، عندما تكونُ في البحر، شعورًا بالقوّة المستمدّة من اليابسة، أمّا على الأرض، فكانت تظهرُ كأنّها عالقة داخل حالةٍ من الانسيابيّة الهشّة. على نحوٍ ما، كانت تبدو مثل امرأة برمائيّة، عالقة داخل وضعيّة تعارضٍ، مثل أسماك السّلور.

طلبت كأسا من النبيذ الأبيضِ الحلو. قلتُ لها إنّي أتبع مبدأ في الحياة يقضي بضرورة تجنّب شربِ النبيذ الحلو والشراب المقطّر بأيّ ثمنٍ. لكنّها وجدت مبدئي سخيفًا، وانبرت تقول: «حسنًا، كيف يمكنُ للمرء أن يتخلّى عن «المارتيني»؟ ماذا عن نبيذ «البورتو»؟ ماذا عن عصارات الفواكه القديمةِ المحفوظةِ داخل قباء المنازل القديمة؟

لم أحر جوابًا، واكتفيتُ بطلب كأس «فودكا تونيك»، محاولاً في غضون ذلك، عدم إثارة موضوع شجاري السّخيف مع «شوفال». راحت تحدّثني عمّا فعلتهُ في يوم عطلتها على متن السّفينة، ولم تنس ذكر العطل الميكانيكيّ الذي أصاب أحد المحرّكات، أو أجواء سهرة المسابقة الموسيقية الرّهيبة التي أفلتت منها للتوّ. سألتها عن مهنتها كمساعدة قبطان، والأنهار التي أبحرت فيها. فحدّثتني عن طفولتها في جبال «البيرينيه»، ودراساتها في كلّية البحرية التجارية بـ «لوهافر»، وعملها في شركة «السين الأزرق»، وقلقها المستمرّ من القناطر والرحلات المنظمة. وأضافت أنّها تأملُ في تغيير نشاطها قريبا والالتحاق بسفن شحن حقيقية تشقُّ بحارًا حقيقية.

في وقتٍ لاحقٍ من السّهرة، سألتني عن مسار تحقيقي. لخّصتُ لها الأمر كما اتفق. حدّثتها عن «مادلين» مجنونة الكاتدرائية وحقل الطيور النافقة الذي لم أجد فيه طيورًا نافقة والحيوانات المحنّطة وطيور البطّ التي عثر عليها ميّتة في ذلك الصباح قرب محطّة توليد الكهرباء. في غضونِ ذلك، كانت تستزيدني وقد بدا عليها الاهتمام. طلبنا جولة جديدة من الشراب، وشعرتُ للمرّة الأولى بأنّي في أفضلِ حالٍ، هناك، معها ومع هواجسي وكأس الفودكا الممزوجةِ بشراب التونيك. أخبرتها عن لقائي بتمثال جدّي الشهير، وحدّثتها عن المتحف واليعاسيب والمصادفات. فجأة، أوقفتني «كلاريس»، وقد بدا عليها عدم الفهم، وقالت: «كلّ ما تقولهُ رائع. لكن لم أفهم المغزى من وراء تحقيقك. لماذا تفعلُ ذلك؟». لم تكن الأمورُ واضحة في ذهنها كما قدّرت. لم

تنتظر إجابتي وهي تضيف:

-هيّا حدّثني عن دوافع تحقيقك الحقيقية.

في تلك اللحظة، شعرتُ بالاضطراب، ولم أفهم ما الذي جاء بالحقيقةِ والمنطق إلى محادثتنا. كانت أسئلتها قد هزّت أسس القصص والحكايات التي راكمتها على أملِ العثور على شيءٍ من الاتساقِ في ما بينها، حتّى إنّي شعرتُ بأنّ العثورَ على رابطٍ منطقيّ بينها وتقديمَ سرديّةٍ متماسكة أصبحا بمثابةِ الاختبار أمام «كلاريس». حقًا، لماذا أفعلُ كلّ هذا؟ تساءلتُ في قرارة نفسي لكنّ ذهني لم تسعفني سوى بمرادفاتٍ من قبيل الخوفِ والكسل. حاولتُ أن أخبرها عن أطروحة الدكتوراه التي أعتزمُ التخلّي عنها وعن والدي لكنّ لساني راحَ يتلجلجُ بينما أحاولُ إخبارها عن مشروعِ مغامرتي... التي قد تنتهي بي...إلى...فجأة، قاطعتني قائلةً:

-إنّه حقًا لأمرٌ طريف. فما أن تبدأ في تفسير دوافعك، حتّى تأخذ في التلعثم. يبدو لي كأنّ حياتك كلّها تجمّعت عند طرفِ لسانك.

كانت «كلاريس» بمثابةِ سمكة سلور تتمتّع بقدرة فائقة على الرؤية الليلية وتمييزَ الصخور وسط المياه المظلمة. كان ما قالتهُ حقيقةً، لا شك أنّي كنتُ أنتظرُ أن يقوم أحدهم بصياغتها لي على ذلك النحو من الوضوح. أجل، كانت حياتي متجمّعة عند طرف لساني. ولعلّ ذلك هو السببُ في صعودي إلى السّفينة لمراقبة الطيور النافقة على ضفّتي النهار، وإجراء تحقيقٍ، لا أحد كلّفني بهِ أو يهتمُّ لأمره. أجل، ذلك هو السبب الحقيقي، نعم، بالطبع، كانت حياتي متجمّعة عند طرف لساني. كلّ الالتزامات والخيارات ومغامرات العقل والحياة الاجتماعية والفتوحات العاطفيّة تتجمّعُ عند طرف اللسان بالنّهاية. ومع ذلك، كان لديّ شعورٌ بأنّي أنفقتُ حياتي عاجزًا عن الإفصاح عن خبيئة نفسي، بل وضحّيتُ بمجموعة هائلة من مقاطع الأصوات والكلمات ومشاريع الجمل من أجل ذلك، ولكن دون جدوى. وإذ لم أجد ما أبرّرُ به تلعثمي، اعترفتُ لها بما أحمله من مشاعر تعاطفٍ مع المتلعثمينِ وهباتهم الهشّة.

وأضفتُ:

-الحقُ أني لا أعرفُ لماذا يثيرُ فيّ المتلعثمونَ كلّ هذه المشاعر. إنّي أرى التلعثم طريقةً يكونُ المرءُ بمقتضاها عالقًا باستمرار بين الحياةِ والموت. ولهذا أتعاطفُ معهم. أيّها المتلعثمون من كلّ اللغاتِ اتحدوا! هل تعلمين، لطالما فكّرتُ في كلّ تلك الجمل التي أجبروا على إعلان الحداد عليها، وكلّ الملاحظات التي اضطروا إلى تأجيلها، وكلّ الكلمات الجميلة التي ولدت ميّتة على شفاههم. تخيّلي حجم ارتدادات كلّ العبارات المكتومةِ في دواخلهم. لقد حكمَ على المتلعثمين أن يسجنوا مدى الحياة داخل وضعيّة «ذهنيّة الدرج»(73).

منحتني جملتي الأخيرة أجنحةً إضافيّة، فأضفت:

-كما ترين، المتلعثمُ هو بمثابة مقبرة هائلة من الجمل. وبعضُ تلك الجملُ قد تبذلُ جهدًا خارقًا لكي تنهض من رقدتها الأبدية، وتصير مثل الموتى الأحياء: أذرعها ممدودة أمامها بينما تسيرُ الهوينى فزعةً في الهواء الطلق. إنّها جمل ميّتة- حيّة.

تحدّثتُ كثيرًا، على الأقلّ ذلك ما شعرتُ به، ولم يكن بوسعي فعلُ أيّ شيء غير ذلك. كنتُ على وشك إخبارها بقصّة تأتأة النبيّ موسى عندما قاطعتني مجدّدًا. في تلك المرّة لم تطرح عليّ أيّ سؤالٍ، بل قبّلتني فحسب. لا أدري إن كانت فعلت ذلك بغرض إسكاتي أم لا. كلّ ما أعرفهُ أنّي تركتُ نفسي لها، لأنّ لسانها كانَ أعذبَ من ثرثرتي.

بعد لحظاتٍ قليلة، كنّا أمام الحانة. بعدها بثوانٍ، بلغنا معبر السّفينة. مضت دقائق أخرى، وألفيتنا معًا داخل مقصورتها. عبر كلّ ذلك ذهني في أقلّ من ثلاث جملٍ، رحنا بعدها نتبادل القبلات، مرتديينِ ملابسنا ثمّ عاريينِ. انزاحت غشاوة الثمالةُ العذبة عن ذهني ورأيتُ كلّ شيء بوضوحٍ: ساقيها العاريتين، نهديها الخفيفين، وحركاتها الخبيرة اللاهبة داخل المقصورة الضيّقة. ولأوّل مرّة منذ أيّام، غادرت الطيوزُ عقلي، ليشغل جسد «كلاريس» كلّ المساحة. فجأة، امّحت غرابةُ أحداث الأيّام الفارطة، وبحثي المتشنّج عن الأدلّة والتفسيرات المنطقيّة. توقّف الواقع عن المطالبة بالتفسير واختفى العالمُ السريُّ ومعه السّماءُ وباقي الهراء. لم يكن ثمّة سوى جسدينا العاريين وهما يبحثانِ عن متعتهما في ظلمة المقصورة. لم يكن ثمّة

سوى رعشاتنا وحركاتنا ومداعباتنا ولسانينا وبشرتينا، وجميعها بمنأى عن معاني الحياة الكبرى.

كان كلّ شيء يمضي بنا إلى حالةٍ أقربَ إلى الدّعة عندما انقلبت الأمورُ فجأة رأسًا على عقب، ففي تلك اللحظة، بلغتُ الذروة وانفجرتُ في نشيجٍ عنيفٍ متقطّعٍ. كان نشيج تحرّري وقلقي. لقد حلّت نشوتي على نحوٍ مباغتٍ، داخل مقصورة تلك السفينة التي تشقّ النهر وعلى متنها أناسٌ متعبون، وبين ذراعي فتاةٍ كنتُ قد التقيتها قبل بضع عشرات من السّاعات، لتفصلَ ما كان بين جسدينا من تواطؤ بسيطٍ وسعيدٍ في آنٍ. لعلّ مردّ ذلك ما كنتُ أشعرُ بهِ من دوارٍ لذيذ. لا أدري حقًا.

سارعتُ إلى طمأنة «كلاريس» قائلاً:

-لا تفزعي. كلّ ما في الأمر أنّي شعرتُ بأنّي سقطتُ داخل فراغٍ هائلٍ. وذلك الفراغُ هو روحي. فراغٌ بلا قرار. ولكن لا بأس، لا بأس.

ما إن قلتُ ذلك حتّى تحوّلت دموعي إلى ضحكات، أو بالأحرى إلى مزيجٍ من الدموع والضحكات. فكّرتُ أنّ ما حدثَ معي لا يعدو كونهُ مجرّد تشنجّات جسديّة أو تقلّصات عضليّة حرّكها طموحٌ إلى شيء لا أعرفُ كنهه.

تذكرتُ صديقة قديمة كانت قد حدّثتني في إحدى الأمسيات عن طيور الشمامةِ(72)، تلك الجوائمِ الحذرة، وأخبرتني أنّها لا تحطّ على الأرض مطلقا، بل تواصلُ تحليقها باستمرارٍ. وأضافت أنّ تزاوجها يحدثُ في الجوّ، وغالبا ما ينتهي بموتِ الذكر الذي يهوي نحو الأرض، حقيقةً لا مجازًا.

بيد أنّ «كلاريس» لم تقل شيئا في تلك الليلة. كلّ ما فعلتهُ هو احتضاني وتخليل شعري بأناملها، كما نفعلُ عادةً مع طفلٍ يصعبُ إسكاتهُ. لا أذكرُ ما تحدّثنا به بعد ذلك. ما أذكرهُ هو أني استغرقتُ في النوم وقد وقر في قلبي أنّي نادرًا ما عشتُ إحساسًا مثل ذلك، إحساسا يجمعُ السّعادةَ إلى الرّعب في الآن نفسه.

استيقظتُ مبكّرًا في صباح اليوم التالي. كانت «كلاريس» ما تزالُ نائمة إلى جواري. رحتُ أفكرُ في الطيور و«فيليكس أرخميدس» وما ينتظرني في محطات

تحقيقي القادمة، ثمّ نهضتُ وألقيتُ نظرة أخيرة على «كلاريس». وقبل أن أغادر المقصورة بهدوء، كتبتُ فوق ورقة كانت تحملُ شعار شركة «السين الأزرق»:

«شكرًا «كلاريس». أرجو أن تعذري دموعي ليلةَ أمس. لم أستطع النوم هذا الصباح والحقُّ أنك كنت جميلةً. سأبقى قليلاً في «روان». أرجو أن تحظي برحلةٍ ممتعة».

---

(73)"l'esprit d'escalier" وتعني بالعربية "عقلية بدل ذهنية" أو "ذهنية الدرج" هو مصطلح فرنسي يستعمل للإشارة على عجز متحدّث ما عن إجابة سؤال يوجّهُ إليه في الوقت المناسب.

(72)السمامة الشائعة أو السمامة المألوفة هو طائر متوسط الحجم، يتشابه ظاهرياً مع السنونو أبيض البطن أو الخطاف، لكنه أكبر منهما قليلاً.

عدتُ إلى المقصورة رقم 313، وقمتُ بحزم أغراضي، ثمّ غادرتُ السّفينة نحو المدينة لتناول القهوة. كنتُ قد أغلقتُ قوسَ ما حدث داخل مقصورة «كلاريس» وشعرتُ بأنّي أستعيدُ وعيي كحالٍ من يفيقُ ببطء من التخدير بعد عمليّة جراحيّة.

متناومًا، رحتُ أتمشّى فوق الرّصيف، تارةً أصطدمُ بعمود وتارةً بأحد الكنّاسين. كنتُ أتقدّمُ مثل سلطعونٍ أخرق ألفى نفسه محاصرًا خارج الماء. في تلك اللحظة، تذكّرتُ جيرار دي نيرفال(77) الذي كانَ يُرى أحيانًا (هاكم مثال الشاعر الحقيقي) وهو بصدد التنزّه في حديقة القصر الملكي برفقةِ زوبيان(76) حيّ، كان يربطهُ إلى شريطٍ أزرق. وعندما كان يسألُ عن تلك البدعة الغريبة، كان يجيبُ مخاطبهُ بثقةٍ: «لماذا يثيرُ الزوبيانُ السّخرية أكثرَ من الكلب أو القطّ أو الغزال أو الأسد أو أيّ حيوانٍ آخر نتخذهُ رفيقًا في نزهاتنا؟ شخصيا أحبّ حيوانات الزّوبيان، فهي هادئة، جادّة، عليمة بأسرار البحار ولا تنبح...».

سمعتُ في إحدى المرّات أنّ حيوانات الزّوبيان خالدة، أو على الأقلّ لا تصيبها الشيخوخة، إذ تستمرُّ خلاياها في النموّ بإطراد، ما يتسبّبُ في كبر أحجامها. وإذ يقالُ إنّ الزّوبيان هو من القشريّات المعمّرة غالبًا، يحدثُ أن يحولَ كبر حجمه بينهُ وبين كهفه فلا يقدرُ على الاختباء، ومن ثمّة يتحوّلُ إلى فريسةٍ سهلةٍ للأسماك الأخرى، ويموت.

كان النادلُ قد أحضر القهوة لي عندما تلقّيتُ رسالة على هاتفي من «إيمانويل إيتيان»، أخبرني فيها إنّهُ مستعدٌ لاستقبالي لاحقًا في المتحف. أخيرًا، سأتمكّنُ من التحدّث إلى شاهدي الثاني. فكّرتُ في سرّي.

أمضيتُ ما تبقّى من الصباح في معاودة قراءة ما دوّنته فوق دفتر الطيور النافقة، مضيفًا إليه تفاصيل وخربشات أخرى. ومع تمام السّاعة الحادية عشرة صباحًا، كنتُ أقفُ في مواجهة «إيمانويل إتيان»، داخل مكتبهِ المزدحمِ بلوحاتٍ وصفيّة لأنواع الطيور المختلفة، وأكوامٍ من الكتب، وهيكلٍ عظميّ لطيرٍ جارح كان موضوعا قرب النافذة المتربة. كانت ملامح «إيمانويل إتيان» عاديّة للغاية، بشعره الأشقر مفرط القصر، ونظارته الرفيعة مستطيلةِ الشكل، وبنطالهِ البسيط وقميصهِ الفضفاض.

Telegram:@mbooks90

علاوةً على ذلك، بدا لي متحفظًا، لا سيما حينَ قال لي، فور دخولي، إنّ وقتهُ ضيّق، قبل أن يسألني من أكون، وعن سبب اهتمامي بقضّة الطيور، والجهة التي أرسلتني. ولم يكن ينقصه سوى أن يضيف «من أين تتكلّم أيّها الرفيق لعالم الطيور؟»(75). لم أسقط في فخّ أسئلتهِ واخترتُ أن أقدّم نفسي كصحافي مستقلّ لا ينتمي إلى أيّ مؤسسة صحافيّة أو دولةٍ أو حزب. في واقع الأمر، كنتُ أعرفُ أنني مستقلٌّ عن كلّ شيء: حظّي وهواجسي وكسلي وآمالي.

حاولتُ أن أعرفَ نتائج التحقيق الذي قام به، لكنّ «إيمانويل» طفق يناورُ بمهارة، بينما تلكأ «إتيان» في تقديم الإجابة. الحقّ أنّ «إيمانويل إتيان» راح يتجوّلُ بي بين العموميّات، بلهجةٍ محايدة، تخلو من العاطفة، لهجة من لم يسبق له أن غادر مختبرًا قطّ.

لكنّي لم أيأس، وأعدتُ صياغة سؤالي على نحو أكثر دقّة:

-هل سمعت عن مشكلة الطيور في محيط الكاتدرائيّة؟ لقد قيل لي إنّ شيئا ما حدث هناك.

فكّرتُ ساخرًا أنّ عبارة «لقد قيل لي» كانت تبدو جريئة أكثر من اللازم، خصوصًا أنّ «مادلين» هي من كان مصدر المعلومة. حسنًا، لا بأس، قلتُ لي، بينما أنصتُ إلى ردّهِ:

-أوه، أجل. لقد اتصلوا بي قبل بضعة أشهر. كانوا يواجهون مشكلة نوم طيور الزرزور على أسطح الكاتدرائية. ولقد أقلقهم الأمر، لا سيّما بعد تضرّر حجارة المبنى من فضلات الطيور. كنّا قد فكّرنا في وضع خطّة لإبعادها عن المكان، لكنّ قرارنا استقرّ بالنهاية على عدم القيام بأيّ شيء. أنا من نصحهم بذلك.

-حقًا لم يفعلوا؟

-أوه، لا أعتقد ذلك. لكن يمكنك أن تسألهم مباشرةً إن أردت التأكد من ذلك. إذا أردت بإمكاني إعطائك أرقام المعني بالأمر، الأب «وينتر».

-مع ذلك، أرى من غير العادي أن تسقط مئات الطيور من السماء...

-حسنًا، أنا متخصص في طيور «أوقيانوسيا». بعد إتمامي لرسالة دكتوراه، واصلتُ بحوثي حول تكاثر طائر «أبي قرن» ومناطق تعشيشه، وهذا الطائر لمعلوماتك يعيش أساسًا في «بابوا» و«أندونيسا». صحيحٌ أنّ طيور منطقة «النورماندي» لا تنتمي إلى مجال تخصصي، لكن إذا أردت رأيي، أرى أنّ أسباب نفوقها المحتملة كثيرة، كالصراع داخل المستعمرات، أو نوبات الجنون الجماعي أو الذعر أو التسمّم.

-ماذا عنك؟ هل لديك تفسيرٌ لنفوقها؟

-بصراحة، لا أستطيع الجزم. لم يعلن المختبر عن نتائج العيّنات بعد. ليس من المستبعد أن تكون المبيدات الزراعيّة وراء نفوقها. ومع ذلك، من الجائز ألا نعرف أسباب ما حدث مطلقًا. كما تعلم، عثرَ مؤخُرًا على 37 مليون نحلة نافقة في «كندا». ولم يتوصّل أيّ أحدٍ إلى معرفة الأسباب. كلّ شيء يتساقط هذه الأيّام: الحشراتُ والطيور. على ما يبدو، لم تعد السّماءُ متاحةً للجميع.

-هذا يعني أنّه من الممكن ألا نعرف ما حدث قطّ؟

-أجل. ثمّة ظواهر كثيرة من هذا القبيل. أحيانًا، على المرء أن يقبل بحقيقة أنّه لن يعرف. وكرجل علمٍ، أقول لك إنّ هذا هو أقلّ ما يفعلهُ الواحدُ منّا.

لم أجد الجرأة لإخباره أنّي، بصفتي محقّقًا عيّن نفسه بنفسه للبحث عن أسباب أمطار الطيور، ومقيمًا سابقًا في «بونسكور»، وقارئًا نهمًا لـ «پلينيوس الأكبر» و«تشارلز ه. فورت»، لا أستطيع القبول بحقيقة أنّي لن أعرف قطّ ما حدث. السّماءُ لم تعد متاحة للجميع؟ هل هذا هو تفسيرك يا «إيمانويل»؟ في تلك اللحظة، شعرتُ بأنّ السيّد «إتيان» صارَ يمثّل خطرًا حقيقيًا على مسار تحقيقي، لذا بادرتُ إلى تغيير الموضوع وسألته:

-من بين الطرائف التي حصلت معي حين قدمتُ إلى المتحف، اكتشافي أنّي أحملُ نفس لقب مؤسس المتحف، «فيليكس أرخميدس».

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

-هل اسمك فيلكس؟

-لا، ولكن لقبي هو «بوشيه»!

-آه...

بدا أنّ ما اعتبرتهُ مصادفة لم يحدث فيه أيّ تأثير على الإطلاق. لقد تقبّل ما قلتُ بعاطفة فاترة، قبل أن ينهض من مكانه لكي يفهمني أنّ اللقاء انتهى. بيد أنّي سألتهُ في طريقنا إلى الباب عن شخصيّة «فيليكس أرخميدس»، فأجابني وهو يرسم على وجهه ملامح الإشفاق:

-يا للمسكين «بوشيه»! هذا الرّجل بدأ النسيانُ يلفُّ سيرته. لحسن حظّهِ، ما يزال يحظى بتمثالٍ نصفيّ في مدخل القاعة. أعتقد أن ذكره سيختفي قريبا حتى من قواميس أسماء الأعلام. الحقّ أنّ الناس لا تأتي على ذكره إلاّ لسببٍ واحد، وهو مواجهتهُ للعالم العظيم «باستور»(74)، وخسارته أمامه. كان بودّي لو أخبرتك عنهُ أكثر، ولكن يتعيّن عليّ المغادرة الآن. لديّ مؤتمر في مدينة «ماتز» والقطار ينطلق بعد نصف ساعة. إن أردت معرفة المزيد عن سلفك، فما عليك سوى التوجّه إلى المكتبة العمومية، حيث ستعثرُ على ضالّتك.

---

(77)جيرار دي نرفال (22 مايو 26 - 1808 يناير 1855)، أديب فرنسي وشاعر وكاتب مقالات ومترجم، اسمه الحقيقي جيرار لابروني.

(76)الإزيبانُ أو الزّوبيانُ أو الهُمّار (الاسم العلمي Homarus) هو جنس من جراد البحر.

(75)«من أين تتكلّم أيّها الرفيق؟: هي عبارة كانت دارجة على ألسنة التروتسكيين إبان ثورة مايو 68. كانت تقالُ لمن يكون مجهولاً لديهم، على سبيل التحقير.

(74)لويس باستور (27 ديسمبر 28 -1822 سبتمبر 1895)، هو عالم كيميائي فرنسي وأحد أهم مؤسسي علم الأحياء الدقيقة في الطب، ويُعرف بدوره المميز في بحث أسباب الأمراض وسبل الوقاية منها. ساهمت اكتشافاته الطبية بتخفيض معدل وفيات حمى النفاس وإعداد لقاحات مضادة لداء الكلب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والجمرة الخبيثة، كما دعمت تجاربه نظرية جرثومية المرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اتخذتُ مكانًا داخل قاعة القراءة بالمكتبة العمومية، وقد تبدّى لي أني عميلٌ مزدوجٌ تسلّل إلى مقر المخابرات السوفياتيّة لإعداد تقرير استخباراتي عن أحد أفراد عائلتي. طمأنني ديكور القاعةِ ذو الطابعِ السوفياتيّ- سقف من الزّجاج المصقول، أرضيّة مفروشة بسجّادة رماديّة اللون تشبهُ سجّادة مكتب ستالين، صناديق ملفّات ضخمة، لونها صنوبريّ، ولها مقابض معدنيّة صغيرة مصنوعة من مادّة الكروم- وشعرتُ كما لو أنّي أسقطتُ داخل صورةٍ قديمةٍ لأستكشفَ ماضيّ بالأبيض والأسود.

طلبتُ من أمين المكتبة أن يأتيني بكلّ ما كتبَ عن سلفي: سجّلات النعي والكتب والنشريات الإخباريّة والمجلات. صنعَ ما كان يضعهُ في كلّ مرّة على الطاولة ما يشبهُ جدارًا فصل بيني وبين جارتي ذات الشعر الأحمر، وقد كانت مستغرقة في مطالعة كتابٍ مصوّرٍ عن الأمراض الجلديّة، بينما رحتُ أكتشفُ رويدًا رويدًا، ودونَ ترتيبٍ، كلّ ما كتب أو قيل عن شخصيّة «فيلكيس أرخميدس». ولقد قرأتُ أنّ مدينة «روان» كانت قد نظّمت، في العام 1973، مؤتمرًا جمعت أشغالهُ في كتاب بعنوانٍ» فيليكس أرخميدس بوشيه، مؤسس علم دراسة الخلايا الحديث، ومؤسس متحف روان». كان العلماءُ يستشهدونَ بأعماله في أبحاثهم، مثل عالم الاجتماع «برونو لاتور» الذي خصّ حالته بفصلٍ كاملٍ في أحد كتبه، أو مؤرّخة علم الأحياء «مارليز كانتور» التي خصّته بأطروحة دكتوراة كاملة حملت عنوان: «بوشيه، العالمَ والمرشد» (وجدتُ العنوان بسيطا ورائعًا). يا إلهي، لقد كرّست له أطروحةً كاملة، هكذا فكّرت وأنا أطالعُ الرسومات البيانيّة وجداول الدخول المزدوجة والإحصائيات. كان ما قرأتهُ باردًا ومغريًا مثل ملمس الرّخام، ولبرهةٍ، رحتُ أفكّرُ في أطروحتي التي كنت على وشك التخلي عنها عند رصيفِ مساري الجامعيّ بسببِ خمولي. يحدثُ أحيانًا أن أتخيّلها تهيمُ على وجهها بحثًا عنيّ، ولا غذاء يقيم أودها سوى الشطائر المثلّثة وكؤوس القهوة الرديئة التي تتناولها كيفما اتفق على الطرقات السّريعة المهجورة. بيد أنّي سرعان ما نفضتُ عن ذهني تلك الصورة المؤلمة وطلبتُ من أمين المكتبة أن يأتيني بصناديق الورق المقوّى التي تحتوي على كلّ نشريات متحف التاريخ الطبيعي في «روان» منذ العام 1860، مباركا في سرّي كلّ من أشرفوا عليها، لأنّهم منحونا، أنا وسلفي، جزءًا من حيواتهم، ووفّروا لي فرصة

الاطلاع على جانبٍ من تاريخي العائليّ. وانطلاقًا من تلك المستنداتِ التي كانت في حالٍ من الفوضى، حاولتُ إعادة تنظيم الأمورُ في ذهني، والعثورَ على سببٍ تخصيص سلفي بتلك المراجعِ غير المقروءة والكتبِ التي تضوعُ منها رائحة العفن المحبّبة.

ولد «فيليكس»، ابن «لويس إيزيكياس» وحفيد «أبراهام بوشيه»، في عائلة بروتستانتية، وكان ترتيبهُ الخامس والأخير من بين إخوته وهم «لويس بروتوس» و«سولون» و«هنري أدولف» و«أوغست إيودور». أمّا والدهُ، فكانَ شقيقًا لستة عشر أخًا وأختًا. وإذ توغّلتُ في القراءة، بدا لي كأنّي عدتُ إلى فجر التاريخ، وشعرتُ بأنّ الكتاب المقدّس كانت تعادُ كتابتهُ أمام عينيّ في تلك اللحظة، داخل فلسطينَ أخرى تقعُ في منطقة «النورماندي»، وبشخصيّات أخرى، هم رجالُ صناعة بارزون وماسونيون، حلّوا مكانَ الأنبياء والرّسل.

ولد «فيليكس أرخميدس» سنة 1800 (في اليوم الثامنِ من شهر فريكتيدور(106) تحديدًا). وما كاد الفتى يبلغُ سنّ الحلم حتّى توفّي والدهُ. كانَ ذلك الأخيرُ رجل صناعة محبًا للأعمال الإنسانية وصديقًا للعلماء وشغوفًا بالمناطيد وعقلاً ساميًا، بحسبِ ما قرأت. وقبيل وفاتهِ، أراد استيراد آلات غزلٍ جديدة من إنجلترا لكنّ الصفقة فشلت، وذلك ما يفسّرُ أنّهُ لم يترك ثروةً وراءه، باستثناء مكتبةٍ ضخمةٍ آلت إلى ابنهِ «فيليكس أرخميدس». ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، سينهمك الفتى «أرخميدس»، البالغ من العمر حينها سبع سنوات، في التهامِ كتبِ الفيزياء، بينما كان أقرانهُ ينفقون أوقاتهم في مطالعة روايات الفروسيّة. وسرعان ما عثر الفتى على قسمٍ ضخمٍ داخل مكتبةِ الأب، وهنالك اصطدم بسبعةٍ وثلاثين مجلّدًا من كتابٍ سيكونُ هو السّبب في انقلاب حياتهِ رأسا على عقب، كتاب «التاريخ الطبيعي»، الذي ألّفهُ «جورج لويس لوكلير»، كونت مقاطعة «بوفون». كان «لوكلير» قد بدأ كتابة عمله الضخم في العام 1739، في الفترة التي عُيّن فيها مشرفًا على حديقة الملك، وهو ما وفّر لهُ أوقاتَ فراغٍ أنفقها في التفكيرِ بحرّيّةٍ، وتأليف مؤلّفه الهائل المكوّنِ من خمسة عشر مجلّدًا أرفقها برسومٍ توضيحيّة كان قد خصّصها للتاريخ الطبيعي العامّ والخاصّ، وتسعة مجلّدات عن الطيور، وسبعة مجلّدات عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأغذية وخمسة مجلّدات عن المعادن، وتوّج كلّ ذلك، بمعاهدة «المغناطيس». ولقد وضّح كونت «بوفون» رؤيته في مقدّمة عملهِ الضخم، حين قال: «إنّ هذه الأعداد الهائلة من رباعيّات القوائم والطيور والأسماك والحشرات والنباتات والمعادن، إلخ، تمنحُ العقل الإنساني عرضًا هائلاً، ومن العظمةِ بمكانٍ، حتّى إنّ تفاصيله تبدو للعينِ كأنّها خزّانٌ لا ينضبُ». كان من الممكن أن تشغلَ قراءة ذلك الكتابِ حيوات عدّة رجالٍ، لكنّ «فيليكس أرخميدس» لم يتعب قطّ من قراءته، في منزلهِ بـ «روان»، مخصّصا أيّام فصلي الشتاء والصيف لتلك المهمّةِ (كان يخصّص فصلي الخريف والرّبيع لقطف الأزهار وبناء معشّبهِ وربّما أيضا لجمع الحشرات). كان كتابُ كونت «بوفون» هو شغفهُ الأوّل، شغفٌ حوّلهُ إلى نبتةٍ آكلةٍ للحوم هي عبارة عن كتبٍ علميّة، وهو ما لم يتعافَ منهُ قطّ حتّى آخر أيّام حياتهِ. بعد سنواتٍ، ومن شدّة حبّهِ للكونت، أطلق على ابنه اسم «جورج»، وبما أنّ الكلاب لا تنجب القطط، سيصبحُ ابنهُ ذاك عالم طبيعة وتشريح، بل وأحد أكثر المختصّين في حيتان العنبر شهرةً في العالم. فما الذي يمكنُ أن يتمناهُ المرءُ لابنه أكثر من ذلك؟

انطلاقا من تلك القراءة الأولى، شعرتُ بعجزي عن مقاومةِ ما في دلالاتِ الاسم(105) من إغراء، وخمّنتُ أنّ «فيليكس أرخميدس» سيكونُ عالمًا لا محالة. عدتُ إلى المراجع، وقرأتُ أنّ «فيليكس» فقد والدتهُ، بعد ثماني سنواتٍ من موتِ أبيه، فأصبح يتيمًا تمامًا وهو في الخامسةَ عشر من عمره. كان الصبيّ بلا دخلٍ، ولذا عهد إلى كاتب عدلٍ تولّى أمرَ تعليمه. ولأنّ الفتى كان ينفق جلّ وقته في قراءة كتب علوم الحيوان والتاريخ الطبيعي بدلاً من نسخِ عقود الهبات والرهونات العقارية، كان من الطبيعي أن يطرد من الدراسة ويوضعُ تحت وصايةِ أحد أعمامه. ولسوء حظّ «فيليكس»، لم يكن ثمّة ما يعرفُ بدروس علوم الأحياء في ذلك الوقت، فاضطرّ إلى أخذ دروسٍ في الطبّ على يد أستاذ الجراحة «أخيل كليوفاس فلوبير»(104)، والد «غوستاف»(103) الذي كان بدوره تلميذًا لـ «فيليكس أرخميدس» وصديقا لابنه «جورج» (يعودُ الفضل إلى فيليكس في حصول الكاتب على البَبّغاء الذي اعتمدهُ كنموذجٍ لشخصيّة الببغاء «لولو» في قصّة «قلبٍ بسيط»(102). وهكذا منح «فيلكس» البطلة «فيليستي» والأدبَ عمومًا أحد أكثر طيوره إثارةً للعواطف).

في السابعة والعشرين، غادر «فيليكس أرخميدس» «روان» متوجّهاً نحو «باريس» ومتحفها المخصّص للتاريخ الطبيعي، حيث عرضت عليه وظيفة معدّ معارض. والأقربُ إلى الظنّ أنّه دخل «باريس» بعد أسابيع قليلة من وصول «زرافة»(101) إليها – وهي زرافة أهداها محمد علي باشا، حاكم مصر إلى شارل العاشر، ملك فرنسا وتعدُّ أوّل زرافةٍ تصلُ إلى فرنسا. وممّا يروى أنّ عالم الطبيعة الجليل، «إيزيدور جوفروا سانت هيلير «(100) رافق الحيوانَ من القاهرة إلى الإسكندريّة سيرًا على الأقدام، في موكبٍ رائعٍ، مع حاشية مكونة من ثلاث أبقار حلائب خصّصت لإطعام الزرافة. ولقد أشارت صحفُ تلك الحقبة إلى شدّة اهتمامِ «إيزودور» بالزرافة إلى حدّ خياطةِ معطفٍ واقٍ من المطر لحمايتها من تقلّبات العوامل الجوّية.

لقد كان بوسعِ «فيليكس» أن يصيرَ جرّاحًا، بيد أنّه فضّل مراقبةَ الطبيعة على مراقبة أمراض البشر. ومن ثمّة أنجز أطروحةً في علوم النبات حول «التاريخ الطبيعي والطبّي للباذنجانيات»(99) (إذا فهمت الأمر جيداً، قام الرّجل بجرد أنواعها وخلص إلى أنّ فصيلة الباذنجانيات تتكوّنُ من 97 جنسًا و2700 نوعًا، وهو ما رأيتُ فيه عملاً كان يستحقُّ كلّ ما بذلهُ الرّجل فيه من جهدٍ).

لقد أحببتُ، بينما كنت أقرأ قصّة حياة الرّجل، ما في تلك السيرة الذاتيّة من قوّةٍ لا شائبة فيها. صحيحٌ أنّي شككتُ في احتماليّة تعرّضها للتحريف، جرّاء الإضافات وإعادة الكتابة اللاحقة، بيد أنّ ذلك لم يكن مهمّا في نظري. ما شدّ انتباهي بالفعل هو قصّة شابٍّ شقّ طريقهُ وكان يعرفُ ما يريدُ. والحقّ أنّي لم أصبر على مقارنة نفسي به، إذ كنتُ أجهلُ ما أريدُ ومع ذلك أتوقُ إلى معرفة ذلك بشدّة.

بعد مناقشة «فيلكس» لأطروحته، عاد إلى «روان»، وهناك تخلّى عن النباتات وتخصّص في الحيوانات. تمّ تعيينهُ في مرحلة أولى أستاذًا لعلم الحيوان، مختصا في حقبة «ما قبل الطوفان العظيم»، ثمّ اقترح عليه عمدة «روان» تولّي إدارة الحديقة النباتيّة التي تحوّلت على يديهِ إلى متحفٍ حقيقيّ للتاريخ الطبيعيّ. في تلك الفترة، نشط «فيلكس» كما لم يفعل قطّ من قبلُ، وصارَ يشارُ إليهِ كأستاذٍ معروفٍ، وعالمٍ ملتزمٍ بمتحفهِ ومنطقته. في السنوات التي تلت ذلك، كتب عددًا من

رسائل التحسيس لفت فيها أنظار السلطات العمومية إلى عددٍ من المسائل. من بينها رسالة عن عادات الخنافس وتكاثرها ووسائل الحدّ من أضرارها، ورسالة أخرى عن التاريخ الطبيعي لتربية الخرفان كان عنوانها «طرقُ تحسين الصّوف». قبل ذلك، كان قد نشر رسالة بخصوص موضوع أسراب ثعابين الماء، على طول نهر «السيّن» وصناعة تربية الثعابين في منطقة «كوماتشيو»(98)، وجّه فيها اهتمام محافظ «روان» إلى ضرورة استغلال أسراب ثعابين الماء التي تغادر، حال انتهاء عمليّة التفقيس، مجرى نهر السّين ليلاً، وبأعداد ضخمة (كان قد عاين ذلك بأمّ عينيه)، قبل أن تختفي تمامًا في ظروف غامضة (قد يعثرون عليها في مثلث بيرمودا، فكّرتُ ساخرًا)، بينما كان الممكنِ الإمساك بها وتربيتها وصيدها ومن ثمّة «نزوّدُ أسواقنا بحصادٍ وافرٍ من اللحوم»، كما ورد في رسالته.

ولقد فكّر «فيلكس» كذلك في غرقى النّهر ونشر التماسات بسط فيها طرقَ إنقاذهم. كان يسبحُ في كلّ بحار العلوم، وشارك في إنشاء جمعيات العلوم المحليّة، في علوم الأحياء والطب والأنثروبولوجيا، وصار قريبًا من التحوّل إلى «أرخميدس» جديد، ووقتها سيكونُ في مقدوره توشيح مقدّمات كتبه بالألقاب والرتب التالية: «لقب فارس حاصل على وسام جوقة الشرف الإمبراطوري، ولقب ضابط حاصل على وسام الأسد والشمس الإمبراطوري، وعضو أكاديمية العلوم والآداب في «روان»، وعضو في أكاديميات العلوم بـ «ستراسبورغ» و«تولوز» و«كاين» و«شيربورغ» و«ليزيو» و«البندقية» و«فيلادلفيا» و«تورينو» و«بروج»، وعضو بجمعيتي «لينيان» و«آثار نورماندي»، ومراسل معتمد لدى وزارة التعليم العام والأبحاث العلمية، إلخ.»

في تلك اللحظة، تساءلت: ترى، هل سيسمحُ لي، في يومٍ من الأيّام، بمصافحة أصحاب الرتب الأكاديميّة العليا؟ فكّرتُ ساخرًا أنّ صفتي كمراسلٍ معتمدٍ لدى وزارة تساقط الطيور النافقة، قد تؤهلني للحصول على وسامي «النمر» و«المشتري»، وتمنحني عضويّة مدى الحياة في كلّ الجمعيّات المحليّة المهتمّة بالطيور، والمنتشرة في قرى وبلدات فرنسا.

عدتُ إلى الفهرس أراجعهُ، قبل أن أطلب من أمين المكتبة أن يأتيني بكلّ ما هو

متاحٌ من كتب «فيليكس» الأخرى، كأبحاثه وتجاربه على شائعات عودة الحيوانات إلى الحياة، وهي أبحاثٌ نشرت في العام 1859 (قبل ثلاثة عشر عاما من وفاته)، أو بحثه حول تشريح الرخويات ووظائفها الحيويّة، وهو بحثٌ من خمس وعشرين صفحة قدّمت ملّخصًا حول المسألة، كما قدّرت، إضافةً إلى تجاربه حول تجميد الحيوانات... كنتُ أطالع عناوين مؤلّفاتهِ كمن وقع على قصيدةٍ طويلةٍ محكمة فراح يستمتعُ بها (ألم يخلق العالمُ بالنّهاية لكي يصلَ المرءُ إلى مثل تلك السيرة الذاتيّة الرّائعة؟). إلى جانب البحوث والتجارب، كان هنالك أيضًا مجموعة من الكتب: فكتابه «رحلة إلى إيطاليا»، كان تاريخُ إصداره سابقًا لكتيّبهِ حول «تحوّلات أعشاش السنونو أبيض البطن». أضف إلى ذلك كتبه «اعتبارات حول مسألة تنظيم الحيوانات المنويّة لحيوان السمندر المائي» و«مذكرات حول تنظيم صفار بيض الطيور» و«تشريح اللّزيقات(97) الدّامية» و«بحوث حول المقاومة الحيويّة للامرئي».

باختصارٍ، كان «فيليكس أرخميدس» قد جرّب وكتب وسافر. وبخصوص المعطى الأخير، عثرتُ على عديد المنشورات التي تحدّثت عن رحلاته إلى «ألمانيا» و«إيطاليا» و«مصر»، وهي رحلات مكّنتهُ من جلب أنواعٍ عديدة من النباتات والحيوانات، فضلاً عن الصخور والكتب، إلى المتحف. كانت زوجته «آن كريستي»، المولودة في «إنجلترا»، تتبعهُ حيثما ذهب، وأوقعت في سحرها الآسر، كلّ من كانا يلتقيانهم خلال رحلاتهما من باحثين وعلماء طبيعة. ولابدّ أنّ سحرها ذاك هو ما دفع عالم الطيور الكبير، الإنجليزي «جون غولد»، إلى إطلاق اسمها على عصفور طنّانٍ كان قد اكتشفهُ في «أستراليا». وبالنتيجة، أطلق اسم «هيليوثريكس بوشيتي» على ذلك الطائر الطنّان الصغير، وهو اسمٌ وجد طريقهُ، بلا شك، إلى فهارس طيور «أوقيانوسيا» وموسوعاتها. بالمحصّلة، كانت النتيجةُ أفضل ممّا كنتُ أتوقّعُ، لا سيّما وقد اكتشفتُ أنّ لقبي هو اسم أحد أنواع الطيور الطنّانة. بل هنالك ما هو أفضلُ من ذلك، ثمة طيورٌ طنّانة ارتبط اسمها باسمي. من تكون تلك الطيور؟ كيف تبدو؟ وكيف تعيشُ تلك الـ «هيليوثريكس بوشيتي» على وجه الدّقة؟ الحقّ أني لا أدري.

كنتُ أمضي في قراءة كلّ ما يقعُ تحت يدي، ولم أستطع منع نفسي من التفكير في احتمالية وجودِ منطقٍ خفيّ سابقٍ على كلّ ما يحدثُ لي، ذلك أنّي أنّى توجّهتُ،

إلا ورأيتُ الطيورَ تعترضُ طريقي.

وبما أنّ التوغّل داخل تلك السيرة الذاتيّة الشبيهة بالأدغال كان يستوجبُ منّي الإمساكَ بعريشة أولى على الأقلّ، اخترتُ كتابًا تبسيطيًا، جذبني عنوانهُ الباسكاليّ(96). كان كتابُ «الكونُ، اللامتناهي في الكبر، واللامتناهي في الصغر» قد نشر للمرّة الأولى في العام 1868، وأعيد طبعه ثلاث مرّات، وترجم إلى الإنجليزية والإيطالية. كان ذلك الكتاب من أكثر كتبه مبيعًا فضلاً عن احتوائه على رسوم توضيحيّة بديعة. وكأنّ القدر يصرّ على تنبيهي إلى وجود ذلك المنطق الخفيّ، ألفيتُ «فيليكس» قد خصّص عدّة صفحات من كتابِهِ لأمطار الحيوانات. لقد تحدّث عن أمطار أسماك الرنكة والضفادع فوق مدينة «هام» في العام 1834، قبل أن يعرّج، في الصفحة 166، على ظاهرة كانت قد رافقت هجرات طيور السنونو، إذ كتب يقول: «في عدة مناسبات، رأيتها تسقط شبه ميّتة، وقد أنهكها الجوعُ والتعب، فوق سطح الفرقاطة التي كانت تعبرُ بي البحر الأبيض المتوسط».

صحيح أنه لم يضف تفاصيل أخرى، لكني لم أهتمّ. كلّ ما كان يعنيني هو أنّه رأى مثلي طيورًا تسقط فشعر بالقلق. فكّرتُ أنّي بصدد مواصلة ما بدأه. وطالما أنّي ورثتُ الهواجس نفسها، دونَ علمي، فما عليّ سوى تولّي زمام الأمور. هكذا حدّثتُ نفسي.

وسط الصمت الذي يغلّف المكتبة، كان حماسي يزدادُ بإطراد كلّما أنهيتُ مجلّدًا جديدًا وهدمتُ جدار الكتب الذي يحيطُ بي، صخرةً صخرةً، بل وصل بي الأمرُ أحيانًا حدّ التلويح بيدي في كلّ الاتجاهاتِ وإطلاق صرخات قصيرة مفاجئة، وهو ما أزعج جارتي، أخصائية الأمراض الجلديّة المبتدئة، فراحت تحدجني، من حينٍ إلى آخر، بنظراتٍ تقطرُ مقتًا، قبل أن تحزم أمرها وتغيّر الطاولة. كنتُ أعرفُ أنّ ما عثرتُ عليهِ من روابط، خيّل إليّ أنها منطقيّة، فيه الكثير من التعسّفِ والارتجال، ولن يصمد أمام أيّ اختبار علميّ جادّ، ومع ذلك، كنتُ أشعرُ في قرارة نفسي بأنّي على الطريق الصحيحة، وعلى وشك الاقترابِ من شيءٍ ما، قد لا يكونُ معرفة سرّ سقوطِ الطيور بالضرورة، وإنّما اكتشاف سرّ لغزٍ أقدمَ من تلك الأمطار وأكثر غموضًا.

استغرقتُ أكثر في مقالات سيرة «فيليكس أرخميدس» الذاتية، مركزًا بحماسةٍ غريبة على فصولٍ بعينها، كانت لغتها ثقيلةً أحيانًا، ومراجعها تتجاوزُ قدراتي الفكريّة، ورحتُ أسوّدُ دفتر ملاحظات الطيور النافقة بفقراتٍ كاملة منها، وقد وقر في قلبي أنّي عثرتُ في «فيليكس أرخميدس» على نموذج للطموح المستنير. أضف إلى ذلك، كانت تلك المقالات تنتهي بسرد أطوار القصّة الشهيرة التي حدّثني عنها «إيمانويل إيتيان»، أثناء لقائنا المخيّب للآمال، داخل مكتبه في المتحف، وذلك تحديدًا هو ما استدعى كلّ تركيزي على ما صنع مجد سلفي العلمي وأودى بمساره في آنٍ، أي قضيّة «التولّد العفوي»(95).

لقد كانت مواجهة خصومهِ، دفاعًا عن تلك الفرضية، هي آخر معركةٍ يخوضها. قبل ذلك، كان نجمهُ قد لمع بعد نجاحه في إثباتِ إمكانيّة حدوث الإباضة على نحوٍ عفويّ لدى النساء والثدييات، وقد كان يُعتقدُ سابقًا أن الإخصابَ هو ما يتسبّبُ في الإباضة. ولقد نجحَ «بوشيه» في دحضِ ذلك الرأي بفضل عشرات التجارب التي أجراها على إناث الأرانب والخنازير، وبمعرفةٍ دقيقة باستخدامات المجهر، وهي معرفة بزّ فيها أقرانه، مكّنته من التوصّل إلى ملاحظاته. إثر ذلك، قام بنقل المعركة إلى مجالٍ آخر، وهو «التولّد العفوي»، ويطلقُ عليه أيضا اسم اللاتجانس. ولقد شرح موقفهُ في مقدّمة كتابه «اللاتجانس أو معاهدة التولّد العفوي» (كنتُ قد فتحتُ الكتاب المكوّنَ من 696 صفحة، ورحتُ أقرأه بعينين ذاهلتين تحت ضوء بولشيفيٍ هو ضوء نهاية الظهيرة)، إذ كتب يقول: «التولّد العفويّ هو ولادةُ كائن حيّ جديد، بلا أبوينِ، مستمدًّا عناصرهُ الأساسيّة من المادّة المحيطةِ به». كان «بوشيه»، المنخرطِ في سلسلة طويلة من النظريّات السابقة على اكتشافهِ، قد أجرى تجارب جديدة ولاحظَ أشياء مدهشة، وبخصوص هذا يقول: «لقد لاحظنا وجود العديد من الحيَيوينات(94) ومَنثورات الزُهر(93) كانت قد تشكّلت داخل الدوارق (وهي زُجاجَات ذاتُ عُنُقٍ طَويلٍ)، وذلك بعد تدمير كلّ الكائنات العضويّة المجهريّة مسبقًا، ووضع مراشح قويّة تمنعُ وصول الهواء، سواءً من خلال غسل الدوارق بكثافة بحمض الكبريتيك المركّز، أو وضع كميّة كبيرة من شظايا البورسلين والصخْر الحديدي التي وقع تسخينها في درجة حرارة حمراء». باختصار، ما أراد «فيليكس»

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

قولهُ، هو أنّ جمع بعض العناصر وهي المادّة القابلة للتعفّن والهواء والماء، ووضعها داخل دوارق تمّ تنظيفها بالكامل من الكائنات العضوية المجهرية (كما كان يعتقد)، يؤدّي إلى ظهور حيينوينات وكائنات صغيرة، أي يؤدّي إلى ولادة الحياة. بمعنى أدقّ، ثمّة مادّة حيّة، أوليّة، ينشأ منها جيلٌ بلا أبوين، وتلك هي معجزة الطبيعة، بحسب «فيليكس أرخميدس».

وإذ رحتُ أدوّنُ كلّ ذلك فوق دفتر ملاحظاتي، شعرتُ برغبة جامحة في وضع نقاط التعجّبِ في كلّ مكان. كان «فيليكس» يقول إنّ هنالك نفحةُ حياة، وقوّة إبداعيّة تعملُ خارج مبدأ الخلق، كان يطلقُ عليها تارةً اسم «القوّة الغامضة»، وتارةً اسم «المبدأ الحيويّ» وتارةً أخرى اسم «التمظهر البلاستيكي»!

ورغم كلّ شيء، بدت لي خلاصاتهُ جريئة بالفعل. بالطبع، كنّا نعرفُ أنّهُ إلى حدود القرن السابع عشر، كان هنالك مجموعة من غرباء الأطوار قالوا إنّ خلط بذور القمح بالماء مع إضافة قميص ملطّخٍ بالعرق داخل دلوٍ بعيد عن ضوء الشمس يؤدّي إلى ولادةِ فأرٍ بعد عشرين يومًا من الحضانة. وبالمثل، قرأنا عن آخرين ادعوا أنّ اليرقات تتولّدُ من الجيف. بيد أن ذلك لا يعني أن الأناس الجادّين لم يتطرّقوا إلى ذلك الموضوع قبل حوالي ألفي عامٍ. ولقد استشهد «فيليكس» بمن سبقوهُ، وقام بتعديل تحاليلهم، مؤكدًا أنّهُ لم يكن أوّل من اقتنع بتلك الحقيقة البديهية، إذ سبقهُ إلى ذلك، «پلينيوس الأكبر» و«بلوتارخس»(92) و«ديودور الصقليّ»(91)و«فيرجيل»(90). فوفقا لنصوص هؤلاء، شوهدت حشرات مولودة من غبار الكهوفِ، وولّدت تربةُ مصر جرذانًا وخرج النّحلُ من لحوم الثيران الفاسدة ...أضف إلى ذلك، ثقة علماءٌ آخرون، أقربُ إليه زمنيا، كانوا قد آمنوا هم أيضا بفرضيّة التولّد العفوّي ودافعوا عنها مثل الكونت «بوفون» و«لامارك»(89) و«جوفروا سانت هيلير «. كان واضحًا بالنسبة إليّ أنّ «بوشيه» لم يكن يؤمنُ بالولادة الفوريّة لحيوانات مثاليّة، نشأت إثر التقاء عرضيّ بين عناصرها والمادّة المحيطة بها. وبالمثل لم يكن يؤمن بأنّ الثعابين تولد من الأرض والقواقع من الطمي. لكن لو أخذنا الأمر من زاوية مستويات الخلق الدنيا، لرأينا كيف أثبت بوضوحٍ إمكانية الولادة العفويّة لكائنات مجهريّة بلا أبوين، هي

عبارة عن حييوينات يتيمة.

الحقّ أني شعرتُ بشيء من الضياع، وأنا أقرأ الصفحات التي فسّرت سبب ما عاشهُ الرّجل من مواجهات. كلّ ما فهمتهُ أنّ ملاحظات «فيليكس أرخميدس» لم تحظ باستقبالٍ جيّدٍ من قبل المجتمع العلميّ. حدث ذلك في العام 1858، وقد كان يبلغُ من العمر وقتها ثمانٍ وخمسونَ عامًا (كم تبدو المصادفاتُ بسيطة أحيانًا). لقد اندلع الجدلُ عندما قام بإرسال أطروحةٍ تدافعُ عن ذلك النمط من التكاثر إلى أكاديمية العلوم. في ذلك الوقت، أبدى كيميائيّ شابّ، يشتغل على مجال التخمير، وموضوعات أخرى لا علاقة لها بمجالات اختصاص «بوشيه»، صدمتهُ من أطروحةِ ذلك الأخير. كان ذلك الشابّ يدعى «لويس باستور»، وهو باحثٌ شديد الثقة بنفسه، يبلغُ من العمر ستّة وثلاثين عامًا، وينتظرهُ مسارٌ مهنيّ رائع. ولقد سارع ذلك الباحث الشابّ إلى دخول حرب طروادة مفتوحة وضارية ضدّ نظريّة التولّد العفوي، استمرّت قرابة العشر سنوات.

كان النقاشُ قد احتدم بالفعل بعد رسالة «بوشيه» الأولى، فما كان من أكاديمية العلوم (وقد كانت النزاعات العلميّة تؤولُ إليها في ذلك الوقت لتفصل فيها) إلاّ أن قرّرت في العام 1862 اخضاعَ النظريّة إلى مسابقة، لكي تتمكنَ من الفصل فيها. كان «بوشيه» يقولُ إنّ دوارقةَ تنضخُ بالحياةِ بعد رشح الهواء منها، بينما دافع «باستور» عن أطروحةٍ تقول إنّ ما يراهُ «بوشيه» من حياةٍ داخل دوارقهُ سببهُ الهواء تحديدًا. ولإثبات وجهة نظره، قام بغلي ماءٍ متعفّنٍ داخل الدوارق وأحكم إغلاقها. وبالفعل، لم تظهر حييوينات «بوشيه» إلى الوجود، ما دفع بلجنة تحكيم الأكاديمية إلى إعلان «باستور» فائزًا ومنحه صكًا، بالمرّة، بلغت قيمتهُ 2500 فرنك فرنسيّ.

Telegram:@mbooks90

مثلما كان متوقّعًا، ثارت ثائرة «فيليكس أرخميدس» ورفض الاعتراف بهزيمته. فمن وجهة نظره، عمد «باستور» إلى تسخين الدوارق في درجة حرارة عالية جدًا وهو ما نتج عنه قتل الحييوينات التي قد تكونَ تشكّلت داخلها. أدّى ردّ «بوشيه» إلى اندلاع مواجهةٍ طويلة بين الرّجلين، ودخولهما في معارك كرّ وفرّ علميّة، وبات لكلّ منهما متعصّبوهُ ومناصروهُ وجيشه الخاصّ المشكّل من رجال المخابرِ والمحكّمين.

CamScanner

ولم تتخلّف الجرائدُ عن الوليمة، فدافعت صحيفتا «المراقب العلميّ» و«جريدة النقاشات» بضراوة عن «باستور»، بينما فتحت جريدتا «كوسموس» و«صديق العلوم» صفحاتها أمام ردود «بوشيه». في تلك الفترة، اتهم «بوشيه» بأنه ماديّ مجنون وملحد ينكر خلق الله. ولقد ردّ «فيليكس» على ذلك الاتهام بالقول إنّ لا شيء يمنع الله، وقد خلق العالم في ستّة أيّامٍ، من العودة إلى عمله بانتظامٍ وإعطاء الحياة (خصوصًا داخل دوارقهِ). في واقع الأمر، لم يكن ثمّة سبب واحدٌ يدعو الله إلى كسر قوالب الخلق واتخاذ يوم الأحد يوم عطلةٍ أبديّة(88). في غضون ذلك، لم تكن كلّ من السلطة الإمبراطورية والكنيسة تنظران بعين الرّضا إلى أطاريح المؤمنين بنظريّة التولّد العفويّ، وهو ما وفّر الفرصة لـ «بوشيه» لكي يرى نفسه ضحيّة للقوى المحافظة التي اتحدّت جميعها على مهاجمةِ كلّ ما أنجزتهُ العلومُ من تقدّم مطردٍ.

الحقّ أنّي كلّما توغّلتُ في قراءة تلك المقالات، إلا وازددتُ انحيازًا إلى موقف «بوشيه»، وأعلنتُ دعمي له، رغم ما كان ما يفصلُ بيننا من عقودٍ وقرون.

واصل الرّجلان تجاربهما بلا هوادةٍ، ونشرا نتائجهما في العديد من الكتيّباتِ. لقد أراد «باستور» أن يبرهنَ على أنّ الكائنات الحيّة الدقيقة التي كان يعتقدُ أنّها اختفت من مزيج المادّة السّاخنة والهواء والماء، لم تختف في الحقيقة وإنّما بقيت موجودة في الهواء على شكلِ جزيئات غبارٍ، لا يمكنُ معاينتها حتّى باستخدام المجهر. من جانبه، رأى «بوشيه» أن أطروحة «باستور» لا تستقيم واتهمه ببيعِ الرّيحِ للنّاس، قائلاً بذلك الخصوص: من رأى منكم تلك الجسيمات التي يتحدّثُ عنها؟ كيف يرضى على نفسه أن يناقض ما راكمته البشرية على مرّ آلاف السنين من معارفَ منذ عهد «أرسطو»(87) حتّى اليوم؟

بيد أنّ ذلك الهجوم لم يفتّ من عضد «باستور» الذي غادر ««باريس نحو «بحر الجليد» في جبال الألب، وصعد إلى ارتفاع ألفي متر، ليبرهنَ على أنّ نقاوة الهواء في ذلك الارتفاع، تقلّصُ بالضرورة من ولادة الكائنات الدقيقة. ولم يتأخّر ردّ «بوشيه»، إذ حمل دوارقه ومادّته القابلة للتعفّن، وسافرَ إلى جبال البيرينيه، ومنها إلى «مالاديتا» وجبلها «مون بلان» الذي يبلغُ ارتفاعه ثلاثة آلاف متر، وهناك تمكّن

هو أيضًا من إثبات صحّة فرضيّاتِهِ من خلال عيّنات الهواء التي جمعها له صديقهُ الدكتور «كولبي» من قمّة الجبل.

في تلك الفترة، كان «بوشيه» في الرّابعة والستين من عمره ومنهكًا، لكنّ تجاربه ظلّت دومًا قاطعة: للمادّة قدرة على توليد الحياةِ ذاتيًا. وإذ تعزّزت ثقته في نفسه أكثر، طلب من الأكاديمية أن تشكّل لجنة خبراء جديدة للفصل في المسألة، مرّة واحدة وإلى الأبد. ولقد راح يلحُّ في طلبه ذاك حتى رضخت الأكاديمية وحدّدت للفريقين تاريخ 15 مايو 1864 لكي يعرضا أمام لجنتها نتائج تجاربهما.

لكن قبل أسابيع قليلة من ذلك التاريخ، قدّمَ «باستور» محاضرة في واحدة من أماسي جامعة «السوربون» العلميّة. وأمام جمهورٍ غفيرٍ، بدا ما قدّمهُ من دفوعاتٍ حاسمًا، عنيفًا، بل ومهينًا كذلك. لقد ابتدر الحضور بالقول: «سيداتي، سادتي، سأريكم للتوّ من أين دخلت الفئران»، وأضاف: «نظريّة التولّد العفوي هي ضلالةٌ، وكلّ من آمن بها، وقع في الخطأ». إثر ذلك، قدّم خلاصة تجاربه، وأخبر الحضور إنّ الكائنات الحيّة الدقيقة التي نمت في السّائل المغلّي جاءت من الخارجِ عن طريق إدخال الهواء إلى الدوارق، بينما لم يحدث ذلك عندما أغلقت الدوارق بإحكامٍ، وذلك لسببٍ بسيطٍ، وهو أنّ تلك الكائنات الدقيقة التي اعتقد «بوشيه» أنها تولّدت عفويًا، ما هي إلاّ جسيماتٌ موجودةٌ مسبقا في الطبيعة (تلك الجسيمات سيطلقُ عليها العلمُ بعد ذلك اسم الجراثيم). ومن ثمّة خلص إلى أن نتائج «بوشيه» كانت خاطئة قائلاً إنّ الهواء يحتوي على تلك الجسيمات اللامرئيّة القادرة على التكاثرِ بسهولةٍ داخل أجسامٍ قابلة للتعفن، وفي كلّ مكانٍ. بعبارة أخرى، برهن «باستور» على أننا نسبحُ داخل بحارٍ من الجراثيمِ، لا نعرفُ عن وجودها شيئًا ولا نراها. كانت نبرتهُ، وهو يتحدّث، قاطعة حازمة، قبل أن يجهز على خصومهِ، بجملته الأخيرة القاتلة، إذ قال مخاطبا الحضور: «لن تتعافى نظريّة التولّد العفوّي قطّ من الضربة القاضية التي وجّهتها لها».

بعد تلك المحاضرة الرّهيبة، قام «باستور» بإعادة تجاربه أمام أنظار لجنة الأكاديمية. بالمقابل، قدّم «بوشيه» وفريقه التماسا إلى اللجنة بتمديد المهلة،

متعلّلين بعدم جاهزية البروتوكول التجريبيّ. وفي شهر جوان من العام 1864، سيضطرّ أعضاء اللجنة إلى انتظار «بوشيه» طويلاً، بعد أنْ قرّر ذلك الأخير عدم تكرار تجاربه أمامهم، شاعرًا بأنّ مصيره قد تحدّد بالفعل أمام لجنةٍ كانت منحازةً إلى «باستور» على نحوٍ أعمى. ما الذي يدعوهُ، والحالُ تلك، إلى رمي نفسهِ في فم ذئبٍ، هو عبارة عن دوارق طويلة الأعناق صمّمها «باستور»؟

وإذ مثل «باستور» لوحدهِ أمام لجنة التحكيم، لم تجد تلك الأخيرة من بدّ سوى إعلان حكمها النهائي، وهو بطلان نظريّة التولّد العفوّي. وانتهى كلّ شيء. وداعًا أيتُها الجسيماتُ اليتيمة. وداعًا أيتها الكائنات المتكاثرة ذاتيًا.

لقد صدق «باستور» في تحذيره، إذ أنّ نظريّة التولّد العفوّي لم تتعاف قطّ من الضربة القاصمة التي وجّهها لها. وهكذا شهد الناس كيف سقط «فيليكس هيكتور أرخميدس» بالضربة القاضية، وكيف وضعت حرب طروادة البيولوجيّة أوزارها.

بعد هزيمة «بوشيه» الأخيرة، لم تعد الأمورُ كما كانت عليه في السّابق، فقد استمرّ عدد قليلٍ من مؤيّديه في مساندتهِ، فيما تخلّى عنهُ كلّ أصدقائه القدامى داخل الأكاديمية. ولم تقف الأمورُ عند ذلك الحدّ، إذ تعرّض إلى إهانات أخرى فقامت أوضاعه المتأزّمةِ أصلاً. ففي العام 1869، فصل ابنه «جورج» مؤقّتا من منصبه، وقد كان حينها يشتغلُ مدرّسا في متحف «باريس»، بعد اتهامه من قبل وزارة التعليم العام بأنّهُ يدافع سرّا عن أطروحة التولّد العفوّي في دروس علوم الأحياء التي كان يدرّسها للطلبة.

وعلى الرغم من كلّ ما حدث لـ «بوشيه»، إلاّ أنّه لم يتوقّف قطّ عن الإيمان بأطروحتهِ. وإذ كان «باستور» قد تمكّن في تلك الفترة من اكتشافِ الجراثيمَ وأسّس من ثمّة علم الأحياء الدقيقة، فإنّ «فيلكس» أمضى الثماني سنوات المتبقيّة في حياتهِ في محاربةِ ما اعتبرهُ مؤامرةً استهدفتهُ. لقد راح يحارب بلا هوادة دفاعا عن نظريّة التولّد العفويّ حتّى وافتهُ المنيّة.

مع حلول الظلام داخل قاعة القراءة داخل المكتبة، ألقيتُ نظرة من بين الكتب، متلفّتًا حولي، في الفراغ. لم أر جرثومةً أو كائنا دقيقًا. كانت حمراء الشعر، طبيبة

الأمراض الجلديّة المبتدئة، قد رحلت ولم يبق في المكتبة سوى عددٍ قليلٍ من القرّاء بدوا لي مثل الأشباح. شعرتُ بشيء من الإرهاق، لأنّي أمضيتُ حوالي خمس ساعاتٍ متتالية في فك أسرار قصص علوم الأحياء تلك ونسخها على دفتري، عاجزًا عن فهم سرّ ولعي بها. لقد أعجبتني نهايةُ المواجهة على نحوٍ مخصوص، فضلاً عن استمرار «بوشيه» على الإيمان بنظريّة التولّد العفويّ رغم ما اعترضهُ من صعابٍ، وما لقيهُ من مناصري «باستور». ولقد قرأتُ أنّ «باستور» قال عن بوشيه، بعد وفاة الأخير في العم 1872: «هذا العالمُ الفاضلُ يستحقُّ تقدير الجميع لمساهماته الخيّرة والمفيدة، بل ويستحقُّ منّا كلّ الاحترام حتّى وهو يمضي في أخطائه». صحيحٌ أنّ ما قالهُ «باستور» كان متعاليا عن الضغائن، لكنّي لم أبال البتّة بمشاعر احترامه لـ «بوشيه»، أو بالاحترام عمومًا. ما أحببتهُ حقًا في ما قالهُ هو عبارة «حتّى وهو يمضي في أخطائه»، بعيدًا، إلى النّهاية. لم يكن ما فعلتهُ في ذلك اليوم بالذات منطقيًا، ومع ذلك، أعترفُ أنّي شعرتُ بتضامن شديدٍ مع «فيليكس أرخميدس»، وأعجبتُ بسلفٍ ربّما لم يكن سلفي في الحقيقة. لقد صوّرَ التاريخُ ذلك العالم العظيم كمنهزمٍ سيّئ في معركة علوم الأحياء، وفاشلٍ صوفيّ رائع. ترى هل استمرّت لعنة الفشل بعد وفاته؟ هل تكاثرت الجراثيم ومنحت الحياةَ إلى أجيالٍ من الخائبين المنحدرين من سلالته؟ هكذا سألتُ نفسي. لطالما حدّثني «أناستازيا» عن افتقار البشريّة إلى من يعلّمها الفشل ويدلّها على طرق الإخفاق الناجحة. هل أكونُ قد عثرتُ على مرشدي بينما كنتُ أقرأ سيرة «بوشيه»؟

قبل بضع سنواتٍ، اختارت «أناستازيا» قرية «بورغوندي» كمعتزلٍ لها في أشهر الصيف، وكنتُ لا أتوانى، عندما أهاتفها، عن التذمّر من كلّ شيء، والشكوى من انهيارات العالم، وما ينوء به ظهري من أوزارها، فقرّرت ذات يومٍ أن ترسل لي بطاقة بريديّة، بها صورةٌ، بالأبيض والأسود، لشجرة كبيرةٍ ترعى تحتها مجموعة من الأبقار. وفي ظهر البطاقة، نسخت جملةً لـ «ميشو»(86)، جملة نجحت في ما لم تقدر الأحاديث الطويلةُ على فعله، إذ أعادت لي رباطة جأشي في ما تلا ذلك من أسابيع على الأقلّ. كانت الجملةُ تقولُ: «إن كنتَ رجلاً محكومًا عليهِ بالفشل، فاختر لنفسك طريقة فشلٍ مثاليّة على الأقلّ».

على أيّة حال، اختار «فيليكس» طريقة فشله المثالية. فقبل زوال ذكره تمامًا، كانت الموسوعات والقواميس والمقالات العلميّة قد احتفظت سريعًا بالحدث الذي اختزل حياتهُ كلّها، أي الرّجل الذي أخطأ في مواجهة «باستور»، واختصرت سيرتهُ في أسطر قليلة، وقدّم على أنّه «قرويّ موهوب في البحوث المجهريّة، ومدير متحف «روان» للتاريخ الطبيعي، منذ تأسيسه وحتّى وفاتهِ، ورجل علمٍ محدود ضيّق الأفق»، ومن ثمّة لفّ النسيانُ كلّ منجزهِ العلمي في مجالات الرخويّات وثعابين الماء والخنافس وعلوم الحيوان في فترة ما قبل الطوفان العظيم والإباضة العفويّة لدى الثدييات، فضلاً عن منجزه الرئيسي، ألا وهو تأسيسُ أجمل متحفٍ للتاريخ الطبيعي في مقاطعة فرنسية، وربّما في العالم بأسره. ولقد كان من شأن ذلك الإغفال المتعقد أن ذهب ببعضهم إلى حدّ افتراض أنّ الكاتب «فلوبار» استلهم شخصيّة «بيكوشيه» من «بوشيه»، في روايته «بوفار وبيكوشيه» (85)(كانت سيرتاهما تشتركان في السمات الذاتية نفسها، مع فارقٍ بسيط، وهو زيادةُ حرفين في اسم «بيكوشيه»).

في ذلك اليوم، شعرتُ بأنّ ليس من العدل أن يحظى «باستور» وحدهُ بكلّ ذلك المجد. الحقّ أنيّ لا أحملُ ضغينة لـ «باستور»، وأقرّ بأياديه البيضاء على الإنسانية، فهو الرّجل الذي أنقذ مهن مزارعي العنب ومصنّعي الجعة من خلال تعريفهم بطرق التخمير، وهو العالم العظيم الذي أنقذ دود القزّ من الأمراض الطفيليّة، قبل أن يكرّس حياته بالكامل لدراسة الأمراض المعدية التي فتكت بثلاثة من بناته. أضف إلى ذلك، كنتُ قد ذهبتُ إلى معهده، برفقة «أناستازيا»، لتلقّي التطعيم، عندما شعرنا بالحاجة إلى زيارة الهند، كباقي الخلق. أذكرُ أنّ ردّة فعل جسدي عنيفةً، بعد التطعيم، إذ تورّمت ذراعي كأنّي أنفقتُ ليالي بأكملها في قاعة لتقوية العضلات. وكأنّ ذلك لم يكن كافيا، إذ انفصلتُ عن «أناستازيا» قبل سبعة أيّامٍ من ركوب الطائرة، حين أدركنا أنّ ما تعاهدنا على فعله في رحلتنا الساحرة، كان أعجز من أن ينقذ علاقتنا. بالنّهاية، كان كلّ ما عرفته عن الهند هو قاعة الانتظار ذات الأرضيّة البيضاء في شارع «فوجيرارد»(84)، ومذاق جرعات التطعيم المرّ.

في الصيف التالي، شعرتُ بأنّي محصّنٌ تمامًا في «باريس». فلتهاجمني كلابها

الضالّة ولتعضّني حتّى تتفجّر الدّماء، أعرفُ أنّي سأقاومُ داء الكلب والتيفوئيد الذي يسببهُ الطعامُ نصف المطهوّ في حانات «المحطّة الشماليّة» الصغيرة. كنتُ أعرفُ أنّ جسدي منيعٌ حتّى لو اضطررتُ إلى شرب مياهِ المجاري. فبفضل «لويس باستور»، لم أعد أخشى شيئا، ومن ثمّة أمضيتُ ذلك الصيف ملقّحًا ووحيدًا.

كان لـ «باستور» معاهد تحملُ اسمه في جميع أنحاء العالم، معاهد ساهمت في تطعيم النّاس وإنقاذ أرواحهم. فماذا بقي من «فيلكس أرخميدس»؟ تمثال نصفيّ يعترضك في مدخل متحف التاريخ الطبيعي بالمقاطعة، وسيرة رجلٍ فاشل مضمّنة في نسخة قديمةٍ من قاموس «لاروس»، وإسهام في بلورة ملامح شخصيّة رواية خرقاء...

ومع ذلك، كنتُ أراه «هيكتور» أكثر منهُ «بيكوشيه». لقد بقي يدافعُ عن نظريّة التولّد العفويّ حتّى النزال الأخير، متحدّيا قبائل الأخيون(83) المناصرة لـ «باستور»، والحقائق العلميّة (في واقع الأمر، لا أدري من كان منهما على حقّ) وأقرب أصدقائه الذين نصحوه جميعهم بإضافة الماء إلى دورق اختباره.

أضف إلى ذلك، كيف يمكنُ للمرء أن يغفل عن حقيقة أنّ بوشيه هو ذلك العالم يتيم الأبوين الذي دافع عن نظريّة التولّد العفوي؟ هل يعقل أن نتجاهل حقيقة أنّه تعلّم علوم الأحياء من كتبِ «بوفون»، مرجعه الوحيدة، يرافقهُ مجهرٌ، ليخلص إلى أننا نولدُ عفويّا، وأنّ فكرة الأبوين والجراثيم والأجنّة هي محض هراء؟

لربّما كان يجدرُ بي البحثُ عن تلك المادّة المغليّة القابلة للتعفن، حيثُ فقستُ، وعن ذلك السائل الأوّلي، حيثُ تشكّلت كينونتي، بدلاً من ملاحقةِ أثر أبي واستجداء دعمه.

لو كنتُ ولدتُ عفويّا، لكنتُ تخلّصتُ من أعطابِ الوراثةِ والشّبه. لو كنتُ ولدتُ بلا أبٍ، لكنتُ تخلّصتُ من شعوري الدائم بالذنب. بالنّهاية، ذلك ما حدث لأهمّ العظماء، فـ «آثينا»(82) ولدت إلهة كاملة من جمجمة «زيوس»(81)، و«لانسلوت»(80) ربّتهُ «فيفيان»(79) في قاع بحيرتها...لو كان الخلقُ يحدثُ عفويّا، لكان بوسعنا

أن نولدَ على هيئة جراثيم أو أبطال أو أنصاف آلهة أو فرسان بحيرات أو آلهة حربٍ أو ربّما نظهر فجأة داخل أنبوب زئبقٍ محكم الإغلاق، محميّ من الهواء الخارجي، محصّنٌ ضدّ الجيناتِ والمجيناتِ(78) وبمنأى عن دماء القرابة. كان كلّ ما خرجتُ بهِ من قراءاتي ذلك اليوم هو أنّه لم يتبقَّ أمامي سوى البحث عن آباء آخرين، وأشكال أخرى من التضامن.

في سنّ المراهقة، لطالما تخيّلتُ أنّ أبي يرغبُ في أن أكونَ وريثهُ، وهو بلا شك أمرٌ طبيعيّ للغاية. ولكن ما الذي كنتُ سأرثهُ عنه تحديدًا؟ رقّتهُ أم سوداويته؟ كراهيته للعالم أم اهتمامه الفائق؟ في تلك السنّ، كنتُ عاجزًا عن التمييز بين غزارة علمهِ واضطراب مشاعره، أو الفصل بين معرفته وجراحه. صحيحٌ أنّي أدركتُ في وقتٍ متأخّر أنّي صغتُ أسئلتي بشكلٍ سيّئ، لكنّي لم أقدر قطّ على التخلّص منها.

عاينتُ كيف راحت مصابيح المكتبة تنطفئ الواحدة تلو الأخرى من حولي، وأدركتُ من خلال لعبةِ الأضواء تلك أنّ المكان يتهيّأ لإغلاق أبوابهُ قريبًا. بيد أنّ ذلك لم يمنعني من التساؤل عن علاقة طيوري بما اطلعتُ عليه في المكتبة. لماذا طفقتُ تتساقطُ بالقربِ من شبح «فيليكس أرخميدس»؟ لربّما كان هنالك جزءٌ مفقودٌ من نظريّة التولّد العفويّ لم أطّلع عليه بعد؟ ماذا لو كانت هنالك قاعدة مضادّة لنظريّة التولّد العفويّ، هي نظريّة الموت العفويّ، أي ذلك الموتُ المفتعل، الفوريّ، المفاجئ والغامض؟

تهيّأتُ لإغلاق ما فتحتهُ أمامي من كتبٍ، بينما كنتُ أنهي مقالاً أخيرًا بعنوان «ابن روان العظيم»، وهو عنوان بدا لي غامضًا بعض الشيء، حين وقعتُ على العبارات الأخيرة التالية: «كان لـ «فيليكس أرخميدس» ابنان هما «جورج» و«جيمس»، لم يتركا من خلفهما ذرّية معروفة». وتابع النصّ القصير: «عند وفاتهِ، ترك العالمُ العظيم حصيلة ضخمة من الوثائق غير المنهاة، حول الطيور، لن يكتب لها النّشرُ أبدًا».

قبل مغادرتي المكتبة لاستنشاق الهواء العليل، وبينما كنتُ أحاولُ إقناع نفسي بأنّ معادلة الطيور ذات المتغيّرات المجهولة لم تكن تمضي بي رويدًا رويدًا إلى طريقٍ مسدودة، رسمتُ المخطّط التالي فوق دفتري:

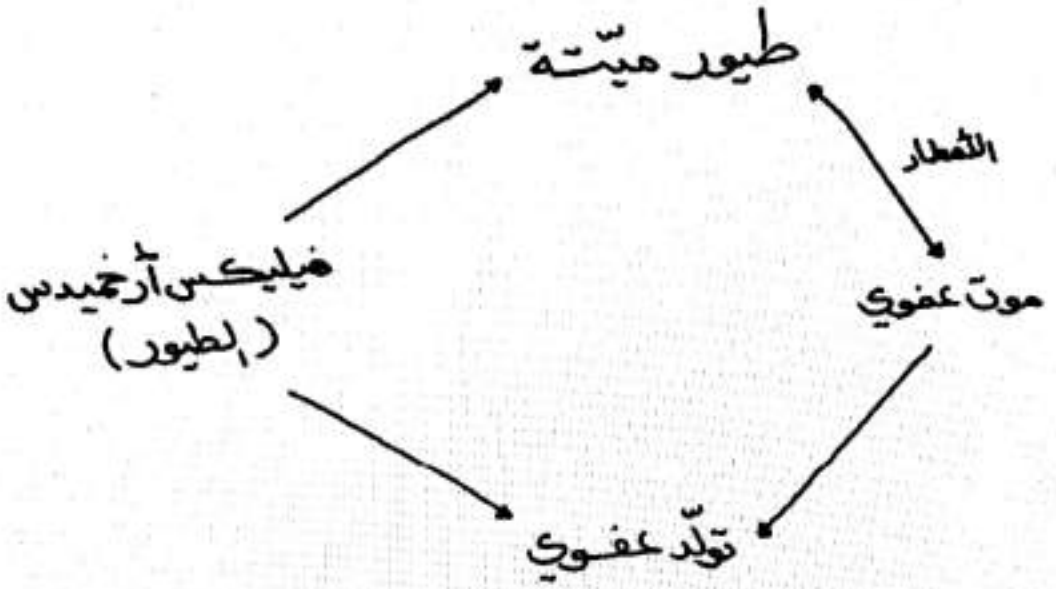

---

(106)حسب تقويم الثورة الفرنسية، يعدّ شهر (فروكتيدور أو شهر الفاكهة) آخر شهر في العام وهو يمتدّ من 18 أغسطس إلى 16 سبتمبر.

(105)إحالة ذكية من الكتاب على اسم العالم اليوناني أرخميدس أو أرشميدس في بعض التراجم العربية (م: 287 قبل الميلاد في سرقوسة – و: 212 قبل الميلاد)، وهو عالم طبيعة ورياضيات وفيزيائي ومهندس ومخترع وفلكي يوناني.

(104)أخيل كليوفاس فلوبير (117 نوفمبر 15 -1784 يناير 1845): طبيب فرنسي ووالد الروائي الشهير غوستاف فلوبير.

(103)جوستاف فلوبير (12 ديسمبر 8 - 1821 مايو 1880)، روائي فرنسي، درس الحقوق، ولكنه عكف على التأليف الأدبي، من أشهر أعماله: مدام بوفاري وسالامبو.

(102)"قلب بسيط" عنوان قصة نشرها فلوبير عام 1877 في كتاب بعنوان "ثلاث قصص"، وتروي سيرة خادمة الفرنسية، تخلّى عنها حبيبها، فوجدت العزاء في ببغاء لها اسمه "لولو". ورغم فقدانها السمع، وترديها إلى ما يشبه العزلة، ظلت تسمع صوت ببغائها، وتفرح به، وتخاطبه كلما سنحت فرصة، إلى أن عثرت عليه ذات فجر شتوي بارد جثة هامدة. استبد بها ألم أعجزها عن فراقه، فعملت بنصيحة سيدتها وحشته بالقش لتواصل التحدث إليه وكأنه لم يفارق الحياة.

(101)تسمى زرافة محمد على باشا (1825 – 12 يناير 1845) هي زرافة التي أهداها محمد علي باشا، حاكم مصر إلى شارل العاشر ملك فرنسا. وكانت أول زرافة تصل فرنسا. وقد أثارت اهتماماً شعبياً بالغاً.

(100)إيزيدور جوفروا سانت هيلير (و. 1805 – 1861 م) هو عالم حيواني، وعالم طيور من فرنسا. ولد في باريس. وكان عضواً في الأكاديمية الهنغارية للعلوم، والأكاديمية الفرنسية للعلوم، والأكاديمية الروسية للعلوم . توفي في باريس، عن عمر يناهز 56 عاماً.

(99)الباذنجانيات رتبة نباتية تضم فصائل من أهمها الباذنجانية والمحمودية.

(98)كوماتشيو (بالإيطالية: Comacchio) هي بلدية في مقاطعة فيرارا في إقليم إميليا رومانيا الإيطالي.

(97)أزَيْقة (الاسم العلمي: Nerita)، جنس حلازين ذات أحجام متوسطة وصغيرة تنتمي إلى فصيلة اللزيقيات.

(96)نسبة إلى بليز باسكال (19 يونيو 19 - 1623 أغسطس 1662)، فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات.

(95)التولد الذاتي أو التولُّد التلقائي أو التولُّد العفوي هي فرضيّة تقوم على القول بأنّ الحياة نشأت من مواد غير حية مثل المركبات العضوية البسيطة.

(94)الحييوين ("حيوان دقيق"؛ مشتق من كلمة حيوان في صيغة التصغير) هو أقدم مصطلح يشير إلى أي حيوان مجهري أو حيوان أولية.

(93)يطلقُ عليها النباتات اللّازهريّة وتشمل النباتات المتكاثرة بدون البذور. أحيانًا تُسمّى المَشريّات أو نباتات دُنيا أو نباتات بَوْغيّة.

(92)فلوطرخس كما يُعرف باسم بلوتارخُس أو بلوتارخ (نحو 45 - نحو 125 م) هو فيلسوف ومؤرخ يوناني.

(91)ديودور الصقلي أو ثيودور أو تيودور الصقلي، مؤرخ يونانيّ عاش في القرن الأول قبل الميلاد. ذاع صيته بعد تأليفه موسوعته التأريخيّة العالميّة المعروفة مكتبة التاريخ أو خزانة التاريخ بين سنتي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

60 و30 قبل الميلاد.

(90)بوبليوس فرجيليوس مارو أو فرجيل (؛ ولد 15 أكتوبر 70 ق.م. - 21 سبتمبر 19 ق.م.) شاعر روماني.

(89)جان باتيست بيير أنطوان دو مونيه شوفالييه دو لامارك، والمعروف باسم لامارك (1 أغسطس 1744-18 ديسمبر 1829): عالم أحياء وأكاديمي فرنسي يعدّ من أوائل المؤيدين لفكرة أن التطور البيولوجي حدث واستمر وفقاً للقوانين الطبيعية.

(88)إشارة ساخرة من الكاتب للأسطورة التوراتية التي تقول إن الرب خلق العالم في ستة أيام، وفي اليوم السابع استراح من أعماله.

(87)أرسطو (384 ق.م - 322 ق.م) أو أرسطوطاليس أو أرسطاطاليس المعلم الأول هو فيلسوف يوناني وتلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر وهو مؤسس مدرسة ليسيوم ومدرسة الفلسفة المشائية والتقاليد الأرسطية، وواحد من عظماء المفكرين. تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقا والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان.

(86)هنري ميشو (و. 1899 – 1984 م) رسام، شاعر وكاتب فرنسي من أصول بلجيكية.

(85)" بوفار وبيكوشيه" هو آخر ما كتب غوستاف فلوبير (1880 - 1821)، وهو عمل مبتور مات صاحبه قبل إنهائه، ونشر بعد وفاته بعام. ورغم ذلك عدّه النقاد أثرا أدبيا متميزا لا يقل قيمة عن "مدام بوفاري".

(84)الشارع الذي يحتضن مقرّ معهد باستور في باريس.

(83)قبائل الأخيون (Achaeans) هو الاسم الذي كان يطلق على القبائل الاغريقية في العصر المسيني (1650 – 1100 ق.م.).

(82)آثينا هي إلهة الحكمة والقوة وإلهة الحرب وحامية المدينة في الأساطير الاغريقية.

(81)زيوس هو إله السماء والصاعقة في الميثولوجيا الإغريقية ويلقّب عند الإغريق بـ "أب الآلهة والبشر"

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

(80) شخصية أسطورية. كان أحد فرسان المائدة المستديرة وأحد أهم أتباع الملك آرثر المخلصين

(79) فيفيان أو سيدة البحيرة هي شخصية أسطورية ويعتقد أنها إلهة الماء عند السلتيين

(78) المجين أو الشريط الوراثي (جينوم) (Genome) يطلق في علم الأحياء على كامل سلسلة الحمض النووي الصبغي لدى الكائنات الحية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرجتُ من المكتبة في حالٍ غريبةٍ، هي بين الابتهاجِ واللامبالاة، وأحسستُ بلسعة البردِ بفعل الرّياح التي هاجمت جسدي دون إبطاءٍ. كنتُ أشعرُ بالنّعاس، لكن العودة إلى سفينة «أميرة السين»، ومقصورتي رقم 313، كان أمرًا مستحيلاً، بعد أن أبحرت السّفينة في اتجاه «هونفلير». لا شكّ أن «كلاريس» واقفة وراء الدّفة في تلك اللحظة، فكّرتُ قبل أن تجتاحني رغبة جامحة في إراحة رأسي فوق بطنها الذي كنتُ أفضّلهُ على أيّ بقعةٍ أخرى في «نورماندي العليا».

كان عليّ أن أعثر على مكانٍ أمضي الليلةَ فيه. وإذ لم أشأ مهاتفة أحد زملاء المدرسة الثانوية القدامى أو المبيت في فندقٍ، لم يكن أمامي من بدّ سوى الذهاب إلى «بونسكور» والمبيت هناك.

قرعتُ جرس منزل الجارة أكثر من مرّة. كانت مصاريع النوافذ مغلقة، وأملتُ ألاّ أكون قد قطعتُ كلّ تلك الطريق بلا فائدة. لماذا لم أقبل المفاتيح عندما عرضتها عليّ يوم أمس؟ لمتُ نفسي ورحتُ أقرع الجرسَ بعنفٍ أشدّ. لا بدّ أني أيقظتها من نومها في تلك اللحظة، إذ فتحت لي الباب وقد بدا عليها الغضب (تساءلتُ في سرّي: منذ متى صار كبار السّن ينامونَ في هذه السّاعةِ؟) ثمّ سلّمتني مفاتيح المنزل، دون أن تقول حرفًا واحدًا، وأغلقت في وجهي الباب، مديرة المفتاح في القفل مرّتين.

عندما دلفتُ إلى منزل أبي، انتابني إحساسٌ غريبٌ بأنيّ بصدد تدنيسِ شيء مّا. لم أدرِ إن كان مردُّ ذلك هو طبيعة المكان، باعتباره منزل والدي، أم فكرتي المجرّدة عن المقدّس. قادتني غريزتي فطريًا إلى الطابق الأوّل. أردتُ أن أعرف إن كانت غرفة طفولتي ما تزالُ موجودة أم لا. الحقّ إنّي كنتُ خائفًا من اختفاء طفولتي وبقاء بعض آثارها في الآن نفسه. فوق باب الغرفة الأصفر، عاينتُ الصفيحة النحاسية الصغيرة التي كتبُ فوقها «دكتور بوشيه». كانت ما تزالُ هناك بعد كلّ تلك السنوات. لقد نسيتُ أمر تلك الصفيحة التي حصلتُ عليها بعد وفاة جدّي، وقد كنتُ في العاشرة من عمري وقتها، مثلما نسيتُ السبب الذي ثبّتت من أجله هناك. وللمرّة الأولى، بدا لي وجودها من الأساس غريبًا: ترى كنتُ طبيب من في العائلة وأنا ما زلتُ بعدُ طفلاً؟ كم اقترفتُ من أخطاء طبيّة؟ كم ارتكبتُ من تشخيصٍ خاطئ أو

عمليّات خطرة؟ ومقابل أيّ أتعابٍ؟

كان سريري الصغير ما يزالُ في مكانهِ، فيما جزّت مرتبةٌ من ملاءاتها. تذكرتُ لحاف «تان تان»(119) الذي كانَ يفرشُ فوقها، لحاف لطالما أشعرني بالدفء لسنواتٍ. كانت الصورة المرسومة فوقه تظهرُ الصحافيَ الجريءَ يجري مسرعًا فوق سطح قطارٍ يوشك على دخول أحد الأنفاق، وإلى جواره، يظهرُ بالون كلام هزليّ كتب داخلهُ «هيّا يا ميلو...اتبعني!»، وهي عبارة كنتُ أكرّرها على نفسي صغيرًا استجداءً للنوم.

خلف السّرير، عاينتُ كيف حال لونُ ملصقِ «غوديس(118)، سفينة كريستوف أغوين(117)، أثناء العاصفة» إلى اللون الأصفر حتّى بدا لي الأمرُ كأنّ أشرعتها البيضاء كانت بصدد التعفّنِ بهدوء. تحت المعلّقة، كتب باللون الأحمر، وبأحرف استهلاليّة: الفائز بسباق «فوندي غلوب» العام 1997. كانت تلك النسخة العالميّة من سباق السفن الشراعية الفردي هي الأروع والأكثر إثارة في نظري. وقتها، كنتُ على وشك بلوغ الثانية عشرة من عمري، ولقد رحتُ أتابعُ، بمعيّة أبي، تقلّبات السباقِ وإنجازات المتسابقين يومًا بيومٍ. كان أبي يقصُّ المقالات الصحافية المخصصة للسباق ويحتفظ بها لي، وفي المساء، كنا نجلسُ معا لمشاهدة ما يبثه التلفزيون من تقارير حول السباق قبل تناول العشاء. عندما كنتُ أذهب في الغد إلى المدرسة، كنتُ أعيدُ على مسامع رفاقي كلّ ما اختزنته ذاكرتي من مغامرات بحرية، وكأنّي كنتُ طرفًا فيها. في ذلك العام، انقلبت سفينة «رافائيل دينيلي» في جنوب أستراليا وظلّ عالقًا فوق عارضة قاربه لأكثر من ثلاثين ساعة، في مياهٍ تبلغُ درجة حرارتها ثلاث درجاتٍ مائويّة، إلى أن نجح الإنجليزي «بيت جوس» في إعادة توجيه سفينته بمناورة إعجازية وتمكن من إنقاذه. في وقت لاحق من ذلك السباق، انقلبت سفينتا «فيري دوبوا» و«توني بوليمور»، في المنطقة نفسها، على بعد أميال قليلة من بعضهما البعض. ولقد بقي «توني بوليمور» عالقا أكثر من عشر ساعاتٍ داخل فقاعة الهواء التي تكوّنت داخل قمرة القيادة، في انتظار قدوم المساعدة. وما زلتُ أذكرُ إلى الآن مشاهد «فيري دوبوا» وهو يسبحُ في بذلة النجاة ذات اللون الأحمر الفاقع في

اتجاه الطوف الذي ألقت بهِ طائرة الإنقاذ الأسترالية، ولكم كان مشهدُ ذلك الطوف الصغير مضحكًا إذ بدا لي ضئيلاً للغاية وسط مياه المحيط الهائل المتقلب.

لقد أسرتني تلك المغامراتِ كثيرًا، ما دفع بوالدي إلى أخذي، في ظهيرة أحد الأيّام، إلى مقرّ سباقات «فوندي غلوب» الواقع في شارع «الجيش الكبير» بـ «باريس». حدث ذلك في عطلة عيد الميلاد، وأذكرُ أنّ والدي أصرّ على أن نقطع الطريق من «بونسكور» إلى «باريس» بالسيّارة. في ذلك المقرّ، كانت تعقدُ جلسات التراسل الإذاعيّ مع المتسابقين الفرديّين. كان المسؤولون يتحلّقون حول طاولة، ومعهم صحافيّ ومختصّ في أحوال الطقس، لتقديم آخر أخبار ترتيب السباق وأوضاع المتسابقين في البحر ومحاولة الاتصال بهم عبر هواتف الأقمار الصناعيّة التي كانت تنقلُ لنا أصواتهم البعيدة المتقطّعة. كنّا جزءًا من جمهورٍ توزّع في كلّ مكانٍ على الكراسي وراح يصيخ السّمع إلى متسابقي السّفن ورسائلهم القادمة إلى اليابسة من قلب الجحيم. وإذ كانت الرّياح وأصواتُ اصطدام قواربهم بالأمواج العاتية تحجبُ عنّا كلماتهم، إلاّ أنّنا كنّا، في واقع الأمر، نستمتعُ بسماع أصوات الارتطام العنيف بالأمواج أكثر حتّى من الإنصات إلى قصص معاناتهم مع عواصف الأربعينات المزمجرة(116). أذكر أنّ الجلسة استغرقت ساعة أو ساعتين، قرّر أبي بعدها ألا نعود إلى «بونسكور» على الفور، وتمشّينا حتى بلغنا «الشانزليزيه». وإلى اليوم، عندما أتذكّرُ تلك الجولة في شوارع باريس، أشعرُ كأنّها دامت دهرًا. كنتُ ما أزالُ مذهولاً بسماعي لأصوات أبطالي الرطبة المشوّشة، بينما أمسكُ بيد أبي الذي طفق يشرحُ لي ما كنتُ أجهله من مصطلحات بحريّة كثيرة. لقد حدّثني عن أجهزة تتبّع المسارات أرغوس(115)، والصابورة(114)، والعوارض(113) المائلة وتيارات البحار الجنوبيّة وعواصفها. «طالما أنّ أبي متمكّنٌ من تلك المسائل، فلا شك أنّهُ عبر تلك المحيطات مثل أبطالي»، هكذا كنتُ أحدّث نفسي بينما أمشي إلى جواره، تاركًا نفسي لاستطراداتهِ تسحبني برفقٍ إلى مياهها. يومها، كنتُ سعيدًا ومحظوظًا لتلقّي كلّ تلك المعارف منهُ والسيّر إلى جانبه، إلى حدّ شعرتُ معه بأنّي أستطيع أن أرتاح تماما داخل كفّه، والوثوق به كما يثق طفلٌ في قاموس كبيرٍ مصوّرٍ قادرٍ على إجابة كلّ أسئلته الصبيانيّة.

إلى جانب السرير والملصق، كانت الغرفةُ ممتلئة عن آخرها بأكوام الصحف والصناديق الكرتونيّة. خمّنت أنّ إحداها تحتوي بلا شكٍ علم القراصنة، وهو علم كان أهدانيه والدي بمناسبة عيد ميلادي العاشر، ومجموعة ألعاب «بلاي موبيل، الحقبة السّعيدة» وغيرها من مقتنيات الطفولة، لكنّي لم أجد في نفسي الرّغبة لإخراجها. فكّرتُ أن غرفة طفولتي تحوّلت إلى غرفة تخزينٍ مهملٍ، بيد أنّ ذلك لم يزعجني في واقع الأمر.

خرجتُ من الغرفة، مردّدًا في سرّي «هيّا اتبعني...يا ميلو!» وتوجّهت إلى مكتب والدي، حيث شعرتُ برهبةٍ حقيقية. كانت المكتبة ما تزالُ موجودة في مكانها طافحةً بكتبٍ تنذرُ بالويل والثبور، كتبٍ بدت لي مثل عفاريت العلب التي قد تقفزُ في وجهك في أية لحظة، حتّى إنّني تخيّلتني أواجهُ صوتًا حادًا يفلتُ منها على حين غرّة ويصرخُ في وجهي قائلاً: ماذا تفعل هنا بحقّ الجحيم؟ تذكرت فترات ما بعد الظهيرة في طفولتي، إذ لطالما كنتُ أتردد على المكتبة لتسلية والدي المستغرق في عمله والترويح عن نفسي. لكي يضحكني، كان يتظاهرُ بأنه لم يرني، مواصلاً عمله، قبل أن يرفع وجهه نحوي ويقولُ مبتسمًا: «أنا أعوّلُ على جدّيتك لكيلا آخذ جدّيتي على محمل الجدّ». إثر ذلك، يمرّرُ لي كتاب رسوم مصوّرة، فأقفلُ راجعا إلى غرفتي وإلى ألعابي، وأنا في حالٍ، لا هي بالخفة ولا هي بالرّصانةِ.

فوق طاولة المكتب، عثرتُ على عدّة دفاتر ملاحظاتٍ مفتوحة، فألقيتُ نظرة خاطفة عليها. كانت عبارة على مشاريع رسائل، ومسوّدات مقالات نقديّة موجّهة إلى الصحف المحليّة ونصوص بلا عناوين. تذكّرتُ كيف كان والدي يتذمّرُ من استحالة إتمامِ ما كان يبدأه من مشاريع، وفكّرتُ ساخرًا أني، إن نظرتُ إلى الأمور من تلك الزاوية، لأدركتُ أني ابنهُ الذي يشبهه حقًا وأني ورثتُ عنه، بلا شك، مرض الفشل في إتمام أيّ شيء أبدأه.

عثرتُ كذلك على مجموعة من الفواتير المرسلة من حوض بناء السفن الذي تكفّل بإصلاح محرّك قارب والدي، وخريطة بحريّة (خريطة رقم 7421، كانت تحدّد المسار من أقصى نقطة في شاطئ «بيرسي»(112) إلى شاطئ

«أوسترهام»(111))، وكتاب لـ «ليون بلوي»(110)، ألصقت فوق صفحاته ملحوظات كثيرة. فجأة، شعرتُ بقبضة تشدّ على حلقي. هل كانت رائحةُ السّجائر هي السبب أم هو جبني أمام الدفاتر المفتوحة، واحتماليّة أن أعرف ما كان يسعى والدي إلى إخفائه دون أن ينجح في ذلك؟

في تلك اللحظة، أحسستُ بألمٍ ممضّ يكادُ يمزّق قلبي، فهرعتُ إلى الحمام، وعبثًا حاولتُ أن أتقيّأ، إذ ظلّ حلقي ناشفًا. عدتُ أدراجي إلى غرفة الجلوس، واستقررت فوق أريكةٍ متدثّرًا ببطانية كبيرة من الصوف الخشن. ومع خفوت الألم في قلبي شيئًا فشيئًا، قمتُ بإشعال جهاز التليفزيون، لإلهاء عينيّ وإبعادهما عمّا كانت تنضحُ به الجدرانُ من حولي من ذكريات مريعةٍ، إلى أنْ استغرقتُ في النوم، وسط الأنوار المضاءة وأصوات الصافرات(109) المدوّية. (ثمّة خطأ شائع يصوّر حوريّات البحر على أنّها كائنات أنصاف نساء من الأعلى وأنصافُ أسماك من الأسفل. وبهذا الخصوص، كان «هوميروس» حاسمًا إذ قال إنّ الحوريّات هي كائنات أنصافُ نساء من الأعلى وأنصاف طيور من الأسفل، وذلك ما يفسرُ انجذاب البحارة إلى غنائهنّ وهلاكهم جرّاء ذلك. فضلاً عن ذلك، هل سمع النّاسُ يومًا سمكة تغنّي؟)

في تلك الليلة، حلمتُ أنّي أشقّ عباب الظلام الثقيل محاولاً الهروب من
Telegram:@mbooks90
«كاريبديس»(108) و«سيلا»(107)، إلى أن أفقت على تمام الساعة 6:23 صباحًا. في واقع الأمر، لم يكن مسلسل الرسوم المتحرّك الذي كان يبثّه التليفزيون وراء استيقاظي في تلك السّاعة المبكّرة (كان التوقيت مكتوبًا أسفل الشاشة، فتساءلتُ في سرّي: منذ متى صار الأطفال يستيقظون في هذه السّاعة؟).

---

(119)تان تان هو شخصية خيالية من سلسلة الروايات المشهورة مغامرات تان تان لهيرجيه. وتان تان هو صحافي مغامر يبحث عن حل القضايا الصعبة دوما بمساعدة أصدقائه كابتن هادوك والبروفيسور برجل والكلب "ميلو".

(118)سفينة شراعية كانت على ملك كريستوف أغوين

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

(117)أحد أبطال سباقات السفن الشراعية الفرنسيين.

(116)أربعينات مزمجرة هو اصطلاح يطلق على الرياح العكسية (غربيات العروض الوسطى) التي تهب في نصف الكرة الجنوبي إلى الجنوب من خط عرض 40 (بين 49-40 درجة). وتتصف هذه الرياح بانتظام هبوبها طوال العام وبسرعتها الشديدة نتيجة لتجانس طبيعة السطح الذي تهب فوقه (محيط مائي).

(115)أرغوس هو نظام قائم على الأقمار الصناعية للاستعلام عن بيانات الموقع.

(114)الصابورة أو مياه الاتزان غير النظيفة هي المواد المستخدمة لتوفير الاستقرار للسفينة أو الغواصة.

(113)العارضة هي العنصر الهيكلي الأكثر طولا في السفينة. يكون لها غرض هيدروديناميي وموازن في بعض المراكب الشراعية.

(112)مدينة فرنسية.

(111)مدينة انجليزية.

(110)ليون بلوي (11 يوليو 3 -1846 نوفمبر 1917): كاتب فرنسي من أهم أعماله رواية «اليائس».

(109)في الفرنسية تشير مفردة " sirène" إلى صافرات الإنذار كصافرات عربات الشرطة والإسعاف، مثلما تستخدم للإشارة إلى حوريات البحر. وفي السياق الذي يتحدث فيه الكاتب، نفهم أن الشخصية نامت بينما تشاهد فيلما بوليسيا، تسمع فيه أصوات صافرات سيارات الشرطة، لكنها تحولت في حلمه إلى أصوات حوريات البحر.

(108)كاريبديس هي وحش أسطوري ورد ذكرها في ملحمة الأوديسة التي كتبها الشاعر الإغريقي هوميروس في القرن 8 قبل الميلاد، ويقال إنها قد قضت على العديد من بحارة أوديسيوس.

(107)حورية جميلة ورد ذكرها في ملحمة الأوديسة. تقول الأسطورة إن سيلا عاشت في كهف فوق مضيق مسينا قبالة دوامات كاريبديس، وعندما حاول أوديسيوس عبور المضيق انقضّت على ستة من رجاله. فاضطرّ البحارة إلى اتخاذ ممرّ آمن بين سيلا وكاريبديس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تشاغلتُ بمشاهدة مسلسل الرّسوم المتحرّكة، ذاهلاً عمّا حولي، كما كنتُ أفعلُ في صباحات طفولتي. بيد أنّي شعرتُ بشيء من القلقِ، لأنّي لم أفهم كلّ ما كانَ يعرضُ أمامي. كان المسلسلُ يتحدّثُ عن حيوانٍ راكون أرجوانيّ اللون (بدا لي أشبه بقردٍ غزير الشعر وواقعٍ تحت تأثير حبوب هلوسة) حاول إفساد خطط مجموعة من الأطفال، ألوانهم هم أيضًا فاقعة (أحدهم لونُه أخضر فاقع والآخر أزرق ملكيّ)، أرادوا تنظيم حفلة عيد ميلاد كبيرةٍ لأحد أصدقائهم (لونه برتقالي فاتح). في مرحلةٍ ما من الحلقة، ستشرعُ مجوعة الأطفال الصغيرة في نفخ البالونات (وهو ما ذكّرني في دوارق العزيز «لويس باستور» ذات الأعناق الطويلة)، لكنّ الراكون الأرجوانيّ قام بتوزيع المسامير في الغرفة بطريقةٍ بارعة، وفجّر البالونات الواحدة تلو الأخرى، لتتعالى صرخات الأطفال الهيستيرية، وتحلّ الفوضى بالمكان. في واقع الأمر، لم أفهم سرّ تلك الشّماتة التي حفّست الراكون الزائف ودفعتهُ إلى إفساد الحفلة، أو سبب خلافه مع الأطفال، أو حتّى دوافع الأطفال الغبيّة في التخطيط لحفلةٍ على شرف صبيّ برتقاليّ اللون.

بعد حوالي السّاعة، نهضتُ من الأريكة متوجّها نحو غرفة الحمّام، وقد شعرتُ بحاجة ماسّة إلى حمّامٍ منعشٍ. ولكن حال وصولي إلى الغرفة، استغرق الأمرُ منّي عشر ثوانٍ على الأقلّ لأدرك أنّ الماء مقطوعٌ. لا شيء يتدفّقُ في هذا المنزل، فكّرتُ ذاهلاً. ولبرهة، بقيتُ في مكاني متيبّسًا وعاريًا داخل غرفة الحمّام الصامتة، قبل أن أنتزع نفسي من شرودي، وأقرّر مغادرة المكان في الحال، لأنعم على الأقلّ بدفء الطقس في الخارج.

ودون وعيٍ منّي، كرّرتُ ما كنتُ أفعلهُ صبيًا في نزهاتي، إذ توجّهتُ أوّلاً نحو النّهر، ثمّ إلى المقبرة التي كانت تطلّ عليهِ، كحال كلّ المقابر البحريّة. في طريقي، اشتريتُ قطعة خبزٍ محشوّة بالزّبيب، ثمّ توجّهتُ نحو الكاتدرائيّة، ومنها انطلقتُ إلى النصب التذكاريّ المخصّص لـ «جان دارك» الذي شاهدتهُ قبل يومين عندما كنتُ على متن سفينة «أميرة السّين». فجأة بدت لي تلك المدّة بعيدة جدًا، وكأنّ الأمر حدث قبل مائةِ عامٍ، أو ربّما في حياةٍ أخرى. في واقع الأمر، عندما صعدتُ إلى السّفينة، شعرتُ بأنّي مقبلٌ على مغامرة العمر. بيد أنّ ما حلمتُ به، تحوّل إلى نوعٍ من الهراء،

ربّما يتحوّلُ بدوره إلى مغامرة كبرى، من يدري؟ (والعكس صحيحٌ أيضا: فلو نظرتُ إلى الأمر كما هو عليه حقًا، لقلتُ إنّي أقبلتُ على نوعٍ من الهراء، تحوّل إلى مغامرة كبيرة، ربّما ...). الحقُّ أنّي كنتُ آملُ، عندما صعدتُ إلى السّفينة، في تحويلِ نزعة الهروب لدَيّ إلى رحلةٍ استكشافيّة، غير أنّي بتُّ أجدُ، مع مرور الوقت، متعةً في ركوب تلك الدوّامة، وذلك هو التغيير الوحيدُ الذي شعرتُ به. غالبًا ما كان يخالجني شعورٌ دائم بأنّ الواقع يعاندني، بأشيائه وبَشره وإرادتي، وأنّ الكلّ اتّحد ضدّي لحرماني من المضيّ قدمًا في حياتي. في تلك الحالات، لم يكن ثمّة ما ينقذني سوى كلّ ما كان عرضيًا ونشازًا وسخيفًا من الأمور. إنّ حدوث هفوةٍ واحدة في واقعي هو كلّ ما يكفيني لأشعرَ بأنّي انتقمتُ لنفسي. لو حدث ذلك، سيصير بوسعي أنْ ألقي نظرة مُحبّةً على هذا العالم، ليس لأنّه يستحقُّ حبّي، ولكن لأنّه يؤكّد لي، من خلال هفواته المرتكبة في حقّي، أنّهُ محضُ عبثٍ.

لم يدفن أيّ فردٍ من عائلتي في تلك المقبرة، ورغم ذلك، رحتُ أتجوّلُ بين قبورها، دونَ ترتيبٍ أو هدفٍ. ومع ذلك، قادتني قدماي، كما اتفق، إلى قبر شاعرٍ اسمه «خوسيه ماريا دي هيريديا»، وهو شاعرٌ عظيم نسي النّاس ذكره (قرأت على شاهدة قبره: روحي تتجوّل بين أوراق الشجر/فريميرا)، ثمّ إلى قبر آخر، على مقربة منه، كان لشخص يدعى «ميشال البردي» (قرأت على شاهدته: أصدقاؤك الذين شاركوك حبّ كرة القدم لن ينسوك)، قبل أن نتوقّفا أمام قبرِ «إيرين روبرت»، (ولقبها قبل الزواج هو «فونستر»).

غادرتُ المقبرة نزولاً إلى أسفل، حيثُ يمكنُ للمرء أن يلقي نظرة على النهر والطريق السّريعة في آنٍ واحدة. لم أكن أعرف لماذا كنتُ أجدُ في تجاورهما ذاك أمرًا يبعثُ على الوحشةِ. ما إن وصلتُ إلى الطريق، حتّى قمتُ بدورةٍ كاملة وعرّجتُ إلى اليسار في اتجاه ملهى «بونسكور». بنوافذه الكبيرة، وجدرانه المطليّة بالجصّ الأصفر وسقفه القرميديّ، كان يبدو لي أقربَ إلى فضاءٍ قرويّ متعدّد الاختصاصات أكثر منهُ مؤسسةً فاخرة. لقد كان في الأصل ميتمًا، ثمّ تحوّلَ إلى مقرّ للرذائل في التسعينيات، قبل أن تندلعَ فيه النيران ويحترق، حتّى بدا الأمرُ كأنّ المدينة تكفّرُ عن ذنب مبايعتها للفساد على حساب أعمال الصّدقة.

لفترة من الوقت، ظلّ والدي يتردّد على ملهى «بونسكور» وملاهي أخرى على طول سواحل «دوفيل» و«كابورج» و«فيل سور مار». والحقُّ أنّ تردده المتواتر على صالات اللعب لم يكن بغرض البحثِ عن المتعة، وإنّما كان انجذابًا سرعانَ ما تحوّل إلى هوسٍ. لقد كان يبقى هناك بالساعات والأيام، عالقًا داخل طمعه في الكسب، ولكن أيضًا داخل حاجتهِ الملّحة إلى الهرب من أشياء كثيرة، وعلى رأسها المنزل.

عندما كان هروبهُ يستمرُّ لفترة طويلة، تجتاحُ مشاعر القلقِ أمّي، في نهاية المطافِ، ليسَ بسببِ خوفها من ضياع مدّخراتها- وهي مدّخرات العائلة في واقع الأمر- ولكن أيضًا بسببِ ذعرها من عواقبِ «بلادته»، كما كانت تطلقُ عليها، على صحّته وعملهِ اللذين أهملهما. كانت تغادرُ ليلاً للبحثِ عنهُ داخل الملاهي محاولة إقناعه بالعودة. وغالبًا ما كانت تفشلُ في ذلك، بعد أن اعتاد والدي صرفها بخشونةٍ كلّما رآها أمامهُ. في غضونِ ذلك، كنتُ أبقى جالسًا على درج السّلمِ في انتظارها إلى أن تعود إلى البيت، ثمّ أراها تهرعُ إلى المطبخ، حيثُ تجلس لتدخّن السّجائر دون توقّف، وتعبّ القهوةَ من أوعيةٍ كبيرة، وتبكي أكثر من المعتاد. وإذ يذهبُ في ظنّها أحيانًا أنّ قدرتي على التأثير عليه قد تكونُ أكبر من قدرتها، كانت تسارعُ إلى تكليفي بتلك المهمّة. الحقّ أني لا أستطيعُ تذكّرَ عدد المرات التي حدث فيها ذلك، أو على من منهما كان ينصبُّ لومي أكثرَ، لا سيّما أنّي كنتُ أمضي تلك الأمسياتِ في انتظار اللحظةِ التي أجبرُ فيها على دخول الملهى، حالما تنهي والدتي حديثها مع الحارس أمام المدخل، والتقدّم داخل المكان ذي الإضاءة العالية، ثمّ التفتَ يمنةً ويسرةً بحثًا عن أبي، وكلّي أملٌ في ألاّ تلتقيني نظراتهُ. تحت السقف المزيّنِ بثريّات من الألماسِ المزيف، كنتُ أعثرُ عليه جالسًا وسط لاعبين آخرينَ، يقاربونهُ سنًا، ويشاركونهُ الحزنَ نفسهُ. في تلك اللحظاتِ، كنتُ أراهُ جميلاً ومذهلاً مثل مغامرٍ متعبٍ، في بذلته الزرقاء البحريّة الرائعة، وهي بذلة لم يكن يرتديها إلاّ في تلك الأمسيات، بينما ينفقُ ساعات الليل الطويلة في لعبةِ «الروليت»، باحثًا عن كنوزٍ صعبة المنال.

في واقع الأمر، كنتُ أفضّلُ ألا أكونَ سببًا إنهاء رحلة بحثهِ عن الكنوز أو إفساد ما قد يواتيه من فرصِ ربحٍ ممكنة، ولذا كنتُ أقفُ في مكاني، مذهولاً من ملمس

السجادة الحمراء السميكة تحت قدميّ، ومفتونًا بمدير طاولة القمار، وهو يعلن بصوتٍ أجشّ ذي غنّةٍ، عن خيارات الرّهانِ قبل أن يدوّرَ الكرة، ويتعالى صوتُ دحرجتها الحادّ. لطالما تمنّيتُ في تلك اللحظات لو ظللتُ في مكاني أتابع اللعبة من بعيدٍ، حتّى لو اضطررتُ إلى البقاء واقفًا طوال الليل، لكنّ الأمر ينتهي بي دومًا إلى التزحزح من موضعي والتقدّم نحوهُ، لأنّ أكثرَ ما كنتُ أخشاهُ هو أن تقع نظراتهُ المنزعجة عليّ لحظةَ قيامهِ من الطاولة للالتحاق بي. عندما أكبر، سأعرفُ أنّ مرتادي الملاهي يطلقونَ كنية «الجثثِ» على اللاعبين الذين يخسرون بانتظامَ.

كانت الأسابيع التي تعقبُ عودتهُ من رحلاتهِ الليلية مريعةً، إذ كانت تفاقمُ من شعوري بالذنب، وتهيّج رغبتي في الابتعاد عن ناظريهِ ما أمكنَ، وتغرقُ منزلنا في صمتٍ هشّ، نتفادى من خلالهِ القيامَ بما قد يزيدُ من توتّر أبي المكتومِ أو يحوّلهُ إلى غضبٍ معلنٍ، وهو ما كان يحدثُ في نهايةِ المطاف. الحقّ أنّه لم يكن يعدمُ الوسائل لكي يفهمنا ضمنًا بأننا «خونة» حتّى انتهى به المطاف، بعد سنواتٍ عديدة، إلى قولها في وجوهنا علنًا.

كان الملهى مغلقًا في ذلك الصبّاح من شهر نوفمبر. فتشاغلتُ بالتفكير مرّة أخرى في مسار تحقيقي. لقد تبدّى لي بوضوحٍ، من خلال ما حصّلتهُ من أفكارٍ متعارضة، أنّ عليّ أن أضع كلّ رهوناتي عند محيط الكاتدرائية، فلكي أفهم ما حدث لتلك الطيور القتيلةِ (صارت الأمورُ واضحة في ذهني)، كان عليّ التحقيقُ في جميع الأماكن، بما في ذلك الأماكن المقدّسة. فجأة، شعرتُ بأنّ ما أخبرتني به «مادلين»، مجنونة الكاتدرائية، وقد رأيتُ فيه قولاً صادرًا عن معرفة لدنية، يستحقُّ البحثَ في شأنه، حتّى لو عارضهُ «إمانويل إتيان»، عالم الطيور بالمتحف. ربّما أمدّني الأب «وينتر» بتفاصيل أخرى. فكّرتُ. أضف إلى ذلك، كان عليّ أن أتحقّق بنفسي من نقاء رجال الدّين الأخلاقي، ومن يدري، ربّما دفعتْ القسّ نفسهُ إلى الاعتراف(121) أمامي. إنّ تغذيتهم المستمرّة لجنون «مادلين» الارتيابيّ لا يجعلُ منهم أبرياء تمامًا في عينيّ.

في تلك اللحظةِ، شعرتُ بأنّ جنونَ تلك المرأة العجوز باتَ يتحكّمُ بإطرادٍ في نظرتي إلى الأمور. كان من الواضح أنّ ارتيابي ما هو في واقع الأمر إلاّ الارتيابُ ذاتهُ الحاضر في نفس أبي حينما كان يشرعُ في مساءلة العالم. لطالما تضمّنت رسائلهُ التي كان يرسلها إليّ قبل سنواتٍ طويلة، أفكارهُ الشخصيّة عن أخطاء العالم الخفيّة ومؤامراتهِ. كان يلقي باللائمة عليّ لأنّي وقفتُ إلى جانب أمّي لحظة افتراقهما، ثمّ لامَ عمّي، قبل أن يوجّه كلّ طاقته إلى أخي، فلامهُ على توقّف رسائلهِ أوّل الأمر، ثمّ على انقطاعه عن زيارتهِ في «بونسكور». لقد أعاد أبي صياغةَ كلّ ما عاناه من ظلمٍ خلال سنوات طويلةً، وراح يكرّرها باستمرارٍ في رسائله. وها هو قد اختفى تمامًا يومَ عدتُ إلى «بونسكور»، بينما كانت السّماء تتآمرُ على الطيور والبشر معًا.

سرتُ في اتجاه الكاتدرائيّة، وذهني ما زالت مشغولةً بأطوار مأساتي العائليّة الساخرة. فجأة، تخيّلتُ أبي على متن قاربه. آخر مرّة أمضيتُ فيها بعض الوقتِ معه، كانت عندما أبحرنا معًا. في واقع الأمر، حدث ذلك، قبل فترة وجيزة من انهيار علاقتنا، حتّى إننا بدونا، بينما كنّا نتجهّز لتلك الرحلة البحريّة، كأننا مقبلونَ على رحلةِ الفرصة الأخيرة. كانت فكرة غبيّة منه أن نمضي عدّة أيّامٍ معًا، داخل مساحة ضيّقة على متن قارب شراعيّ طولهُ تسعة أمتارٍ، ونشقّ جميعًا نهر لومنا وعتابنا

وسوء تفاهمنا، ورغم ذلك، قرّرنا، أنا وأخي، مشاركتهُ الرّحلة على متن «فونيكس 5». سارت الأمور على ما يرام، في أوّل الأمر، إذ كان البحرُ جميلاً، وانشغلنا بتوجيه القارب، ولكن حالما غادرنا خليج «لوهافر»، وتحرّر سطح البحر من الحواجز الأرضيّة الطبيعية، طفقتُ أتقيأ. عندما كنتُ طفلاً، كان دوار البحر يصيبني لحظة نتجاوزُ منارة رأس «لا هاغ» الرماديّة، ونتهيّأ لدخول مضيق «الهزيمة» الشهير. متشبّثًا بحبال السفينة كيلا أسقط في الماء، انحنيتُ تحت الريح، وتقيّأتُ كلّ ما في جوفي. بعد ذلك، رحتُ أتشاغلُ بعدّ الساعات التي كانت ما تزالُ تفصلنا عن الميناء التالي، أو ترديد الأغاني لتمضية الوقت. في غضون ذلك، كنتُ قد تعودتُ شيئًا فشيئًا على نوباتِ غثياني، ولم تعد تشكلّ مصدر قلقٍ بالنسبة إليّ، وهو ما وجدتهُ أمرًا بالغ الغرابةِ. ومع ذلك، أفهمتُ والدي، وأنا مستلقٍ على سطح السفينة، في الهواء الطلق، بأنّي لا أستطيعُ مبادلتهُ الحديث حقًا. عندما استرجعتُ شيئًا من قواي، استأنف ما كان فيه من أحاديث طويلة حول مسؤوليّات كلّ واحدٍ منّا، بعدها طفق يتحدّث في السّياسة، وهو ما فاقم من أعراض دوار البحر لديّ، وأرهقني بشدّة. في تلكم الأثناء، تبنّى أخي استراتيجية واضحة للهروب من أبي، إذ كان يمضي النهار نائمًا في المقصورة الأماميّة، ثمّ يغادر السّفينةَ، مع كلّ محطّة نتوقف فيها، في اتجاه الحانات حيث يمضي كامل الليلِ يشرب، قبل أن يعود إلى السّفينة، ويمضي نهارهُ نائمًا، وهكذا دواليك. وإذ فقدتُ قدرتي على تحمّل أبي، وتمكّن منّي شعورٌ قاتمٌ بالاختناق، رحتُ أتعامل معه بخشونةٍ، وقد وقر في قلبي أنّ تلك الرّحلة كانت تصرُّ على إقناعي بصحّة فرضيّة «كيرتيس»(120)، وهي فرضيّة تقولُ إنّ منشأ أمثولة الابن الضالّ قد يكون أسطورة عن رجلٍ رفضَ حبّ والديهِ.

في إحدى الأمسيات، قبيل نهاية رحلتنا البحريّة، رست بنا السّفينة عند شاطئ «سانت كليمون باي» في مدينة «جيرسي». في اليوم التالي، استيقظتُ بمفردي، في وقتٍ مبكّرٍ جدًا، وقد كانت الشمس على وشك الطلوع. عندما خرجت من المقصورة، لاحظت، بينما كنت ألقي نظرة على اليابسة، أنّ السفينة انجرفت بنا قليلاً أثناء الليل في اتجاه السّاحل، بسبب المدّ العالي الذي خلع المرساة. عندما تقدّمتُ إلى سطح السّفينة، فتنتْ بمشهد مئات من قناديل البحر الصغيرة، زرقاء اللون، وقد أحاطت

بالسفينة من كلّ جانبٍ، مثل هالةٍ نصف شفّافةٍ أو حرس بحريّ، متجمّدٍ ومتوهّجٍ، قرّر مشاركتنا رحلة انجرافنا. كانت تلك الكائنات الصغيرة، ولوامسها، تتوهّج في ضوء الفجر الورديّ الشّاحب، ومع ذلك، لم يكن بإمكاني معرفةُ إن كانت حيّة أم ميّتة (أليس ذلك ما يميّزها بالنهاية؟). لعلّها أدركت وجود قواسم مشتركة بينها وبيننا، فألزمت غرائزها باحترام صمتِ رحلتنا الرّهيب. فكّرتُ في ذلك، بينما كنتُ جالسًا داخل قمرة القيادة، وشعرتُ برغبةٍ جامحةٍ في ترك سفينتنا المحاطة بقناديل البحر تواصل انجرافها إلى أن تصطدم بالصّخور. تخيّلتني أقفزُ لحظتها إلى الماء تاركا السّفينة كما لا يفعلُ أيّ قبطانٍ حقيقيّ، ثمّ أسبحُ نحو الشاطئ، متحدّيا خطر لسعات القناديل، لكي أفرّ من وجه أبي مرّة واحدة وإلى الأبد. غير أنّي نفضتُ عني تلك الخيالات، وذهبتُ لإيقاظهِ لكي يقوم بتشغيل المحرك ورمي المرساة في مكانٍ أبعد قليلاً. وكانَ أن انتهت رحلتنا في اليوم التالي، عندما بلغنا شاطئ «قراندفيل». والحقّ أنّي نادرًا ما شعرتُ بالارتياح لوصولي إلى الميناء كما شعرتُ في ذلك اليوم.

نزلتُ تلّة «بونسكور» في اتجاه وسط مدينة «روان»، وبي رغبة في محو ذكرياتي عن قناديل البحر من ذهني. تخيّلتني واقفًا في واحدة من مصلّيات الكاتدرائية، محاولاً أن أجرّب الصلاةَ ثانيةً، وهو ما لا أذكرُ أنّي فعلتهُ منذ سنوات طويلة. ركعتُ في خيالي وأغمضتُ عينيّ، باعتبار أنّ تلك هي الطريقة المعتادة للقيام بمثل تلك الأمور، ثمّ توجّهتُ إلى الربّ واعتزمتُ الصّلاة لأجل الطيور. كنتُ سأدعو السيّد المسيح لكي يضع حدًّا لتلك القرابين ويحمي الزرازير وبقيّة الطيور من السقوط من السّماء. كنتُ سأصلّي لأجل أن تقاوم السّماء المخططّة بآثار سقوطها. كنتُ سأصلّي من أجل الحمر الوحشيّة وفعل المقاومة. كنتُ سأصلّي لأجل هواجسي، والتخلّص منها. كنتُ سأصلّي لأجل رحلة الحوريّاتِ إلى العدمِ الأخير، وقد فقدت أغنياتهنّ تأثيرها على البحّارة. كنتُ سأصلّي لأجل حبسي داخل سجن أخطائي. كنتُ سأصلّي لأجل تحرّري من كلّ ما هو شرطّي، لأجل التأتأة الدائمة والتفاصيل الصغيرة. كنتُ سأصلّي لأجل الحوادث النوويّة، والتخلّص منها. كنتُ سأصلّي لأجل نهاية العالم اللذيذة ونظرية التولّد العفويّ. كنتُ سأصلّي لأجل «مادلين» و«ألفريد» و«فيليكس أرخميدس» و«بونسكور» والكاتدرائية والمقبرة والملهى الليلي. كنتُ سأصلّي لأجل

القارب «فونيكس 5»، ومنزل والدي وغرفة طفولتي....

الحقّ أنّ من يراني معتمرًا قبّعة سترتي ذات اللون الأزرق البحريّ، بينما كنتُ أقطع الطريق الفاصلة بين «بونسكور» وروان» متمتمًا، سيذهبُ في ظنّه أنّي راهبٌ منهمكٌ في تلاوة صلواته. فجأة، أخرجني صوتُ البيانو الإليكتروني البشع المنبعث من هاتفي من شرودي. كان «جان بيار» على الطرف الآخر من الخطّ، ولم تكن تلك هي المفاجأة الوحيدة، إذ ابتدرني لاهثًا، وكأنّهُ قطع الطريق من الساحل إلى «بونسكور» عدوًا لكي يؤكد لي، على وجه السرّعة، حقيقة وجود الله:

-أنا الآن في «بنيديبي»، عند الشاطئ. لن تصدّق ما سأقولهُ لك، ولكن السماء أمطرت هذا الصباح طيورًا فوق الشاطئ. حدث ذلك قبل ساعةٍ. لقد أمطرت طيورًا نافقة على مساحة مائتي متر مربّع، طيورًا قد تبلغ أعدادها بالآلاف...

---

(121)سر التوبة، ويعرف أيضًا باسم سر الاعتراف، أو سر المصالحة، أي المصالحة مع الله. هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في المسيحية. يقوم سر التوبة على إقرار المؤمن بالذنب وطلب الصفح من الله، طبقًا لوصايا الكتاب المقدس.

(120)إيمري كيرتيس (9 نوفمبر 31 - 1929 مارس 2016) هو روائي مجري.

من نافذة القطار، بدا ما مررتُ به من مناظر طبيعيّة مألوفًا لي، ومع ذلك، رحتُ أتخيّلُ ما كان سيفوتني من مناظرَ لو أنّي سلكتُ الطريق نفسها على متن سفينة نهريّة، بدلاً من ركوبِ قطار الرفاهية(126) ذاك. فكّرتُ أنّي كنتُ سأمرُّ على «باردو فيل»، حيثُ سقطت دفعة الأمطار الثالثة، وأعربتُ عن تقديري الصّامتَ لـ ليوبولدين هوغو»(125) عندما نقتربُ من «فيلكييه»، وبلا شك، كنتُ سألقي التحيّة على أنقاض دير «جومياج». كان خطّ السكة الحديديّة يحاذي نهر «السين» شمالاً، ويمرُّ عبر «إيفيتو»، ثمّ «بولبيك»، إلى أن يصل إلى محطّة «لوهافر».

كنتُ قد انضممتُ إلى طفلٍ صغيرٍ وأمّه داخل مقصورة القطار. كان الصبيّ يطرحُ على أمّهِ كلّ ما يخطرُ على باله من أسئلة، وكانت هي تقدّم له إجابات عامّة، وقد بدا عليها الشرود.

-لديّ شعورٌ بأنّ المنازل تخلو من الهواء. هل يوجدُ هواءٌ في منزلنا يا أمّاه؟

-.....

-أمّي؟

-هل تتنفّس داخل المنزل أم لا؟

-أوه، بلى.

-حسنًا، هذا يعني أنّ هنالك هواء.

لم يصمت الصبيّ واستمرّ في طرح أسئلتهِ حول الهواء والقطار وما يوجدُ داخل نوافذه والأوكسجين، إلى أن ضاقت ذرعًا به وأجابتهُ متبرّمة:

-إذا واصلت طرح أسئلتك هذه، فلن تجد هواءً تتنفّسهُ.

حالما قالت لهُ ذلك، لاذ الصبيّ بالصمت. في تلك اللحظة، وددتُ لو أنّي تدخّلت وأخبرتُ الأمّ وطفلها بما اكتشفتهُ من قراءاتي خلال الأيّام الأخيرة، وهو أنّ معظم الطيور لديها حنجرة ثانية، تسمّى المصفار. وإذ يسمحُ المصفارُ، من خلال مجموعة من العضلات الموجودة فيه، للطيور بالتغريد، فإنّ الحنجرة الرئيسية تسمحُ لها

بالتنفس في الوقت نفسه. كان ذلك المصفاز هو ما نحتاجهُ حقيقةً لكي نستمرّ في الحديث والصراخ ودفع الهواء إلى رئاتنا دون الحاجة إلى التقاط أنفاسنا في كلّ مرّة.

مع توقّف القطار في محطة «بولبيك»، انضمت إلينا داخل المقصورة فتاة في العشرينيات من عمرها، كانت جميلة بما يكفي لتشدّ انتباهي. بعد التطلّع إليها لعدّة دقائق، كان عليّ أن أواجه الحقيقةَ وأعترفَ بأنّ مطاردة نظرات الفتيات داخل القطارات أصبحت مهمّة شاقّة. والحقّ أنّها استمرّت في تفادي نظراتي، دون قصدٍ منها، فمنذ صعودها إلى المقصورة، لم تحوّل عينيها عن شاشة هاتفها المحمول العملاق الذي راحت تتعاملُ مع أزراره بلطفٍ شديد، مداعبةً إيّاه بحركةٍ نشيطةٍ، بدت لي قلقة أكثر منها حسيّة، لكي تتفقّدَ ما يصلها من رسائل نصيّة أو ترسلَ أخرى عبر بريدها الإليكتروني. ولذلك كلّه، اكتفيتُ منها بتلك الهيئة المائلة نحوَ ما تعرضهُ شاشة هاتفها المائلة إلى الزرقة من مراسلات حزينة لا تنتهي. فكّرت أنّها لو رفعت رأسها لبرهةٍ قصيرة، لكنّا تحدّثنا عن الطقس الغائم أو ميناء «لوهافر» التجاري أو أمطار طيور الزرزور.

نفضتُ تلك الأفكارَ وانهمكتُ في البحث عن قميصٍ صوفي داخل الحقيبة (كان القطارُ بلا جهاز تدفئة). فجأة، لمست أصابعي كلّ ما حملتهُ من وثائق من أجل تلك الرّحلة، وهي عبارة عن أعمال «پلينيوس الأكبر» و«تشارلز ه. فورت» والكتاب المقدّس ومجموعة كاملة من الوثائق المصوّرة التي وظّبتها داخل الحقيبة قبل مغادرتي، ونشرتها أمامي. في تلك اللحظةِ بالذات، لمعَ خاطرٌ في ذهني وحدّثتُ نفسي بأنّ حلّ لغز الطيور قد يكونَ موجودًا داخل الكتب مثلما هو موجودٌ في العالم الواقعيّ. وهكذا كنتُ جالسًا على المقعد رقم 47 في المقصورة الثامنة، غير قادرٍ على تبيّن ما أريدهُ حقًا. رحتُ أتصفّح رزمة الأوراق إلى أن عثرتُ على ثلاث صفحاتٍ مصوّرة كان واضحًا أنيّ نسيتُ وجودها تمامًا. فوق الصفحة الأولى، كنتُ قد كتبتُ بخطّ اليد «ماو(124) والقفزة العظيمة إلى الأمام». رحتُ أقدح زناد فكري محاولاً تذكّر الكتاب الذي نسختها منهُ، لكنّ محاولاتي ذهبت عبثًا.

تجاوز القطارُ في تلك اللحظةِ منطقة «بولبيك»، لكنّ ذهني كانت قد سافرت بي إلى الصيْن، وتحديدًا إلى العام 1958. كانت الصفحاتُ تسردُ فصلاً مذهلاً من فصول سياسة الإصلاح الزراعي التي أطلقها «ماو»، وكان من نتائجها تعرّض الصيْن إلى واحدة من أقسى المجاعات التي لم تشهد لها مثيلاً طوال تاريخها. كانت أرقامُ الضحايا مثار جدلٍ بين المؤرّخين، غير أنّ ما تواتر من أحاديث كان يشيرُ إلى تسبّب سياسة الإصلاح الزراعي في مقتل حوالي ثلاثين مليونَ نسمة. كانت السّلطات الصينية قد اتخذت وقتها حزمة من الإجراءات، من بينها ما كانَ مبالغًا في تطرُّفهِ. لقد أطلق «ماو» ما أسماهُ بحملة مكافحة الآفات الأربعة، بهدف تحرير الصينيين من الجرذان والذباب والبعوض، ولكن خصوصًا (وهاهنا عاودني ذلك الانطباعُ بأنّ كلّ ما يحدث على ظهر الكرة الأرضية، ماضيًا وحاضرًا، من الصين إلى «نورماندي» العليا وقريبا في أماكن أخرى، كان يسقطُ على رأسي في نهاية المطاف) من عصافير الأشجار، التي وضعتها الحملة على رأس أولويّاتها.

ونزولاً عند نصيحة بعض المهندسين السوفيات، قام «ماو» بإجراء ما يشبهُ هذه العمليّة الحسابيّة: إن قلنا إنّ كلّ عصفور دوريّ يلتهمُ حوالي كيلوغرامين ونصف من البذور سنويًا (وهذا ما يطلقُ عليه الخبراءُ اسم «شهيّة الطيور)، ومع وجودُ ما يقاربُ العشرة ملايين من تلك الطيور على الأراضي الصينية، فسيكونُ حاصلُ ما تلتهمهُ سنويًا حوالي 25 ألف طنٍّ من البذور، أي أنّها تلتهمُ، ما يمكنُ أن يطعم عشرات الآلاف من الصينين لمدّة عامٍ كاملٍ. ولذلك كلّه، صدر القرارُ الرسميّ بإدانةِ عصافير الدوريّ بتهم السرقة وارتكاب أفعال معادية لروح الأمّة، وتخريب الشيوعيّة من الدّاخل، وأجبر الصينيون على تبنّي الموقف الماويّ الحربي الذي فرضتهُ السلطة.

وككلّ القرارات اللطيفة التي اعتاد «ماو» اتخاذها، كان يتعيّنُ على الصينيين إبادة الطيورِ نهائيًا. ولقد أطلق «ماو» على حملة الإبادة الجماعيّة اسمًا بسيطًا، يسهلُ تداوله على الألسنِ، وهو «حملة مكافحة عصافير الدوري» (كنتُ قد ذيّلت الورقة بالاسم الصيني مكتوبًا بالأحرف اللاتينية). في واقع الأمر، كان «الربّان العظيم»(123) يكرهُ أنصاف الأمور، غير أن تنفيذ قراراتهِ ووجه بجملة من العراقيل، على غرار ندرة البنادق وارتفاع سعر البارود. في غضون ذلك، توّصل علماءُ

الطيور الصينيون إلى حقيقة مفادها أنّ عصافير الدوريّ تظلّ حيّة، أثناء الطيران، لمدّة ساعتين ونصف تقريبًا، قبل أن تسقط ميّتة من الإرهاق (هاهنا اكتشفت أنّي ذيّلت الورقة بحاشية تقولُ إنّ مفردة «Friquet» الفرنسيّة تشيرُ إلى النشاط والحيويّة، ومن ثمّة أطلقت على عصافير الدوريّ بسبب سلوكياتها المهتاجة الشبيهة بسلوكيات أسراب الحشراتِ الطنّانة). ولأنّ «ماو» كان يحبّ تشريك الجماهير في تنفيذ قراراتهِ، كان الحلّ الذي توصّل إليه يتمثّل في تجنيد الشعب الصيني بأسره للتخلّص من الطيور. ومن ثمّة، قام الحزب بتنظيم حملة دعاية وتعبئة كبرى تحضيرًا للعمليّة. وفي يوم 18 أبريل من سنة 1958، على السّاعة الخامسة صباحًا، أعطيت إشارة انطلاق حملة الإبادة.

لقد فرض على جميع الصينيين الخروجُ إلى الشوارع والحقول والقرى والغابات وكلّ مناطق البلاد مسلّحين بالأواني والطبول والصنوج والمقاليع والنشابات(122) والبنادق. كانوا صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساءً، تركوا منازلهم من أجل تلك المهمّة (لم يكن أمامهم أيّ خيارٍ آخر إن شئنا الأمانة)، ولمدّة 72 ساعة، وحتّى ساعة مبكرة من صباح يوم 21 أبريل، لم تتوقّف الضوضاء ولو لبرهةٍ، إذ كان يتعيّن على الناس هزّ الأشجار، ورشقها بالحجارة والسهام والرصاص لمنع الطيور من الهبوط، والصراخ بأغاني تبثّ الرعب في قلوب العصافير وإحداث أكبر ما يمكنُ من جلبةٍ، وقد منع النوم عنهم تمامًا. داخل القرى، نظمت المسابقات لمكافأة من قتلوا أكبر عدد ممكنٍ من الطيور. في تلك اللحظة، ألقيتُ نظرة من خلال النافذة على الريف الفرنسي وتخيّلته غارقا في تلك الهيستيريا الدمويّة، ثمّ عدتُ إلى أوراقي. لمدة ثلاثة أيّام متتالية، أجبر شعب بأكمله على الصراخ والغناء لكي تسقط الطيور الصغيرة منهكةً على الأرض. كانت الصين بأسرها تعيشُ حالةً من الضوضاء المعمّمةِ. ولم يكتف الصينيون بذلك، بل عمدوا إلى هدم أعشاش الطيور وتكسير بيوضها. وبعد حوالي 40 ساعة من انطلاق حملة الإبادة، راحت أعدادٌ هائلة من عصافير الدوريّ تسقطُ هامدة على الأرض، فيسارعُ النّاس للقضاء عليها موجّهين إليها الإهانات واللعنات. في غضونِ ذلك، حدث أن انهار عدد قليل من الرجال والنساء، وجرح بعضهم، وثمّة كذلك من سقط ميتا من التعبِ في بعض الأحيان، أو لعلّه انتقامُ الطبيعة من

حماسهم المميت. كان ممثلو الحزب يتجمّعون داخل الساحات لاحتساب أعداد العصافير التي جمعها كلّ مواطنٍ من الأرض، قبل أن ترمى الجثث الصغيرة داخل العربات. كانت رائحةُ الموت تضوعُ في الأرجاء، لكن بدا أنّ كلّ شيء يهونُ أمام إنقاذ الحبوب وتوفير أكبر محصولٍ منها، وهو ما لم تعرفه الصين منذ قرونٍ.

وفي 21 أبريل من العام 1958، أصدر الحزبُ بيانهُ الرسميّ: أصبحت الأراضي الصينية خاليةً تمامًا من عصافير الدوريّ. وهكذا انطلق مشروع «القفزة العظيمة إلى الأمام» بـ «سقوطٍ مدوٍّ من الأعلى». لقد أجهزت السلطات الصينية على 10 ملايين طائر في غضون 72 ساعةٍ فقط، أي أن البلاد شهدت، وفقا لحساباتي، سقوط 38 عصفورًا في الثانية لمدّة ثلاثة أيّام. وسيكونُ بوسعي القول إنّ الصين شهدت أكبر عمليّة استمطارٍ منظّمة للطيور على مرّ التاريخ، عمليّة بدت أشبه بأمطار طوفانية أو عواصف رعديّة أو أعاصير اجتاحت مساحات شاسعة من الصين لساعات وساعات.

ما هو مؤكد أنّ تلك الحملة لم تؤت أكلها، إذ بمهاجمة الطيور، غاب عن ذهن النظام أنّ عصافير الدوريّ لا تتغذى على الحبوب فحسب، ولكن على أعداد كبيرة من الحشرات. ولقد كان من شأن القضاء عليها أن أفقد الحشرات مفترسًا طبيعيًا، ما فتح أمامها الأبواب على مصراعيها لكي تعيث فسادًا وتهلك القسط الأعظم من المحاصيل، وهو ما أدّى بالنهاية إلى نتيجة كارثية لم يتوقعها النظام. وإلى حدّ ما، ساهمت حملة مكافحة عصافير الدوريّ الكبيرة في المجاعة الرّهيبة التي أعقبت عمليات الإبادة، ما أسفر عن مقتل ملايين الأشخاص وبروز ظواهر مجتمعيّة مروّعة رصدتها وسائل الإعلام كتقديم القرابين البشرية والانتحار وأكل لحوم البشر، إلخ. ولم تتوقفْ الآثار الكارثية عند ذلك الحدّ، إذ أنّ رغبة السلطات في القضاء على تلك الآفات المتكاثرة، جعلها تعمد إلى رشّ ملايين الأطنان من المبيدات الحشريّة فوق الأرياف الصينية، وسرعان ما التحقَ النحلُ بعصافير الدوريّ في سقوطه الحرّ من السّماء، إلى أن أبيدَ تماما. وذلك ما يفسّرُ عدم وجود نحلةٍ واحدة في الصيّن في أيّامنا هذه، وهكذا لم يبق أمام الصينيين من حلٍّ سوى تحويل أنفسهم، كلّ ربيعٍ، إلى حشراتٍ مسلّحة بأعواد القطن لتلقيح أشجار البلاد.

غادرت ذهني الريف الصيني، لحظة وصول القطار إلى مشارفِ «لوهافر». ومع ذلك، احتفظت عيناي بمشاهد الحشود الهادرة في الطرقات والحقل بينما تغرس أجساد الطيور المنهكة فوق حرابها وكأنها جوائز صيد. كنتُ في تلك اللحظة أقتربُ من الشاطئ الذي حدثني عنهُ «جان بيار»، بينما واصلت الفتاة الشابة العبث بهاتفها الجوال، مع تغيير طفيف، إذ لاحظتُ أنها كانت تلتقط صورًا لنفسها سرًا، وهي ترسمُ على ملامحها تعابير مختلفة، قدّرتُ أنها سترسلها في الحال إلى أصدقائها. ألقيت نظرة خاطفة على الطفل، فألفيته نائمًا في حضن أمه. عدتُ إلى دفتر طيوري النافقة وأغلقتهُ ناسخًا قصة الطيور الصينية داخل عقلي. كانت الأيامُ تمضي بي بينما تمتلئ رأسي أكثر فأكثر بالطيور، وتحديدًا تلك الطيور النافقة العابرة للأزمان. بالنسبة إليّ، ثمة أمرٌ واحدٌ مؤكد وهو أن دفتري تحوّل إلى مقبرة، حتى إنّي تساءلتُ ما الذي ستفعلهُ بي وفي مستعمرات الطيور النافقة، أكانت موجودة في الكتب أم في الواقع، طيور «الصين» و«النورماندي» و«بلينيوس» و«بونسكور». كنتُ أشعرُ بثقلها فوق كتفي، حتى إني تخيّلتُ عقلي بمثابة شاشة سينما تختنق رويدًا رويدًا تحت كتلة هائلة من أجسام الحيوانات، إلى أن حال لونها إلى الأسودُ السخاميّ مع نهاية المشهد الأخير.

أيقظ صوت سائق القطار، وهو صوتٌ بدا لي مصطنعا يخاطبُ الجميع دون تمييز، الطفل الصغير من نومه وكأنّه يحذرهُ من مخاطر الذاكرة البشريّة وعواقب الإهمال التدميريّة: «لقد وصلنا إلى محطّة «لوهافر» وهي آخر الخطّ. نرجو من السادة الركاب التأكد من عدم نسيان أمتعتهم قبل النزول من القطار. كلّ متاعٍ متروك سيتمّ إعدامه على الفور».

---

(126)كلمة كوراي Corail هي كلمة مركبة من مفردتين: confort وتعني رفاهية وrail وتعني سكة. كانت تطلق على نوع من القطارات الفرنسية.

(125)ليوبولدين هوغو (28 أغسطس1824، باريس – 4 سبتمبر1843، فيلكوير) – هي الابنة الكبرى للكاتب والشاعر والروائي الفرنسي الكبير فيكتور هوغو.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

(124)ماو تسي تونغ (مواليد 26 ديسمبر 1893 – 9 سبتمبر 1976). هو ثوري شيوعي صيني ومؤسس جمهورية الصين الشعبية، والتي حكمها من خلال قيادته للحزب الشيوعي منذ تأسيسه عام 1949 وحتى وفاته عام 1976. يُعرف أيضاً باسم الرئيس ماو. اشتهر ماو بأيديولوجيته الماركسية اللينينية واستراتيجياته العسكرية الخاصة ونظرياته وسياساته، إذ شكلت كل هذه الأفكار مجتمعة ما بات يعرف بالماوية.

(123)أحد ألقاب ماو تسي، ويعني الملاح المتبضر الذي قاد دفّة السفينة الصينية المختارة.

(122)تتكون النشابة من سهم قصير مثبت بزاوية قائمة عبر لوح دعم خشبي يضعه الرامي على كتفه.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

مع وصولي إلى «لوهافر»، لم أرد إضاعة ثانية واحدة، فهاتفتُ «جان بيار»، وقد كان لحظتها ينتظرني عند الشاطئ. قال لي إنّ السلطات الصحيّة لم تصل بعد إلى المكان. ورغم أني وجدتُ عبارة «السلطات الصحيّة» غريبةً نوعًا ما، إلاّ أني تجاوزتها، وأوقفتُ سيّارة الأجرة، أشرتُ على سائقها بالتوجّه إلى شاطئ «بينيديبي». كانت السّماءُ تمطرُ حقًّا في الخارج. عبرت بنا السيّارة المدينةَ في اتجاه جسر «نورماندي»، وهو عبارة عن جسرٍ مثبّتٍ بالكابلات، بدا لي كأنّه ثبّت في السّماء الكئيبة بحبالٍ غير مرئيّة. وإذ لاذ السّائق بالصمت، رحتُ أتشاغلُ بلعبة سباق القطرات المنسابة على بلوّر النافذة الخلفيّة. كانت اللعبة تتمثّلُ في اختيار قطرةٍ بعينها والمراهنة عليها، ثمّ متابعة انحدارها فوق البلور بفعل الرّياح. والقطرة التي تصلُ أوّلاً تعلنُ فائزة بالسّباق. عليّ أن أعترف أنّي عندما كنتُ أعاينُ تلكؤ قطرتي أو اختفائها، أسارعُ أحيانا إلى الغشّ، وأختارُ في الحال قطرةً أخرى كيلا ألفي نفسي خاسرًا عند خطّ الوصول.

كان الشاطئ يقعُ إلى جنوبِ تجويف ترابيّ، نصلُ إليه، بعد مغادرة الطريق الرئيسية، عبر مسلكٍ ترابيّ أخير يتقدّمهُ موقف سيّارات. عاينتُ وجود ثلاث سيّارات وشاحنة تحملُ قناة «فرنسا 3، مقاطعة نورماندي». شعرتُ برغبة في محاكاة الأفلام الأمريكيّة، حيثُ يطلب البطل عادة من سائق سيّارة الأجرة أن ينتظرهُ، قبل استئناف المطاردة، لكن إمكانياتي الماديّة لم تكن تسمحُ لي، لسوء حظّي، بأن أدفع لهُ مقابل انتظارهُ. غادرت سيّارة الأجرة، وتركني السائق واقفًا بمفردي على الطريق.

لا شكّ أنّ «جان بيار» كان غير بعيد. هكذا فكّرت قبل أن أتساءل في سرّي: ترى كيف عرف بأمر الطيور؟ وما الذي دفعهُ إلى القدوم إلى هناك؟ الحقّ أني لم أجد الوقت لطرح تلك الأسئلة عليه عندما هاتفته. قدرّت أنّ رحلة «أميرة السّين» النهريّة انتهت في اليوم السابق بعد وصولها إلى محطتها الأخيرة في «هونفلير». في تلك اللحظة، طفقت ذهني تراجعُ خرائط الأيّام الأخيرة المنهكة حتى شعرتُ بأنّي أشبه ما يكونُ بشخصيّة «عقلة الإصبع»(130)، مع اختلافٍ بسيطٍ، وهو أني كنتُ أركضُ فوق طريقٍ متعرّجة معلّمة بحصيّات هي عبارة عن طيور ألقيت هنالك من أجلي. فجأة تساءل: ماذا لو كان كلّ ما يحدثُ معي فخًا يرادُ منه الإيقاع بي؟

مشيتُ داخل المسلك الترابي إلى أن بلغت الشاطئ، وهناك رأيتُ، عند طرفه، مجموعة من الأشخاص، على بعد مائة مترٍ. في واقع الأمرِ، لم تكن تلك الأمتارُ هي ما يفصلُ بيننا بل ساحةٌ مجزرة حقيقيّة. من معاينة أشكال الطيور، بدت لي نوعًا الغدفان، إذ كانت أصغر حجما من الغربان ومناقيرها صفراء. كانت جثثها تفترش رمال الشاطئ على امتداد البصر. في الوقت نفسه، كانت الأمواجُ تلقي بالمزيد منها، ما يجعلها تبدو كأنّها تخرجُ ميّتة بعد رحلةٍ طويلة تحت سطح الماء. الحقُّ أنّ مرأى الطيور الغرقى، وقد لفظها المدُّ، جعلها تبدو في عينيّ مثل مستعمرةٍ من قناديل البحر بصدد اجتياح الشاطئ.

أمسكتُ واحدًا منها بين يديّ، آملاً في أن أجد في ملمسه شيئا من الدفء، لكنّ البرد هو كلّ ما وجدتهُ. لا شك أنّ وقتا طويلاً مضى على نفوقه ما جعل ملمسه باردًا. هكذا فكّرت. شعرتُ بشيء من اللزوجة الناعمة عندما لمستُ ريشهُ، ولوهلة، انتابتني رغبةٌ في حك وجهي بذلك الرّيش قبل أن أطرد ذلك الخاطر وأقوم بقلبه على ظهره داخل راحةِ يدي، معاينًا انكماش قائمتيه وتصلّبهما، وكأنّه تعرّض لصدمةٍ كهربائيّة. فجأة شعرتُ بحكّة في حلقي وأنفي بسبب ذلك المزيج الرّهيب من روائح الأعشاب البحريّة والجيف. حاولتُ تقدير أعداد الطيور النافقة. كان هنالك طائران في المتر المربّع الواحد. قدّرت أن طول الشاطئ يبلغُ مائة متر وعرضهُ خمسة عشر، ما يعني مساحةً تقدّرُ بألف وخمسمائة متر مربّع، أي حوالي ثلاثة آلاف طائرٍ نافقٍ. ترى هل ستكونُ نهاية العالمِ شبيهةً بما كنتُ أعاينهُ في تلك اللحظة؟ حدّثتُ نفسي محاذرًا ألاّ تدوسها قدماي، فبدت مشيتي غريبة. كنتُ أباعدُ بين قدميّ أو أقرّبهما على التوالي، وفي كلّ الاتجاهات، بحسب وضعيّات أجساد تلك الغدفان. من يراني من بعيدٍ، سيذهبُ في ظنّه أنّي أؤدي رقصة الموت بالحركة البطيئة، رقصة كان تصميمها معاصرًا ينذرُ بنهاية الزّمان، تتكرّرُ فيها القفزاتُ في الهواء والانثناءات إلى الخلفِ والدورانُ على قدمٍ واحدة فوق حقلٍ من جثث الطيور. صعدتُ إلى أعلى الشاطئ إلى أن بلغتُ شريطا من العشبِ، نجا من مدّ الجثث. تطلّعتُ إلى الرمال البيضاء المنقّطة بالأسود، حدّثتُ نفسي قائلاً: لا بدّ أن فصل الصيفِ شهد استلقاء أجسادٍ مختلفةٍ هنا، إلى جانب بعضها البعض، كأنّها جثامين في انتظار ساعة الخلاص.

غادرتُ المكان في اتجاه المجموعة التي رأيتها قبل قليل. كانت مشكّلة من مصوّرٍ، يتبعهُ كلّ من تقني صوتٍ وصحافيٍ. كانت قدما المصوّر غارقتين في الرّمال، على الأرجح، بسبب ثقل الكاميرا. ما لم أفهمه هو سببُ رفع تقني الصوت عمود الميكروفون بزاوية مستقيمة، وكأنّ ثمّة ما يستحقّ التسجيل وسط ذلك الصمت المطبق. لم يكن ثمّة تحليقٌ أو تغريدٌ، بل طيورٌ نافقة، ما كان يبدو كوضعيّة مناقضةً تمامًا لجوهرها كطيور. في تلك اللحظة، اقترب «جان بيار» منّي وقال:

-كما ترى، أرى ما فعلتهُ الطيور أمرًا سخيفًا، لكن من يراها هكذا سيخيّل إليه أنّها مثل البشر، أعني أولئك الذين يلقون بأنفسهم من حالقٍ لتتحطّم أجسادهم على الأرض. إنّها تذكرني بأولئك الذين رموا بأنفسهم من البرجين المشتعلين(129). لعلّك تذكرُ مشاهد الأجسام المجهولة تلك وهي ترمي بنفسها متّخذةً مسارات غريبة. صحيحٌ أنّي لم أر الطيور تسقط، لكنّي تخيّلت الأمر على ذلك النحو الذي حدّثتك عنه.

ربّما كان «جان بيار» على حقٍ، فكّرتُ. ربّما أصبحت تلك الطيور مثل البشر، وألقت بنفسها مثلهم، على هيئة أثقالٍ ميّتة، لا سحر في تحليقها. في تلك اللحظة، شعرتُ بأنّه لم يعد بوسعي إدارة ظهري لفرضيّة الانتحار الجماعيّ أكثر من ذلك. مستعمرات كاملة من الطيور أنهكها الوجودُ فقرّرت إنهاء حياتها معًا، في الوقت نفسه، في ما يشبه الاحتفالية الغامضة. لم لا؟ حدّثتُ نفسي، قبل أن أستدير إلى «جان بيار» وأسألهُ:

-ما سببُ استشهاد هذه الكائنات؟

لم يجبني «جان بيار» كالعادة، وطفق يشرحُ لي ما حدث معه:

-بعد الرحلة البحريّة، خططنا أنا وزوجتي لقضاء بضعة أيّام مع شقيقها. هو يعيشُ في «كريك بوف»، قريبًا من هنا. المهمّ، وقعتُ على المشهد عندما خرجتُ للنزهة هذا الصباح، فاتصلتُ بك على الفور.

قرأتُ عن قبائل إفريقية يقال إنّها تحرّمُ قتل الطيور أثناء تحليقها. كان الصيّادون

ينتظرون أن تحطّ فوق الأشجار لترتاح قبل اصطيادها. في تلك اللحظة، انتابني شعورٌ بأنّي حططتُ بدوري على الأرض، كتفاي مغروستان في جذعي، وجذعي مغروش في ساقيّ، وساقاي مغروستان في الأرض، تحت رحمة رصاص صيّاد متمركز فوق تلّة الرّمال، تكادُ الأعشابُ القصيرة تفضحُ وجوده، كان يصوّب بندقيّتهُ بصبرٍ إلى مساري المتعرّج، وينتظرُ أن أقف في مكانٍ ثابتٍ وأضع نقطة النهاية لطيراني الأرضيّ، ولكلّ ما في ذهني عن قصصِ الحجل المرتابِ المحاصر، لكي يعدّل منظاره ويطلق رصاصتهُ مباشرةً إلى قلبي أو رأسي. ماذا سيبقى من التحقيقِ بعد موتِ المحقَّق؟

جلستُ على الرّمال إلى جانب «جان بيار» وبقينا ننتظرُ على تلك الحال طويلاً، دون أن نتبادل حرفًا واحدًا. كان مرأى شاطئ الطيور النافقة أمامي يجعلُ من التعليقِ أمرًا مستحيلاً. حانت منّي التفاتةٌ إلى تلّة الرّمال. كان هنالك حقلٌ من العنفات الريّحية العملاقة ترتفعُ وراءها على بعد مائة مترٍ. لقد بدت لي مثل ألعاب الأطفال الشاطئية، تلك التي يدوّرونها بإيقاعٍ بطيء. كانت عنفات عملاقة وسخيفة في الآن نفسه. فجأة، اجتاحتني رغبة في انتزاع كلّ العنفات، الواحدة تلو الأخرى، من على الأرض، والنفخ فيها لكي تدور في الاتجاه المعاكس. تخيّلتها مجموعة فرسانٍ، حان أوانُ قتالهم، أو رسلٌ من السّماء، لهم هيئات هندسيّة مشكّلة من ثلاث شفراتٍ، أو رياحٌ ثلاثيّة الأبعاد، توجّهُ كلّ ما يقعُ على رؤوسنا من عواصف ومشاعر حبّ وإحباط. خلال الأيّام القليلة، سقطت مئات الطيور النافقة فوق رأسي، وفوقها سلفٌ لا تربطني علاقة دمويّة به، وامرأة رشيقة تقف وراء دفّة سفينةٍ، وفرضيّة تولّد عفويٌ. ماذا لو بدأت السّماءُ تمطرُ مشاعرَ وآلهةً ورغبات ومسارات؟

أخرجني رنينُ هاتف «جان بيار» من شرودي، وقد تلقّى إخطارًا بنشرة أخبارٍ أولى. وأمام مشهد الخراب الماثل أمام عيني، تلقّيتُ الخبرَ، أو بالأحرى جملة الأخبار التي راح «جان بيار» يقرأها على مسامعي، فور ورودها، وكأنّه يؤرّخُ للرُّعبِ العالميّ الذي كانت وكالات الأنباء تتداولُ تطوّراته. أخبرني أنّ عدّة مناطق في العالم شهدت سقوط أمطار مماثلة من الطيور النافقة، في «كولورادو»، و«إندونيسيا» و«السويد». كما عُثر على أسرابٍ أسماك ميتة عند السواحل الإسبانية واليابانية والأوروغويانية.

وأضاف بنبرة جادّة: «إنها أزمة عالمية». منعتُ نفسي من الضّحك بصعوبةٍ. كانت الطيور تتساقط بأعدادٍ كبيرة من حولنا، في كلّ مكانٍ في العالم، ومع ذلك، لا أحد يعرفُ سرّ ذلك. في تلك اللحظة، شاهدتُ من بعيدٍ، كوكبة من النّاس تتقدّمُ نحو الشاطئ. لا ريبَ أنّ «السلطات الصحيّة» قرّرت القدوم أخيرًا، ومعها كاميرات القنوات التلفزية، وأناسٌ جاؤوا للفرجة وآخرون خوفًا من المستقبل.

فجأة، بدا تحقيقي الأخرق سخيفًا بعض الشيء في عينيّ. لقد وصلتُ إلى شاطئ «بينيديبي» لحظة إعلان سماء العالم عن انقلابها الكبير. لقد كان ما حدث في «بونسكور» مقدّمةً كارثة هائلة ونذرَ مذبحة طالت الكائنات البريئة في كلّ مكان. في اعتقادي، لم يبدأ الأمرُ فيها إلاّ لأنّ اسمها ينطوي على تورية خبيثة: فبالنظر إلى ما ينتظرنا في السنوات القادمة، يبدو لي من المؤكّد أننا لن نحظى بمساعدة(128) من أيّ نوعٍ. ومع ذلك، سيكونُ بوسعي أن أقول للجميع، للمرّة الأولى في حياتي، إنّي كنتُ هناك، وأنّي كنتُ من بين أوّل من تقصّى آثار تلك الطيور، مثل نبيّ ينذرُ بدمارٍ تجاهلتهُ العقول، أو ملاكٍ ينفخُ في بوق أصمّ، أو مهرّجٍ تاه وسط رحلةٍ نهريّة منظّمة حملتهُ إلى نهر «السيّن» لكي ينقذ الإنسانيّة من هلاكها الوشيك. سأقولُ لهم إنّي بقدرِ ما كنتُ أرى في العالم والتاريخ كيانين غريبين عنّي، ها أنا أراهما في تلك اللحظة يمسكانِ بتلابيبي.

واصل «جان بيار» جرد الأحداث الجنائزية على مستوى العالم، بنبرة غلبت عليها الحماسة: سقوط 16000 قبرة في «أوغندا» و4500 شحرور في «ترينيداد وتوباغو» و800 من طيور السّمان في «أكسفورد»، وبضع مئات من طيور الورشان المألوف «أوكسير»، و6000 شحرور بالقرب من «بوخارست»، إلخ، إلخ. شعرتُ بأنّ الخارطة التي أحتفظ بها داخل عقلي طالها الاضطراب، فلم أعد أعرفُ أين تقعُ «بورغوندي» أو «رومانيا»، أو كيف أميز بين القبرة والنسر. كنتُ غارقًا، وعاجزًا عن ترتيب تلك الأخبار في ذهني.

كلُّ ما كنتُ أعرفه أنّ الأمر لن يطول، فعمّا قليلٍ سيأتي أشخاص جادون يتولّون عنّي المهمة، وستهرع الصحف إلى المختصين لاستجوابهم، وسيجازف الأطباء

والعلماء وعلماء الطيور الجامعيون بتقديم تفسيرات أخرى، وسيدلي شهود العيان بشهاداتهم، وسيستخلص السياسيون النتائج وسيكتبُ المحرزون افتتاحياتهم. في وقتٍ لاحقٍ، سيأتي الدور على الروائيين الماهرين ليكتبوا عن الأمر بمهارة. ومع تدافع تلك الأفكار داخل رأسي، فقدتُ قدرتي على التحمّل، وقد فكّرتُ أنّ اهتمام العالم بأسره بالموضوع سيضعُ نقطة النهاية لتحقيقي. في غضونِ ذلك، استمرّ «جان بيار» في بثّ نشراته الإخبارية القادمة من أركان العالم الأربعة. في تلك اللحظة، اجتاحني إرهاقٌ لذيذ. على نحوٍ ما، شعرتُ بالاعتزاز لأنّها نهاية العالم التي تبدّت على هيئة أمطار طيور نافقة وقعت في «نورماندي»، قريبةً من عالمي، يمكنُ معاينتها من سطح سفينة، وعلى بعد بضع ساعاتٍ من العاصمة. وأحسستُ بأنّ أمطار الطيور المحليّة توافقت مع هشاشتي. عليّ أن أعترفَ بأنّي مجرّد هاوٍ كلّما تعلقَ الأمرُ بكارثة.

في تلك اللحظة، تذكرتُ قولةً لـ «تشارلز ه. فورت»، ذلك المجنون المغرم بأعمال السّحر الذي التهمتُ كلّ أعماله، جاء فيها:

«عندما يأتي ذكر تضاريس العقل، يذهبُ تفكيري إلى اعتبار المعرفة جزيرة عامرة بالجهل تحيطها الضحكاتُ من كلّ جانبٍ». والحقّ أن الأمر برمّته لا يحتاجُ إلى وسيط لإقناعِ كلّ واحدٍ منّا بأنّه «روبنسون كروزو»(127)، فما يقصدهُ «شارلز» تحديدًا هو هذا: «كلّ ما بوسعنا فعلهُ هو الضحك على تأويلاتنا الخاطئة، طالما أننا لا ندركُ معظم ما يحيطُ بنا».

فجأة، استحوذ عليّ حنينٌ غريبٌ إلى الوطن. وشعرتُ برغبة جامحة في العودة إلى باريس، وشقّتي، وأصيص نبتتي اليابانية الموضوع عند النافذة، ومحلّ الكاتب العمومي عند ناصية الطريق، وبائعي فساتين الزواج الشرقية في «بارباس»، ورؤية أحرفُ مغازة «تاتي» الزرقاء تتوهّج كمنارة في الليل، وهي ترشدُ الناس إلى المغازة وأسعارها الرخيصة.

هل سيكونُ عليّ ركوب الطائرة والسفر إلى «كولورادو» أو الإبحارُ إلى «أوروغواي» أو تطواف العالم لإنقاذه؟

الحقُ أني اكتفيتُ، بعد رحلة داخل نهر «السين» انتهت بنزولي إلى الشاطئ.

---

(130)عقلة الإصبع (Le petit Poucet)، هي حكاية خرافية شهيرة ألفها الكاتب شارل بيرو ونشرت عام 1697 في مجموعة حكايات من الماضي.

(129)في إشارة إلى أحداث 11 أيلول 2001.

(128)في إشارة إلى العبارة الفرنسية "bon secours" (وتنطق بون سكور) وتعني المساعدة الجيدة، أو العون عند الحاجة.

(127)روبنسون كروزو هي قصة كتبها الإنجليزي دانيال ديفو، ونشرت للمرة الأولى سنة 1719.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتعدتُ عن «جان بيار» وقرّرتُ أن أتمشّى بمفردي قريبًا. هاتفتُ أبي. وللمرّة الأولى منذ أسبوعين، ردّ شخصٌ ما على اتصالي. سمعتُ صفيرًا في أوّل الأمر، ثمّ جملة من الأصوات المتداخلة كانت تتحدّث بالإنجليزية، قبل أن أميّز من بينها صوتًا خشنًا ومرهقًا، هو صوتُ أبي. ابتدرني قائلاً: «أوه، إنّه أنت». كان يخاطبني وكأنّهُ غادر «بونسكور» قبل بضع ساعاتٍ فقط. ثمّ قال معتذرًا إنّهُ لم يجد الوقت لكي يردّ على اتصالاتي الهاتفيّة. وأضاف إنّه وصل إلى «غيرينزي» للتوّ. ثم طفق يحدّثني عن أعطال قاربه. ثمّة عارضة انكسرت، ولحقت بها الدفّة، وهو ما اضطرّهُ إلى إصلاح الأعطال وسط المياه. بعد ذلك، انجرف به المركب بسبب منخفضٍ قادمٍ من بحر «أيرلندا»، وهو ما اضطرّهُ ثانيةً إلى الرسوّ في أحد الموانئ، قبل أن يستأنف رحلتهُ ويتمكّنَ أخيرًا من الوصول إلى جزر القنال الإنجليزي(137). بعد ذلك، سألني عن أحوالي قائلاً: «لقد حاولت الاتصال بي عدّة مرّات. قل لي، هل أنت بخير؟». لم أحدّثه بخبر الطيور النافقة. لم أجد الجرأة على شرح الأمر له. وعلى أيّة حال، كان سيعلمُ بالأمر عاجلاً أو آجلاً. سألتهُ عن خططهِ بعد رحلته البحريّة، فردّ قائلاً: «دعني أخبرك بهذا: سأبقى في «غيرينزي» قليلاً، لإصلاح المركب والتنزه. ربّما وجدتُ في هذه الجزيرة ما وجدهُ نابليون في «سانت هيلانة»(136)». وتحسّبًا من احتمالية نسياني، لم يفوّت الفرصة كالعادة لتذكيري بأنه لم يعد يتحمّل البقاء في فرنسا. «ذلك البلد يثيرُ اشمئزازي»، قال ثمّ عرض عليّ الالتحاق به ومشاركتهُ رحلته، شاطبًا بجرّة قلمٍ، سنوات طويلة أنفقها في كتابة رسائل تنضحُ كرهًا واتهامًا بالخيانة. غيّرتُ دفّة الحديث متعمّدًا لكيلا أضطرّ للردّ عليهِ. كنتُ أعاني من دوار البحر، وأرغبُ في زيارة بلدان أخرى، ولذلك تركتُ لهُ مغامرته البحريّة، مسرورًا، وأنهيتُ المكالمة.

عندما يعودُ «أوديسيوس»(135) مرتديًا زيّ متسوّلٍ عجوز، سيتظاهرُ بأنّه تعرّف على الجميع، قبل أن يشهرُ قوسهُ ويشرعُ في قتلِ منافسيه. ستكونُ «بينلوبي»(134) قد ماتت على الأرجح إن هي نجحت في الفرار من منفاها، وسيهجرُ «تليماخوس»(133) جزيرة «إثاكا»(132) سعيا وراء مدن أكثر بهجة. ولن يهتمّ أحدٌ لأمره(131). على أيّة حالٍ، لم يعد ثمّة من ينتظرُ عودة

«أوديسيوس» في زمننا الحاضر، بعد أن فقد الجميع فضيلة الصبر.

جلستُ فوق التلّة الرمليّة، حيثُ تخيّلتُ الصيّاد يكمنُ لي، ورحتُ أتطلّعُ إلى الشاطئ، وكأنّي أنتظرُ من المدّ أن يرمي نحوي بواحدة من لعبِ البطّ الأصفر المعدّة لأحواض الاستحمام، تلك التي هربت من سفينة الشحن الغارقة في «ألاسكا» إلى اليابسة. إلى جواري، كان يرقد دفتر الطيور النافقة الذي سجّلتُ فيه كلّ أحداث الأيّام الأخيرة. فتحتهُ ودوّنتُ لائحة أخيرة مشكلة من الكلمات التالية:

طيور، عطالة، طيور، ضجيج، زازي، إرهاق..

ما هي دلالاتُ تلك اللائحة؟ أعدتُ قراءتها من مختلف الاتجاهات. في واقع الأمر، لم تكن تعني شيئا محدّدًا، ومع ذلك، كانت تعنيني على نحوٍ خاصّ، فهي كلّ ما بقي لي. إنّها آخر مقاطعي ومفرداتي وعلاماتي القليلة التي أدورُ حولها.

كنتُ قد تركتُ صفحةً بيضاء في آخر الدفتر. صحيح أنّي وددتُ أن أحوّل دفتري إلى سفينة نوح أحملُ فيها كلّ كائنات الخليقة، لكن ترك صفحة بيضاء، أو دفاتر بكر مخصّصة للقضايا الغامضة، لا يعدُّ أمرًا سيئا بالنهاية.

كان دفتري قد صار سميكًا، فضممتهُ إلى صدري. ربّما كان ما تضمّنهُ من هراء هو الأمر المنطقيّ الوحيد الذي قمتُ به منذ سنوات طويلة. «-كيف أمضيت شبابك؟ - ملأتُ دفترًا عن الطيور النافقة. – أوه، هذا جيّد».

كان الدّفترُ يثيرُ فيّ مشاعر الحماسةِ والإحباطِ على حدّ سواء، حالهُ في ذلك حال دفاتر العطلات. فكّرتُ في تركه على الشاطئ، للماء والرّمالِ، لعلّ ما فيه من كائنات حزينةٍ تنالُ حريّتها. في قرارة نفسي، كنتُ أعلمُ أنّه يفتقرُ إلى فصول دقيقة، وتصنيف علميّ للكائنات الحيّة باللغة اللاتينية، ونقوش معقدة، مثلما كنتُ أعرفُ أنّ هنالك حكايات غريبة، وقصصًا غامضة وأكاذيب لم أدوّنها. كنت أتمنى لو فتح دفّتيه للمزيد من أنواع الحيوانات الغريبة والطيور المهاجرة والجرابيات المستوطنة وحشرات البعوض الضخمة ودببة الكوالا وأنواع الضباع الفريدة. كنت أتمنّى لو قفزت الغزلان داخل صفحاته أمام الوحوش الكبيرة، وعدت الظباء بسرعة الظباء.

قريبا، سيأتي المدّ ويبتلع كلّ القصص. ومن يدري، ربّما شاهد الناس يوما حيوانات تخرجُ إلى السطح بحثًا عن القليل من الهواء، ربّما شاهدوا معزةً تقاومُ الأمواج أو قنفذًا يقفزُ فوق على ظهر سمكة رعاد كهربائي، أو زرازير تتهيأ للتحليقِ مجدّدًا.

كتبتُ رسالةً إلى «كلاريس»، بدت أقرب إلى إعلان حبٍّ سخيف للغاية، يحاكي مفردات السينما الأمريكية، على «غرار خلق الحبّ للحمقى». بعد ذلك، تمدّدتُ على رمال الشاطئ، مستحضرًا أغنية بحارة قديمة، كانت قد أفلتت من ذكريات الرّحلات البحريّة في طفولتي. «كنّا خمسة عشر رجلًا ماتوا من أجل صندوق/يوو وو وو، وزجاجة رم! اشرب وسيتولى إبليس باقي الأمر /يو وو وو، وزجاجة رم!»(131*)

لقد هدهدني ضمير المتكلّم الجمع المستخدم من قبل القراصنة في الأغنية، حتى إني شعرتُ تقريبا بمذاق الرم السيء داخل حلقي، وهو شرابٌ كان يقبلُ عليه البحارة بإفراطٍ في رحلاتهم الطويلة.

كان الرّملُ باردًا من تحتي، وتسلّلت الأعشابُ إلى ظهري، فاستويتُ جالسًا، مشيعا بصري إلى ما وراء حقل الغدفان الميّتة. فجأة، لمحتُ طائر بلشون أبيض اللون، كان يقفُ عاليًا على قائمتيه الطويلتين. كانَ غريب الأطوار وجميلاً بينما يتمشّى عند التقاء الماء بالرّمل. لقد بدا لي من بعيدٍ، كأنه يحصي الطيور النافقة، أو يراقبها، أو ربّما كان يتهيأ في تلك اللحظةِ، بوقفته الخرقاء، إلى مواجهةِ أعدائه القادمين.

Telegram:@mbooks90

---

(137)جزر القنال تشمل جزيرتا غيرزي وغيرنزي اللتان تتمتعان تتمتع بالحكم الذاتي.

(136)هي جزيرة تقع في المحيط الأطلسي وتتبع التاج البريطاني لبريطانيا. ذاع صيتها بعد نفي نابليون بونابرت إليها حيث أقام فيها عام 1815 حتى وفاته 1821.

(135)أوديسيوس هو ملك إيثاكا الأسطوري، ترك بلده كي يكون من قادة حرب طروادة، وصاحب فكرة الحصان هزم بواسطته الطرواديون.

(134)بينيلوبي في أوديسة هوميروس هي زوجة أوديسيوس الوفية التي ظلت ترفض الخاطبين

CamScanner ب الممسوحة ضوئيا

الذين تقدموا لها طوال غيبته في رحلته الطويلة حتى عاد إليها في النهاية.

(133)تليماخوس أو تليماك (وتعني حرفياً "البعيد عن القتال" لعدم حضوره حرب طروادة)، هو أحد شخصيات أوديسة هوميروس، وهو ابن أوديسيوس وبينيلوبي الوحيد وأحد الشخصيات المحورية في الأوديسة.

(132)هي جزيرة في كيفالونيا في اليونان. تعد الموطن الأسطوري لأوديسيوس (أوليس).

(131)في هذا المقطع الطريف، حاكى الكاتب بين مأساة البطل العائلية وأسطورة عائلة أوديسيوس.

(131*)"صندوق الرجل الميت" (تعرف أيضا باسم خمسة عشر رجلاً ماتوا من أجل صندوق) وهي أغنية بحارة خيالية، وردت في رواية جزيرة الكنز (1883) لروبرت لويس ستيفنسون.

Telegram:@mbooks90